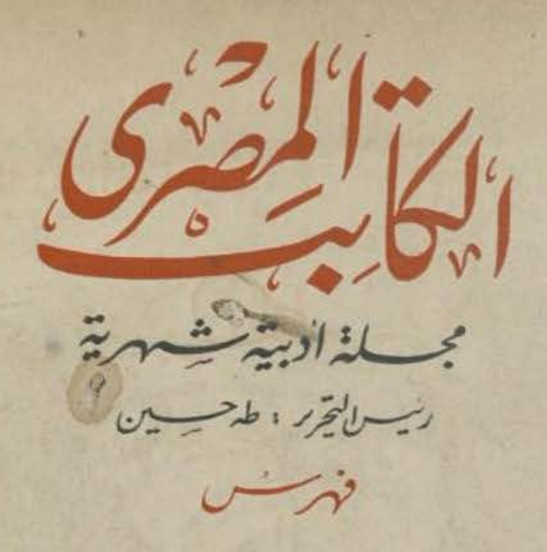
مجلد ٥ — عدد ١٨ مارس ١٩٤٧



مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
القاهرة







تباع كتب
دار الكاتب المصرى
ومجلة الكاتب المصرى
فى سوريا ولبنان
فى المكتبة العمومية
لصاحبها عطا مكى
دمشق — شارع فؤاد الأول
بيروت — جادة الافرنسيين

الموزع الوحيد فى سوريا ولبنان

تباع كتب
دار الكاتب المصرى
بالعراق
فى المكتبة العصرية
ببغداد
لصاحبها محمود حلمى
تليفون ٦٤٨٠ — ٤٢٧٦ — ٩٤٧٠
وعند وكلائها فى الألوية

الموزعين الوحيدين فى العراق

يوسف كرم
مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الاول

تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط

كتاب يقع فى ٢٦٨ صفحة

الثمن ٥٠ قرشاً (البريد المسجل ٥٦ مليما وللخارج ٦٨ مليما)



العقيدة والشريعة في الإسلام

تاريخ التطور العقدى والتشريعى فى الديانة الاسلامية

للمستشرق العظيم إجناس جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية
وعلق عليه

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين
بالجامع الازهر

عبد العزيز عبد الحق
المدرس بكلية الشريعة
بالجامع الازهر

على حسن عبد القادر
دكتور فى العلوم الاسلامية
مدير المركز الثقافى الاسلامى بلندن

أبواب الكتاب :

محمد صلى الله عليه وسلم والاسلام — تطور الفقه
نمو العقيدة وتطورها — الزهد والتصوف
الفِرَق — الحركات الدينية الأخيرة

ولكل باب حواش من المؤلف وتعليقات من المعربين

كتاب ضخم يقع فى ٤٠٠ صفحة

الثمن ٨٥ قرشا (البريد المسجل ٦٠ مليما وللخارج ٧٢ مليما)



الكاتب المصرى
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ، ١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها. يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة
تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤
الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)

Editor-in-chief : Taha Hussein





ربيع الثانى ١٣٦٦ — مارس ١٩٤٧
السنة الثانية — مجلد ٥ — عدد ١٨

فرانز كفكا

مرَّ بهذا العالم مرًّا سريعاً ، فلم يعش فيه إلا أربعين عاماً . أنفق جزءاً غير قليل منها فى الطفولة والصبا ، متأثراً بما حوله غير مؤثر فيه ، متلقياً ما ينحدر إليه من أبويه اللذين منحاه الحياة ، وما يقدم إليه أبواه أثناء التربية من ألوان التصور للأشياء ، والتقدير لها ، والحكم عليها ، والوقوف أمامها ، قابلاً حيناً ورافضاً حيناً آخر . متلقياً كذلك ما تقدم إليه بيئته الخاصة التى تحيط به وبأسرته فى مدينة براج ، فى أواخر القرن الماضى ، من ألوان الحضارة وفنون الحياة التى كانت الطبقة الوسطى تحياها فى ذلك الوقت .

ثم أنفق بعض هذا الأمد طالباً فى المدارس الثانوية ثم فى الجامعة ، مندفعاً بميله الأول إلى العلم ، ثم متحولا عن العلم التجريبى إلى الفقه والقانون ، حتى إذا أتم دراسته التمس عملا يكسب منه القوت ، ليظفر بشىء من الحياة المستقلة ، فوجد هذا العمل فى شركة من شركات التأمين . وهو فى أثناء ذلك يتكلف أسفاراً قصيرة فى وطنه وفى ألمانيا وسويسرا ، وإيطاليا وفرنسا . ثم لا يكاد القرن العشرين يتقدم قليلا ، حتى يقضى عليه الموت سنة ١٩٢٤ ، وقد ولد سنة ١٨٨٣ .

فحياته العاملة الظاهرة كما ترى قصيرة جدًّا ، بسيطة جدًّا ، ليس فيها عوج ولا التواء ، وليس فيها تكلف ولا تعقيد . ومع ذلك فلم يعرف التاريخ الأدبى كثيراً من الأدباء تعقدت حياتهم النفسية ، والتوت بهم طرق الاحساس والشعور والتفكير ، كهذا الأديب والذين يدرسون حياته النفسية . هذه فى آثاره الكثيرة ، يردون تعقيدها إلى طائفة من المؤثرات ، قريبة فى نفسها ، ولكنها

بعيدة أشد البعد فيما نشأ عنها من ضروب الشعور والتفكير . فقد كان أديبنا من أسرة يهودية تعمل فى التجارة ، متأثرة أشد التأثر ، وأيسره فى الوقت نفسه، بالتقاليد اليهودية المتوارثة ، فى شرق أوربا ووسطها ؛ فهى محافظة أشد المحافظة على هذه التقاليد السطحية التى يحافظ عليها اليهود . وهى فى الوقت نفسه متهاونة أشد التهاون فى حقائق الدين ودقائقه . ترى أنها قد أدت الواجب على وجهه إذا اختلفت إلى المعبد فى أوقات معلومة ، فسمعت ما يسمع الناس ، وقالت ما يقولون ، وأتت من الحركات والأعمال ما يأتون ، دون أن يتجاوز شئ من هذا كله أطراف اللسان وأعضاء الجسم ، إلى دخائل النفوس وأعماق القلوب فدينها ظاهر من الأمر ، كدين غيرها من عامة النـاس ، صور أشكال لا تمس الضمير ، ولا تؤثر فى السيرة اليومية ، ولا توجه الحيـاة الداخلية والخارجية إلى وجه دون وجه ، و إنما الحيـاة الداخلية والخارجية موجهتان دائماً بما وجه حياة الناس ، على أختلاف أديانهم وعقائدهم ، من هـذه الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، التى تدفع الناس إلى العناية بمنافعهم القريبة العاجلة ، أكثر من العناية بحقائق الدين ودقائقه ، وبتعمق الحيـاة وما يكون فيهـا من الأحداث ، وما يمكن أن يكون لهـا من الأغراض العليـا والغايات البعيدة . ولذلك لم يلبث أديبنا أن ضاق بهذه الحياة الدينية الظاهرة المتكلفة ، التى تقوم على النفاق أكثر مما تقوم على الايمان . فجحد دين الأسرة والشعب اليهودى أولا ، ثم جحد الدين نفسه بحقائقه ودقائقه بعد ذلك ، وأقام حائراً لا يستطيع أن يعود إلى دين آبائه ؛ لأن عقله لا يطمئن إلى هذا الدين ، ولا يستطيع أن يستغنى عن حيـاة دينية صادقة تعمر القلب وتملأ الضمير ثقـة واطمئناناً . فهو ينكر من جهة أشد الانكار ، ويسعى من جهة أخرى أشد السعى ، إلى أن يجد ما يؤمن به قلبه ، وترتاح نفسه إليه .

وهـذه المحنة القاسية التى امتحن بهـا فى إيمانه ، قد نشأت عنها محنة أخرى ليست أقل منهـا قسوة وعنفاً ، وليست أيسر منهـا تأثيراً فى حياته الداخلية ؛ فقد امتحن أديبنا فى الصلة بينه وبين أبيه . أنكر سيرة أبيه فى الدين ؛ لأنه لم ير فيها صدقاً ولا إخلاصاً . ثم أنكر سيرة أبيه فى الأسرة ؛ لأنه رآها تقوم على التسلط والاستطالة وعلى القوة والقهر أكثر مما تقوم على الرحمة والحب وعلى البر والعطف والحنان . ثم أنكر سيرة أبيه فى تدبير منافعه التجارية

المختلفة ؛ لأنه رآها تقوم على الحرص والأثرة وانتهاز الفرص ، أكثر مما تقوم على القصد والعدل والانصاف . فنظر إلى أبيه على أنه طاغية مخيف ، ولم يستطع أن ينظر إليه إلا على هذا النحو ، وأقام الصلة بينه وبين أبيه على الاشفاق والخوف ، ثم على المصانعة والمداراة ، ولم يستطع أن يقيمها على شئ آخر من هذا التعاطف الرقيق الرفيق الذى يكون بين الأبناء والآباء .

فهو إذن منكر للدين وسلطانه ، وهو فى الوقت نفسه ضيق بالأبوة وسلطانها . وهو لا يلبث أن يوحد بين هذين النوعين اللذين ينكرهما من السلطان ، سلطان الدين وسلطان الأبوة ، فيقف منهما موقفاً قوامه القلق والفزع والهول . وهو يشقى بهذا الموقف حياته كلها ، قد حاول ما وسعته المحاولة ، أن يخلص من الشك إلى الثقة ، ومن الخوف إلى الأمن ، فلم يجد إلى ذلك سبيلا .

ثم تنشأ من محنته فى الدين وفى الصلة بينه وبين أسرته ، محنة أخرى ليست أقل منهما قسوة ولا تعقيداً ، وهى المحنة التى تمس حقه فى أن يحيا حياة الآباء ، فيتخذ الزوج و يمنح الوجود للولد ، كما اتخذ أبوه الزوج وكما منحه ومنح إخوته الوجود . فهو يشعر بأنه مدين لأبيه بوجوده ، لا يشك فى ذلك ، ولايشك فى أن الدين يجب أن يؤدى ، ولايشك فى أن الوسيلة الوحيدة إلى أن يؤدى الابن ما عليه لأبيه من الدين إنما أن يمنح الوجود الذى تلقاه من أبيه لأبناء يتلقونه منه و يمنحونه بعد ذلك لأبنائهم . فاذا اتخذ الزوج ورزق الولد ، فليس عليه لأبيه دين . هو يؤمن بهذا كله ، ولكنه فى الوقت نفسه يقف من هذه القضية موقفاً يشبه موقف أبى العلاء فى البيت المشهور :

هذا جناه أبى علىّ وما جنيتُ على أحد

ذلك أنه يرى الحياة التى تلقاها من أبيه شرًّا لا خيراً ، لأنها لم تمنحه رضا القلب ، ولا هدوء النفس ، ولا راحة الضمير ، ولا هذه الثقة الباسمة التى تنشأ عنها كل هذه الخصال . هو مدين لأبيه بالوجود ، ما فى ذلك شك . وليس أحب إليه من أن يؤدى ما عليه من الدين ، ولكن بشرط ألا يكون أداء الدين مصدراً للشر ، ولا سبيلا إلى الأذى ، وبشرط ألا يجنى على أبنائه ، ما جنى عليه أبوه من هذا القلق المتصل ، والخوف الملح ، واليأس المقيم ، وإلى جانب هذه المحن الثلاث ، فى الدين والأبوة والزواج ، تضاف محنة أخرى

لعلها أن تكون هى التى أسبغت لونها القاتم على محنه الأخرى كلها ، وهى محنة المرض ، المرض الذى لا يظهر فجاءة ولا يثقل على المريض ثقلا طويلا ، وإنما يداوره ويناوره ، ويسعى إليه سعياً خفيًّا بطيئاً متلكئا ، يدنو منه لينأى عنه ، ويلم به ليفارقه ، ويقفه من الحياة موقفاً غريباً لا هو باليأس الخالص ولا هو بالأمل الخالص ، وإنما هو شئ بين ذلك ، يملأ القلب حسرة ولوعة ، ويملأ النفس شقاء وعناء ؛ حتى إذا استبان أنه قد نهك فريسته وكلفها من الجهد أقصاه ولم يبق فيها قدرة على المقاومة ، أنشب فيها أظفاره ، وصب عليها آلاماً ثقالا وأهوالا طوالا ، ثم قضى عليها الموت فى ساعة من ساعات الليل أو من ساعات النهار .

فأنت ترى أن أديبنا عليل قد ألحت عليه العلة ، وأن علته معقدة أشد التعقيد ، بعضها يتصل بالدين . وقد عجز أطباء اللاهوت عن علاجه ؛ فهو قد قرأ التوراة وتعمق دراسة التلمود ، ودرس المسيحية ودرس فلسفة الفلاسفة المؤمنين والملحدين ، فلم يجد لعلته الدينية هذه طباً ولا شفاء . وبعضها يتصل بالوراثة والصلة بين الابن وأبويه ، فهو إلى علم النفس التحليلى أقرب منه إلى أى شئ آخر . وقد عجز علم النفس التحليلى عن علاجه ، فلم يستطع أحد ولم يستطع شئ أن يصلح رأيه فى أبيه ، أو يصلح العلاقة بينه وبين أبيه ، وإنما ظل طول حياته واقفاً من أبيه موقف الطفل الخائف المروع الذى يرى تفوق أبيه وتسلطه ، ويحاول أن يخلص من سلطانه فلا يستطيع ، ويحاول أن يحبه وأن يظفر منه بالحب فلا يستطيع . وبعضها يتصل برأيه فى الحياة ، وموقفه منها ، ورغبته فى أن يحياها كما تعود الناس أن يحيوها ، وخوفه مع ذلك من العجز عن احتمال أثقالها ، وخوفه بنوع خاص من أن يحمّل هذه الأثقال قوماً آخرين ، أبرياء لم يجنوا ما يستحقون من أجله احتمال الأثقال ، وهم الزوج والولد . وبعض علته جسمى يتصل بالفسيولوجيا ، وقد عجز الأطباء عن علاجه ؛ فمازال السل يداوره ويناوئه حتى قضى عليه آخر الأمر . فاذا قدرنا هذه المحن كلها ، وقدرنا أنها لم تصب على رجل عادى ، وإنما صُبّت على رجل ممتاز له من القلوب أذكاها ، ومن العقول أصفاها ، ومن الأذواق أرقها ، ومن المشاعر أدقها ، ومن الحس أشده إرهافاً ، وله بعد ذلك إرادة حازمة صارمة ، وقدرة مدهشة على الملاحظة ، وعلى ملاحظة نفسه أكثر من ملاحظة غيره من الناس ، وبراعة

خارقة للعادة فى أن يجعل نفسه موضوعاً للدرس والبحث والتحليل ، وأن يكون هو الدارس الباحث المحلل ، وأن يسجل ما ينتهى إليه درسه وبحثه وتحليله ، فى آثار مكتوبة طوال وقصار — أقول إذا قدرنا هذا كله ، لم نر غريباً أن يكون أديبنا هذا بهذه المنزلة التى شغلت الناس ، ويظهر أنها ستشغلهم وقتاً طويلا .

وربما كان أخص ما يمتاز به فرانز كفكا أشد الامتياز ، أنه كان أصدق الناس لهجة ، وأشدهم إخلاصاً ، وأبغضهم للتكلف ، وأبعدهم عن التصنع ، وأعظمهم حظا من التواضع الذى يأتى من معرفة الانسان قدر نفسه بعد الدرس المتصل والاستقصاء العميق . وهو من أجل ذلك كان يكتب لنفسه ؛ أكثر مما كان يكتب للناس ؛ فقد كان من أشد الناس زهداً فى نشر آثاره ، وأعظمهم إخفاء لها وضنّا لا لأنه كان يكبرها أو يغالى بها ، بل لأنه كان يزدريها كما كان يزدرى نفسه . وقد نشر قليل من آثاره أثناء حياته فى المجلات ، ولم ينشر فى أكثر الاحيان إلا على كره منه . كان صديقه ماكس برود يختطف هذه الآثار اختطافاً ، ويدفعه إلى نشرها دفعاً . فلما أدركه الموت وقرئت وصيته ، تبين أنه قد اختار صديقه هذا ، (ماكس برود) وصيّا ، وأنه يطلب إليه أن يحرق آثاره كلها ، وألا ينشر منها فى الناس شيئاً . وقد وقف الوصى من هذه الوصية موقف الحيرة التى لم تتصل ، فشك غير طويل ثم خالف عن أمر صديقه ، وأخذ فى نشر آثاره ملتمساً لذلك ما شاء من العلل والمعاذير . وقد مات فرانز كفكا سنة ١٩٢٤ ، ولم تمض على وفاته أعوام حتى كانت آثاره بعيدة الانتشار فى ألمانيا ، بل فى أوربا الوسطى كلها ، ثم تجاوزت حدود أوربا الوسطى إلى أوربا الغربية ، فتلقاها الفرنسيون لقاء غريباً .

وربما كان من طرائف الأشياء ، أن آثار فرانز كفكا ، كانت تستقبل أحسن استقبال فى غرب أوربا ؛ وينكل بها أبشع تنكيل فى أوربا الوسطى ؛ فكان الفرنسيون والانجليز يترجمونها ويفسرونها ، على حين كان الألمانيون الهتلريون يحرقونها جهرة فى الميادين .

وقد يكون من الخير أن نلاحظ ، قبل أن نتحدث عن آثار فرانز كفكا ، أن ظروف الحياة الأوربية كانت ملائمة كل الملاءمة لظهور هذه الآثار . فقد بدأ كفكا يشعر ويفكر قبيل الحرب العالمية الأولى ، فكان كل شىء من حوله يؤذن بالكارثة ويدفع إلى البؤس واليأس . ثم مضى فى تفكيره وإنتاجه أثناء الحرب العالمية الأولى ، فكان فى تلاحق الكوارث والفواجع من حوله ما يزيد إمعانه

فى البؤس واليأس . ثم نظر ذات يوم فاذا كل شئ من حوله ينهار : فامبراطورية النمسا والمجر تتفرق أيدى سبا ، والامبراطورية الألمانية العظيمة تلقى السلاح وتركع متلقية شروط المنتصر ، فلا يزيده هذا كله إلا إيغالا فى البؤس واليأس . ثم يمضى فى تفكيره و إنتاجه . وقد تم الصلح ، ولم تلبث الانسانية بعد إمضائه أن استشعرت خيبة الأمل وكذب الظن ، فلم يتحقق العدل الذى قيل إن الحرب أثيرت لتحقيقه ، و إنما عادت الانسانية بعد الحرب ، كما كانت قبل الحرب ، بائسة يائسة ، متخبطة لا تدرى إلى أى وجه تتجه ، ولا فى أى طريق تسير .

حياة خاصة كلها نكر وشر ، وحياة عامة كلها بؤس ويأس ؛ فأى غرابة فى ان يكون الأدب الذى ينتجه فرانز كفكا فى هذه الظروف كلها هو الأدب الأسود بأدق معانى هذه الكلمة وأشدها سواداً وحلوكا . وواضح جداً أن هذا القلب الذكى ذا الحس المرهف والشعور الدقيق ، لم يصور الحياة كما رآها من حوله فحسب ، و إنما صور هذه الحياة، وصور آثارها القريبة ؛ فكان فى أدبه هذا المظلم ، شئ من التنبؤ المزعج ، بما ستتعرض له الانسانية من الكوارث والأخطار . وكان من أجل هذا بغيضاً إلى الذين كانوا يريدون أن يعيدوا الحرب جَذَعة ، مثيراً للشوق وحب الاستطلاع عند الذين كانوا يخافون الحرب ويشفقون من أن يدفعوا إليها كارهين . ومن أجل هذا كانت آثار فرانز كفكا فى وقت واحد ، تترجم فى باريس ، وتحرق فى برلين . والآثار الأدبية التى تركها فرانز كفكا كثيرة منوعة ، لم تنشر كلها بعد ، و إنما نشر أكثرها . وأظهر ما تمتاز به من الخصائص أنها تصور القلق الذى يوشك أن يبلغ اليأس ، وتصور الغموض الذى يضطر القارئ إلى حيرة لا تنقضى ، ويدفعه إلى كثير من المذاهب فى فهم هذه الآثار وتأويلها ، وحل ما تشتمل عليه من الألغاز والرموز . فقد كان فرانز كفكا أشد الناس صراحة وأعظمهم إخلاصاً فى حياته اليومية ، وفيما كان ينشأ من الصلات بينه وبين أصدقائه وذوى معرفته ، وفيما كان يسجل لنفسه من الخواطر والمذكرات فى يومياته المتصلة ولكنه بعد هذا كله كان أبعد الناس عن الصراحة وأنآهم عن الوضوح ، فيما كان ينتج من القصص الطوال والقصار .

وليس المهم أن نلتمس العلل المختلفة لهذا الغموض ؛ فالأدب الرمزى

فى نفسه ظاهرة سائغة طبيعية، ليست فى حاجة إلى أن تلتمس لها العلل والمعاذير، وإنما هى أثر من آثار بعض الأمزجة، ولون من ألوان الفن، فى كثير من الآداب القديمة والحديثة، على اختلاف البيئات والعصور. فقل بعد ذلك إن فرانز كفكا قد أمعن فى درس التلمود، وتعمق ما فى آداب إسرائيل من الأسرار والألغاز، وتأثر بهذا كله فى فنه؛ فهذا حق من غير شك، ولكنه ليس كل شئ، فما أكثر الأدباء الرمزيين الذين يستمدون رمزيتهم من مزاجهم الفنى وحده، لا من دراسة التلمود، ولا من تعمق الأسرار والألغاز فى أدب إسرائيل!.

والغموض فى أدب فرانز كفكا من نوع خاص. فالرجل المثقف حين يقرأ هذا الأثر أو ذاك من آثاره، لا يشعر بالغموض لأول وهلة، وإنما يخيل إليه أنه يقرأ شيئاً يسيراً سائغاً قريب الفهم، لا يتكلف فى تذوقه جهداً ولا عناء. ولكنه لا يلبث أن يحس شيئاً من الغرابة، أو قل شيئاً من الغربة فى هذا الذى يقرأ؛ لأنه يرى أشياء مسرفة فى البساطة مألوفة أشد الالف، ليس من شأنها أن ترتفع إلى حيث تكون أدباً ينتجه الفن الرفيع، وإنما هى من هذه الأشياء التى يراها الانسان فى كل يوم وفى كل مكان، وفى الطبقات الساذجة العادية من الناس؛ فيسأل القارئ نفسه، أو قل يقنع القارئ نفسه، بأن الكاتب لم يرد إلى هذه البسائط، وإنما اتخذها وسائل قريبة لغايات بعيدة. وهنا يدفع القارئ إلى التماس هذه الغايات، فيذهب فى التماسها كل مذهب، ويسلك إلى استكشافها كل سبيل. وقد يصل إلى شئ يحسبه الغاية التى قصد إليها الكاتب، ولكنه لا يكاد يفكر ويروّى، حتى يشك فيما انتهى إليه، وحتى يسأل نفسه ألا يمكن أن يكون الكاتب قد أراد إلى غاية أخرى أو إلى غايات أُخر، غير هذه التى انتهى هو إليها؟ وكذلك تستطيع أن تقول إن قارئ فرانز كفكا، معلق دائماً، يخيل إليه أنه يفهم ما يقرأ، وهو يفهم معانيه القريبة من غير شك، ولكنه يشعر شعوراً قوّيا بأن هذا الذى يفهمه ليس هو الذى قصد الكاتب إليه.

وإلى جانب هذا الشعور بالتعليق المتصل يجد القارئ أثناء قراءته حرجاً مرهقاً وضيقاً شديداً لأنه يرى نفسه فى بيئة مهما تكن قريبة فى ظاهر الأمر فهى غريبة فى حقائق الأشياء. وهو من أجل ذلك لا يحس يسراً؛ ولا سهولة ولا سعة، وإنما هو يشعر بضيق الصدر وقلق النفس وهذا الجهد العنيف

الذى يفرض على العقل . فقارئ فرانز كفكا فى الدنيا وليس فيها ، هو فى عالم غريب ، لا هو بالواقعى ولا هو بالوهمى ، وإنما هو شئ بين الواقع والوهم يملأ النفس حيرة وشوقاً وسأماً وإلحاحاً فى وقت واحد .

تأخذ فى قراءة القصة فيفجؤك قربها وتدهشك غرابتها ، وأنت لا تكاد تطمئن إلى هذا القرب اليسير المألوف ، ولو قد اطمأننت إليه لتركت القصة وأعرضت عن الكتاب ، ورأيت أنك لست فى حاجة إلى تكلف الجهد لتفهم ما لا يحتاج إلى فهم . وأنت لا تطمئن إلى هذه الغرابة ، ولو قد اطمأننت إليها لتركت القصة وأعرضت عن الكتاب يائسا من القدرة على الفهم ، ضنينا بوقتك وجهدك على إنفاقهما فيما ليس إلى فهمه سبيل . فأنت إذن معلق بين الوضوح الذى يملأ نفسك سأماً ، وبين الغموض الذى يملأ نفسك شوقاً . وما تزال فى هذه الحال المعلقة منذ تبدأ الكتاب أو القصة إلى أن تفرغ منهما .

وأغرب من ذلك أنك حين تفرغ من القراءة ، لا تنتهى إلى ما يحسن الاطمئنان إليه والسكوت عليه ، وإنما أنت معلق بعد الفراغ من القراءة ، كما كنت معلقاً فى أولها وفى وسطها . ذلك لأن الكاتب لا يتم قصته ، وإنما يقتضبها اقتضاباً ، وينتهى بها إلى شئ لا يصلح أن يكون غاية لقصة أو كتاب . ومصدر ذلك فى أكبر الظن أن الكاتب نفسه لا يعرف لنفسه غاية يقف عندها أو أمداً ينتهى إليه ، وإنما هو يمضى بقصته فى طريقها ما وسعه المضى ، حتى إذا أدركه الاعياء أو انتهى إلى بعض الطريق ، وجد أمامه سدا منيعاً لا يستطيع أن يتجاوزه ، فوقف حيث ينتهى به السعى ، واستأنف السير فى طريق أخرى ، وانتهى من هذه الطريق الأخرى إلى مثل ما انتهى إليه فى الطريق الأولى ، فوقف ثم استأنف السير فى طريق ثالثة . وما يزال كذلك يبدأ الطرق ولكنه لا ينتهى منها إلى غاية ؛ لأنه هو فيما بينه وبين نفسه يائس من الغاية أو كاليائس منها .

فخذ مثلا قصصه الثلاث الكبرى ، وهى القضية ، والقصر ، وأمريكا . فستراه يبدأ قصته الأولى بدءاً قريباً كل القرب ، غريباً كل الغرابة ، فيفرض عليك أن تصحبه فى هذه الطريق التى يريد أن يمضى فيها : فهذا رجل لم تتقدم به السن ، ولكنه قد جاوز الشباب شيئاً ، يفيق من نومه ذات صباح ، وينتظر أن تحمل إليه الخادم طعام الافطار . ولكن الخادم لا تحمل إليه شيئاً ، بل لا تدخل

عليه ، وإنما يدخل عليه رجلان يزعمان له أنهما يمثلان الشرطة ، وأنهما قد أقبلا للقبض عليه . وهما يدعوانه فى شىء من العنف إلى أن ينهض من سريره ويدخل فى ثيابه ، ويلحق بهما فى غرفة مجاورة ليبدأ معه التحقيق . وهو دهش لهذا الحادث منكر له ، ضيق بهذين الشرطيين ، ولكنه مع ذلك مضطر إلى أن يطيع . فاذا لحق بالشرطيين فى الغرفة المجاورة وجدهما قد أكلا طعامه غير حافلين به ولا آبهين له . ثم تُلقى عليه أسئلة سخيفة لا خطر لها ، ثم ترد إليه حريته ويقال له : إنه يستطيع أن يذهب إلى حيث يشاء ، وأن يمارس عمله فى المصرف الذى يعمل فيه ، ولكن عليه أن يعلم أنه متهم ، وأنه سيدعى ذات يوم للمثول بين يدى القضاة ليسألوه عن التهمة الموجهة إليه . والشرطيان ينصرفان عنه ، ويثوب هو إلى نفسه ، حائراً أول الأمر ، ثم ساخطاً ، ثم منكراً لهذا التصرف ، ولكنه قلق يريد أن يتبين جلية هذه القصة . وهو يسأل نفسه فيطيل السؤال دون أن يظفر بجواب ، وهو يقبل على عمله كما تعود أن يفعل ، ولكن قلقاً قد استقر فى نفسه ، إن أمكن أن يستقر القلق فى النفوس . والشىء الذى لا شك فيه أنه يسعى قليلا قليلا إلى الثقة بأنه متهم ، وبأن من الحق عليه ومن الحق له أن يدافع عن نفسه . وفى ذات يوم يدعى إلى التليفون ، فيقال له : إن عليه أن يحضر إلى المحكمة يوم كذا ، ويدل على مكان هذه المحكمة ، وهو مكان غريب لا صلة بينه وبين الأماكن المعروفة للمحاكم ودور الشرطة . فاذا كان اليوم الموعود ذهب إلى حيث طُلب إليه أن يذهب ، فرأى عجباً أى عجب : رأى داراً كبيرة قذرة متداعية ، تكثر فيها السلالم والدهاليز ، ولا يهتدى الناس فيها إلى طريقهم إلا بعد جهد شديد ، وهى على ذلك دار مسكونة كغيرها من الدور التى يسكنها الفقراء وأوساط الناس . وما يزال يسأل ويبحث ويستقصى ، حتى يصل إلى غرفة المحكمة ، فيرى جمهوراً من الناس غريباً ، ويرى جماعة من الموظفين قد جلسوا مجلس القضاء ، فيقول لهم ويسمع منهم ، وهو لا يفهم عنهم ، كما أنهم لا يفهمون عنه ، وكما أن النظارة لا يفهمون عنه ولا عن هؤلاء الموظفين . ثم ينصرف وقد استقر فى نفسه أنه متهم وإن لم يعرف طبيعة التهمة . وقد استقر فى نفسه أن من الحق أن يبرىء نفسه أمام القضاة . ولكنه لا يعرف من هؤلاء القضاة ، ولا أين يكونون ، ولا كيف يصل إليهم ؛ لأنه لم ير فى المحكمة إلا جماعة من صغار الموظفين . وهو ينفق

حياته فى محاولات شاقة مرهقة ليعرف تهمته وليدافع عن نفسه ، فيتصل بكبار المحامين وصغارهم ، وبقوم آخرين ليسوا من المحاماة فى شئ . وأولئك وهؤلاء يعدونه بالدفاع عنــه وتبرئته إن وجدوا إلى تبرئته سبيلا ، ولكن أحدا منهم لا يبين له طبيعة تهمته ، ولا يدله على مكان القضاة ، ولا يلمح له بطريقة الدفاع عنه ، و إنما هو أمل يتبعه يأس ، ويأس يتبعه أمل ، وحيرة مهلكة للنفوس . وفى ذات مساء يقبل عليه رجلان فى زى رسمى دقيق ، يدعوانه فيستجيب لهما ، وهو لا يعرف لماذا أقبلا عليه وإلام يدعوانه . وقد خطر له — لا أدرى لماذا — أنهما مغنيان ، وهو يخرج معهما على كل حال ، فيأخذه كل منهما من إحدى ذراعيه و يمضيان به لا يلويان على شئ . حتى إذا تجاوزا المدينة دفعاه إلى مقطع من مقاطع الأحجار ، ثم طرحاه على الأرض ، ثم أقبلا عليه فذبحاه ، وهو يرى ذلك لا يقاوم ولا يحاول المقاومة ، حتى إذا أحس وقع الخنجر وعرف أنه الموت قال هذه الجملة التى تنتهى بها القصة : « كما يموت الكلب . »

ولم أعرض عليك شيئاً من تفصيل القصة ، و إنما عرضت عليك خلاصتها فى كثير جدا من الايجاز . ولو قد عرضت عليك تفصيلها لتنقلت بك من شئ سخيف إلى شئ سخيف ، ولتنقلت بك فى الوقت نفسه من لغز غامض إلى لغز غامض ومن رمز خفى إلى رمز أشد منه خفاء . وبطل هذه القصة رجل لا نعرف من اسمه إلا حرفاً واحداً هو « الكاف » التى هى الحرف الأول من اسم الكاتب نفسه . فاذا سألت عما أراد إليه الكاتب بقصته هذه الرائعة ، فأكبر الظن أنه إنما أراد إلى أن يصور الانسان الخاطئ الذى لا يشك فى خطيئته ، ولكنه لا يعرف طبيعة هذه الخطيئة ، ولا يعرف كيف دفع إليها ولا كيف تورط فيها ، ولا يعرف كيف يخلص منها ، ولا أمام من يستطيع أن يحاول الدفاع عن نفسه . فهو موقن بأنه خاطئ ، وموقن بأن هناك قاضياً يستطيع أن يعاقب على الخطيئة كما يستطيع أن يبرئ منها . وموقن أن هناك قانوناً ينظم تبعة الخاطئين وما يترتب عليها من عقاب . ولكنه يجهل طبيعة الخطيئة ، ويجهل طبيعة القانون ، ولا يعرف المكان الذى استقر فيه القاضى ، ولا يجد الوسيلة التى توصله إليه . وبعبارة واضحة إنما أراد الكاتب إلى أن يصور الانسان البائس اليائس الذى أجبر على الحياة دون أن يريدها ، وأجبر على الموت دون أن يريده ، وخيل إليه أنه حر بين ذلك ، وانقطعت الصلة الدقيقة الأمينة بينه وبين الإله الذى

يدخله فى الحياة ويخرجه منها ، ويحمّله ما يحمله من الأوزار والتبعات ، لا يؤامره فى شئ من ذلك ولا يشاوره ، ولا يتيح له حتى أن يلقاه ليستعفيه من التبعة ، ويطلب إليه الصفح والمغفرة .

فكاتبنا إذن لا يجحد الاله ، ولكنه لا يعرفه ولا يعرف السبيل إليه . وهو مشوق أشد الشوق إلى أن يعرفه ويعرف السبيل إليه ، وهو يبذل فى سبيل ذلك الجهد كل الجهد دون أن يظفر بشئ . أترى إلى أننا لسنا بعيدين من حيرة أبى العلاء على اختلاف ما بين الرجلين فى الزمان والمكان والبيئة والثقافة والوراثة !

فاذا تركت هذه القصة ، وعمدت إلى قصة أخرى وهى القصر، انتهيت إلى نفس النتيجة المؤسسة التى انتهيت إليها فى القصة الأولى . ولكن الكاتب يسلك بك إلى اليأس طريقاً أخرى ؛ فبطل هذه القصة الثانية رجل لا نعرف من اسمه إلا حرفاً واحداً هو « الكاف » التى هى الحرف الأول من اسم الكاتب . وهو قد أقبل من مكان مجهول إلى قرية مجهولة ، يشرف عليها قصر ضخم فخم ، وهو يعتقد ويقول للناس إنه قد دعى إلى هذه القرية بأمر من القصر ليشغل فيها منصب المساح . وهو يريد أن يتصل بالموظف المختص فى القصر ليتسلم عمله ، ولكنه لا يجد سبيلا إلى هذا الاتصال . يحاول أن يتصل من طريق التليفون فلا يسمع إلا أصواتاً غامضة لا تدل على شئ . ويحاول أن يتصل بالعمدة ، فلا يجد عنده علماً بهذا المنصب ولا باختياره له . ويحاول أن يسعى إلى القصر فلا يجد سبيلا إليه ، ويحاول أن يتصل بالقصر بوساطة السعاة الذين يسعون بين سادة القصر وبين القرية ، فلا يظفر بشئ . وإنما هو الخداع يتبعه الخداع ، والحيرة تتبعها الحيرة ، والعناء المتصل والشقاء المقيم . وتنتهى القصة إلى غير غاية كما ترى : أنفق صاحبنا حياته فى القرية ، لا هو بالموظف فيتسلم عمله ويعيش مع أهل القرية كما يعيشون ، ولا هو باليائس فيعود من حيث جاء ، وإنما هو معلق بين اليأس والرجاء حتى يدركه الموت .

ولم أعرض عليك تفصيل هذه القصة ، كما أنى لم أعرض عليك تفصيل القصة الأولى ، وإنما اكتفيت هنا كما اكتفيت هناك بهذه الخلاصة اليسيرة التى تصور لك ما أراد إليه الكاتب من تصوير الانسان غريباً معلقاً لا يدرى من أين جاء ، ولا إلى أين يمضى ، وإنما يخيل إليه أنه قد دعى ، وأن له عملا ينبغى أن

يؤديه ، ثم يحال بينه وبين هذا العمل ، وتضيع حياته فى هذه الجهود المجدبة التى لا تغنى عن أصحابها شيئاً . ولو قد استطاع أن يصل إلى القصر ويتحدث إلى من فيه ، لعرف جلية الأمر . ولكن الأسباب متقطعة بينه وبين القصر ، فهو لايستطيع أن يصل إليه . القصر موجود ، مافى ذلك شك . يسكنه أهله وسادته ، ما فى ذلك شك . وهو يدبر أمر القرية والمقيمين فيها والطارئين عليها ، ما فى ذلك شك ، ولكنه يدبر هذا الأمر من بعيد ، ولا يتيح للمقيمين ولا للطارئين أن يتصلوا به أو يراجعوه فى قليل أو كثير . فموقف الكاتب هنا كموقفه هناك ، لاينكر وجود القوة القاهرة المدبرة ، ولكنه لايعرف كيف يتصل بها ، ليتبين جلية أمره ، وليعرف لماذا يجب عليه أن يفعل ، ولماذا يجب عليه أن يترك ، ولماذا يحتمل ما يحتمل من التبعات .

أما القصة الثالثة « أمريكا » فلعلها أن تكون أقل إحراجاً وإرهاقاً من هاتين القصتين ، ولكنها على ذلك لا تخلو من الحرج والضيق والألم ، وهى كذلك لاتنتهى إلى غاية . ويستطيع ما كس برود ، صديق الكاتب ، كما يستطيع غيره من النقاد أن يرى فى هذه القصة شيئاً من أمل ، وأن يظن أنها تدل على أن الكاتب قد ثاب إلى الثقة قبل أن يموت . أما أنا فلا أرى من ذلك شيئاً ، وكل ما فى الأمر أن بطل القصة صبى لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، فأمره رفيق بعض الشئ ، ولكنه منته إلى مثل ما ينتهى إليه أمر غيره من هذا الغموض الذى لا غاية له . واسم هذا الصبى كامل غير منقوص ، وهو كارل روسمان ، وأوله « الكاف » كما ترى ، وقد سخط عليه أبواه ؛ لأن خادماً أغوته فنفياه من أوربا إلى أمريكا . وفى أمريكا تختلف عليه الأحداث ، فمن نعيم ويسر ، إلى بؤس وعسر ، ومن استقامة ووضوح ، إلى التواء وغموض . ثم ينتهى الأمر به بعد كثير من الخطوب إلى أن يقبل عاملا فى فرقة تمثيلية غامضة أشد الغموض ، وقد وضع مع زملائه فى قطار يذهب به إلى غير غاية معروفة .

فأنت ترى أن المذهب هو هو ، لم يتغير : هذا الصبى عبثت به خادم ، وقسا عليه أبواه فنفياه ، وتلقته أحداث غامضة مبهمة متناقضة مضادة لأخلاقه وآماله . ثم هو يوضع آخر الأمر فى قطار يمضى به إلى مكان مجهول ، ثم نحن لانعلم من أمره بعد ذلك شيئاً . أتراه وصل إلى المدينة التى أرسل إليها أم لم يصل ؟ وما عسى أن يكون عرض له من الأحداث أثناء السفر قبل أن ينتهى القطار

إلى غايته إن كان قد انتهى إليها ؟ أتراه قد قبل حقا فى هذه الفرقة التمثيلية ؛ فقد كان قبوله الأول مبدئيا ، أريد به إلى التجربة لا إلى الاستقرار . كل هذه أمور مجهولة يخيل إلينا الكاتب أن جهلها ناشئ من أنه لم يتم القصة ! ولكن لمَ لمْ يتم القصة؟ لأنه لم يعرف كيف يتمها . وهو لم يعرف كيف يتمها لأنه لا يعرف كيف تتم قصة الانسان مهما يكن أمره ومهما تكن الظروف التى تحيط به . ولأنه لا يعرف كيف تتم قصته هو ؛ فهو غير مطمئن إلى أن الموت يختم قصة الانسان ، ولكنه لا يعرف عما يكون بعد الموت شيئاً . وهو غير مطمئن إلى أن هذه الحياة التى نحياها لم يقصد بها إلا إلى هذه الأغراض اليومية التافهة التى نحاول تحقيقها فنحقق أقلها ونعجز عن تحقيق أكثرها . ولكنه لا يعرف عن الأغراض العليا التى يمكن أن تكون الحياة وسيلة إليها شيئاً . محنته الكبرى ومشكلته التى لم يجد لها حلا ، هى أنه لم يستطع أن يستكشف الصلة بين الانسان وبين الاله . وما مصدر العجز عن استكشاف هذه الصلة ؟ إن الانسان يشعر شعورا قويًّا متصلا بوجود الاله ، ويحاول محاولة مستمرة ملحة أن يسمع كلمته ويتلقى أمره ليصدع بهذا الأمر ، فيبرأ من الاثم ، ويخرج من الخطيئة ، ويتخفف من ثقل التهمة التى ألقيت عليه ، فلا يجد إلى ذلك سبيلا . أمصدر ذلك أن الانسان أعجز من أن يرقى إلى الاله ؟ أم مصدر ذلك أن الاله لا يريد ، عن عجز أو عن عمد ، أن يهبط إلى الانسان ؟ أم مصدر ذلك قصور فى الانسان وفى الاله نفسه عن أن يلتقيا ؟ و إذن ففيم التهمة وفيم التبعة وفيم العقاب ؟

هذه هى المشكلات الكبرى التى فرضت على فرانز كفكا منذ امتحن فى إيمانه لجحد دين آبائه ، ولم يستطع أن يهتدى إلى دين غيره يرد إليه هذا الايمان . وهى فيما أعتقد نفس المشكلة التى فرضت على أبى العلاء ، لافرق بين الرجلين إلا هذه القرون العشرة التى أتاحت للمعاصرين ضروباً من العلم وفنوناً من الفلسفة وألواناًمن الحرية لم تتح لشيخ المعرة . ومع ذلك فقراءة اللزوميات ، وقراءة الفصول والغايات فى تعمق واستقصاء ، تنتهى بك إلى نفس الموقف الذى تنتهى بك إليه قراءة «القضية» و «القصر» و «أمريكا» . فشيخ المعرة يرى كما يرى فتى مدينة براج أن للعالم خالقاً حكيما ، لا يشك أحد منهما فى ذلك ، ولكنهما لا يفقهان حكمة هذا الخالق ولا يعرفان إلى فقهها سبيلا . وهما من

أجل ذلك يمتنعان عن الشر أو عما يريان أنه الشر ما استطاعا ، ويقبلان على الخير أو على ما يريان أنه الخير ما استطاعا : يكفان أذاهما عن الناس ، ويتجنبان السعى إلى مخالطتهم والاضطراب معهم فيما يضطربون فيه ، ويحرمان على أنفسهما الزواج والنسل ، ويشقيان بقلبين يريدان الايمان ويحاولان الوصول إليه ما أطاقا المحاولة ، وبعقلين يعترفان بما فرض عليهما من الضعف والعجز والقصور . لا يستسلمان إلى اليأس المطلق ، ولكنهما لا يطمئنان إلى الأمل ، وإنما يعيشان فى هذه الدار عيشة معلقة بين الرجاء والقنوط . وهما ينظران إلى العالم من حولها يريدان أن يفهماه ويستكشفا دقائقه وعلله ، فلا يبلغان من ذلك شيئاً . لا يرضيهما موقف العالم المتواضع الذى يستكشف قوانين الكون فيسجلها وينتفع بها وينفع بها الناس ، ولكنهما يريدان أن يعرفا علة هذه القوانين . وبينهما وبين معرفة هذه العلة ، آماد بعيدة لا يستطيعان لها عبوراً وهما من أجل ذلك ينكران العلة الغائية ، ولا يطمئنان إلى ما تعود الناس أن يطمئنوا إليه من أن العالم لم يخلق عبثاً ، ومن أن لكل ما يحدث فى هذا العالم غاية بينة أو غامضة . وليس معنى ذلك أنهما يجحدان حكمة الخالق وما يمكن أن يكون لها من غايات ، ولكن معناه أنهما لا يعرفان هذه الحكمة ، ولا يستطيعان أن يعرفاها ، ولا يقبلان هذه العلل الغائية التى يقبلها الناس ، وإنما يجيزان أشياء كثيرة لا يراها الناس جائزة ولا ممكنة ؛ لأنها تخالف ما ما تواضعوا عليه من العلل والغايات .

فأبو العلاء يرى أن من الممكن أن يشم الانسان بغير أنفه ، ويرى بغير عينيه ، ويذوق بغير لسانه ، ويمشى على غير قدميه ؛ ذلك كله ممكن لأن الذى خلق الانسان على هذا النحو الذى نعرفه ، وصوره فى هذه الصورة التى نألفها ، يستطيع أن يخلقه على نحو آخر ، ويصوره فى صورة أخرى ، ويمنحه مزاجاً آخر ، ويركب حسه فى حيث يشاء من أعضائه .

وفرانز كفكا يحدثنا فى قصة المسخ عن هذا الفتى الذى أفاق من نومه ذات صباح فلم ير نفسه كما رآها قبل أن ينام ، وإنما رأى صورته قد مسخت إلى حشرة قذرة كأبشع ما تكون الحشرات ، وهو على ذلك محتفظ بشئ من عقله وقلبه ، يفكر ويشعر ويحس ، ويميز بين الخير والشر ، ويقدر اللذة والألم ، ويعرف الرضا والسخط ، وهو يرى مكانه بعد المسخ من أهله ومن الناس ، يقدر

قسوة أبيه ، وحنان أمه ، وعطف أخته ؛ ثم ما يزال يلاحظ ازدياد القسوة فى نفس أبيه ، وفتور الحنان فى قلب أمه ، وتناقص العطف فى قلب أخته ، وقد سعى السأم إليهم جميعاً من هذه الحياة المرة البائسة المخزية ، حتى تتمنى الأخت لو تخلصت الأسرة من هذا العبء الثقيل ، ويقرها أبوها فى صراحة ، ولا تجرؤ الأم على أن تقول نعم أو لا . ويبلغ منه هذا كله حتى ينتهى به إلى موت سخيف حقير . وما الذى يمنع أن يمسخ الانسان إلى حشرة قذرة ، أو إلى حيوان جميل ؟ فالذى ركب العقل فى هذه الصورة الانسانية التى نراها ، يستطيع أن يركب العقل فيما شاء من الصور الجميلة والقبيحة ، الحية وغير الحية . ومن يدرى ! لعل الانسان كما هو أن يكون حشرة بشعة ، بغيضة بالقياس إلى كائنات أخرى فى هذا العالم لا نعرفها ، أو فى عالم آخر لا نعرفه . بل من يدرى ! لعل الانسان بالقياس إلى نفسه العاقلة التى تفكر وتقدر وتحصى وتستقصى ، وتطمح إلى الحق والخير والجمال — لعل الانسان بالقياس إلى نفسه العاقلة هذه أن يكون حشرة بشعة بغيضة ، حين يرضى حاجاته الطبيعية على اختلافها وتباينها . ففى الانسان كثير من طباع الحشرات ، وفيه فى الوقت نفسه شىء آخر يرفعه عن هذه الطبيعة الدنيئة .

ولو قد خلص الانسان لاحدى هاتين الطبيعتين من دون الأخرى لما أحس شقاء ولا بؤساً ، ولما ذاق طعم الخطيئة ، ولما احتاج إلى أن يبرىء نفسه من هذه التهمة التى لا يعرفها أمام هذا القاضى الذى لا يصل إليه . لو خلص الانسان لطبيعة الحشرة وحدها ، لما فرق بين الخير والشر ، ولا بين الاساءة والاحسان . ولو خلص لطبيعة العقل المجرد لما احتاج إلى أن يفرق بين الخير والشر ؛ لأنه فى حاله تلك لا يعرف إلا الخير ، ولا يطمح إلا إليه . فالمحنة كل المحنة هو هذا الازدواج بين طبيعة الحشرة القذرة ، وطبيعة النفس الممتازة العاقلة .

وهنا أيضاً يلتقى فتى براج فرانز كفكا ، وشيخ المعرة أبو العلاء . والنقمة الكبرى عند أبى العلاء هى الحياة ، والنعمة الكبرى ، هى فقدان الحياة . والذى يجعل النقمة نقمة ، هو هذا العقل الذى ركب فى هذه الصورة الانسانية فرأى الشرَّ من قريب ولم يستطع أن يخلص منه ، ولا أن يتخفف من أثقاله ، ولا أن يتصور حياة إنسانية عاقلة تبرأ من التبعات .

فأنت ترى إلى الآن أن أدب فرانز كفكا يقوم ، أو قل يدور حول هذه الأصول الثلاثة : وهى العجز عن الاتصال بالاله من جهة ، والعجز عن فهم الخطيئة والتبرؤ منها مع الثقة بالتورط فيها من جهة ثانية ، والعجز عن فهم العلل الغائية لما يكون فى العالم من الخطوب والأحداث من جهة ثالثة .

وأنت إذا قرأت هذه الآثار الكثيرة التى نشرت لفرانز كفكا على اختلافها فى الطول والقصر ، وتفاوتها فى الوضوح والغموض ، رأيتها كلها تدور حول هذه الأصول . وقد يلح هذا الأثر أو ذاك فى تجلية هذا الأصل أو ذاك ، ولكن مجموعتها تنتهى بك دائماً إلى هذه الخلاصة القاتمة السلبية ، التى تجعل حياة الانسان كلها عجزاً وقصوراً ويأساً أو شيئاً قريباً جداً من اليأس .

ومن أجل هذا وصف أدب فرانز كفكا كما وصف أدب أبى العلاء بأنه أدب قاتم حالك ، يفل العزائم ويثبط الهمم ، ويصد الانسان عن العمل و يرده عن الأمل ، ويدفعه إلى نشاط عقلى عقيم ، يدور حول نفسه أكثر مما يدور حول غيره ، ولا يحفز الناس إلى طمع أو طموح ، و إنما يمسكهم فى لون من الخوف المنكر ، الذى لا أمن معه ولا اطمئنان . ومن أجل هذا حرقت كتب كفكا فى برلين أثناء الحكم الهتلرى . ومن أجل هذا أيضاً كان اليساريون فى فرنسا يبغضون هذه الكتب أشد البغض ، ويودون لو يحال بينها وبين الشباب ، ويعبرون عن هذا كله بهذه الجملة التى كثر حولها الحديث فى فرنسا أثناء الصيف الماضى : « يجب أن يحرق فرانز كفكا » .

وواضح جدًّا أن هذه العبارة ليست إلا رمزاً ؛ فتحريق الكتب لا يغنى شيئاً ، ويكفى أن تحرق الكتب ليزداد انتشارها ، و إنما المهم هو أن هذا الأدب القاتم مثبط لهمم الشباب ، فلا ينبغى أن يخلى بينه وبين الشباب .

والقارىء العربى يعرف حق المعرفة أن آثار ابى العلاء تعرضت لمثل هذا الشر الذى تعرضت له آثار فرانز كفكا . ولكن الشرق قد يكون أعظم تجربة من الغرب فى بعض الظروف . وقد رأى الشرق العربى أن آثار أبى العلاء على غلوها فى التشاؤم والحلوكة لم تثبط الهمم ، ولم تفل العزائم ، ولم تصرف عن العمل ، ولم ترد عن الأمل ، و إنما منحت النفوس خصباً وفطنة وذكاء ، وحالت بين العقل الانسانى وبين الغرور الذى يطغيه ويدفعه إلى كبرياء عقيمة مهلكة فاضطرته إلى أن يضع نفسه حيث وضعه الله ، فلا يسرف على نفسه

بالبغي والطغيان ، ولا يزعم لنفسه القدرة على فهم كل شيء والنفوذ إلى دقائق ما في الكون من أسرار .

وسواء رضي الناس أم سخطوا ، فان التشاؤم ظاهرة طبيعية في حياة العقل والشعور تبدو في ظروف معينة ملائمة لها ، كالظروف التي أحاطت بفرانز كفكا ، وما زالت تحيط بكثير من كتاب الأدب المظلم في أوربا وأمريكا ، وكالظروف التي أحاطت بحياة أبي العلاء منذ عشرة قرون . ولعل القراء يلاحظون أن أدب أبي العلاء قد نشأ في عصر فساد وفتنة واضطراب ، وأنه كان تنبؤاً بكوارث خطيرة لم تلبث أن صبّت على العالم الاسلامي حين أغار عليه الصليبيون ، وأن أدب فرانز كفكا قد نشأ في عصر فساد وفتنة واضطراب ، وكان تنبؤاً مروعاً بكوارث خطيرة لم تلبث أن صبّت على العالم باعلان الحرب العالمية الثانية .

وقد احتفل العرب منذ أعوام بالعيد الألفي لأبي العلاء . وأكبر الظن أن الأوربيين لن ينتظروا ألف سنة ليحتفلوا بفرانز كفكا ، ولكنهم سينتهزون أقرب الفرص للاحتفال به ، وسيتبينون ، إن لم يكونوا قد أخذوا يتبينون بالفعل أن أدب فرانز كفكا قد كان من الخصب والقوة بحيث أخذ يترك في الآداب العالمية آثاراً بعيدة عميقة ، ليس إلى محوها من سبيل .

طه حسين

فى أفق السياسة العالمية

الحركة الوطنية فى ليبيا

لما اشتدت الأزمة السياسية فى إيطاليا وأثيوبيا فى سنة ١٩٣٥ ، عرض أحد مندوبى الصحف الأمر يكية على مسولينى حلاً يقترح فيه اقتطاع جزء صحراوى من أثيوبيا لايطاليا لعله بذلك ينصرف عن نية إعلان الحرب التى كان يبيتها حينذاك ضد الأحباش . فرمق مسولينى محدثه بنظرة حادة كلها سخرية وزراية وأجابه قائلا : « ومن قال لك إنى من هواة جمع الصحارى فى العالم ؟ » يشير بذلك إلى أنه يكفى إيطاليا أن تكون لها ليبيا وهو الاسم الذى أطلقه الطليان أخيراً على إقليمى برقة وطرابلس جميعاً .

والحقيقة أن هذه البلاد ما هى إلا جزء من الصحراء الكبرى المشهورة التى تمتد فى شمال إفريقية من النيل شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً ، ومن ساحل البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى نهر النيجر جنوباً . ولشدة طغيان الصحراء فى هذه البلاد اقتصر العمران فيها على طائفة من المدن الساحلية الصغيرة القليلة العدد والسكان مما دعا القدماء إلى أن يطلقوا عليها اسم « تريبوليس » أو طرابلس ومعناها المدن الثلاث . ولما كانت الزراعة فى هذه البلاد مقصورة على بعض الواحات وأجزاء من السهول الساحلية التى تجود عليها الرياح الغربية أحياناً بفيض من أمطارها فى فصل الشتاء ، فقد انصرف معظم الأهالى إلى الرعى وتربية الماشية . ولكن عدداً كبيراً من سكان هذه البلاد وما جاورها من شمالى إفريقية قد برموا بحياة الفاقة والشدة والامحال التى تفرضها عليهم طبيعة بلادهم الصحراوية ، فانصرفوا من الصحراء وولوا وجوههم نحو البحر لعلهم واجدون فيه وعلى سواحله رزقاً طيباً ؛ وما لبثوا أن انتظموا فى سلك قراصنة البحر وقطاعه من جبابرة الملاحين الأتراك والروم من أهل جزر بحر إيجه الذين اعتنقوا الاسلام واتخذوا البحر المتوسط مهاداً ومعاشاً ، وسعوا فى مناكبه بالبطش والجبروت ، فكانوا يفرضون سلطانهم على السفن التى تمخر عبابه ، ويقررون على أصحابها من الأوربيين الجزية

والضرائب والعطايا يدفعونها صاغرين ، وإلا سلبت تجارتهم وأسر مواطنوهم وبيعوا بيع الرقيق ودمرت سفنهم تدميراً . وقد ظل سلطان قراصنة البحر قائماً فى شمال إفريقية منذ القرن السادس عشر ، وبلغ أشده وعنفوانه فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . ثم أخذ يتناقص شيئاً بعد شئ حتى احتلت فرنسا بلاد الجزائر فى سنة ١٨٣٠ ومن ثم بدأ أثر القرصنة يزول فى تلك الأرجاء .

كان طورغود القائد البحرى التركى أول من أقام للقراصنة دولة فى طرابلس فى منتصف القرن السادس عشر ؛ فقد خلص البلاد من حكم الفرسان الصليبيين سنة ١٥٥٣ وأتبعها الدولة العثمانية ، وجعل يبنى السفن ويسلحها ويحصن القلاع والمرافئ حتى شيد لطرابلس أسطولا بحرياً من سفن القرصنة أنزل به الرعب فى قلوب الملاحين والتجار من شعوب أوربا . وقد أصبحت التبعية التركية بعد طورغود اسمية وآل أمر حكومة البلاد إلى أيدى رؤساء الجنود من الانكشارية الذين جاءوا مع طورغود وأثروا من الأسلاب والغنائم التى كانوا يستولون عليها . وظل زعماء الانكشارية هؤلاء يتنافسون ويقتتلون فى سبيل الحكم حتى تسلم كبيرهم أحمد القرمنلى حكومة البلاد فجعلها وراثية فى أسرته منذ سنة ١٧١١ معتمداً فى موارده على ما تصيبه الحكومة من أموال القرصنة ، وما كانت تدفعه بعض الحكومات من الرسوم والعطايا لتأمين تجارتها وسفنها التى كانت تمر فى شرقى البحر المتوسط ، فكانت حيناً تتفق مع حكام طرابلس — أو الدايات كما كانوا يعرفون — فى معاهدات تعقدها معهم رأساً دون حاجة إلى الرجوع إلى القسطنطينية ، وأحياناً ينشب النزاع بين هؤلاء الحكام والحكومات الأجنبية ، ويشتد التشاحن حتى يصل إلى لون من ألوان الحرب . وقد سيرت الولايات المتحدة ذات حين طائفة من بحارتها لاحتلال ميناء درنة فى أوائل القرن التاسع عشر ، وحاصروا طرابلس وضربوها بالمدافع ، وفقد الأمريكان حينذاك إحدى سفنهم الحربية ، وأسر بحارتها . ولما لم يطق الأمريكيون صبراً على الاقامة فى درنة آثروا أن يتفقوا مع الحاكم بعد أن افتدوا أسراهم بمبلغ عظيم من المال . وهكذا كانوا كلما اشتط الحاكم معهم فى تقدير الضريبة التى يدفعونها أرسلوا إليه سفناً من أسطولهم ترغمه على قبول مطالبهم .

وقد امتد سلطان أسرة القرمنلى على الساحل من غربى ميناء طرابلس إلى بنغازى ، وكانت الحكومة العثمانية تحتفظ بها كاحدى قواعدها فى البحر المتوسط .

أما القبائل التى كانت تقيم فى داخل البلاد فلم تتأثر كثيراً بنظام الحكم ، وظلت مشتغلة بمنازعاتها الداخلية فيما بينها على ما عرف عنها إلى الآن . وقد طبعت القراصنة أخلاق أهل البلاد بصفات المخاطرة والجلاد والكفاح مع الأعداء والمنافسين أيًّا كانوا ومهما نالت منهم الخطوب والأحداث .

ولما ضعف سلطان تركيا فى أواخر القرن الثامن عشر ، وتعاقبت انهزاماتها أمام روسيا وأمام ولاتها فى البلقان وفى الشرق ، طمعت الدول الأوربية فى ضم أجزاء من الامبراطورية العثمانية إلى أملاكها ، فكانت حملة بونابرت على مصر ، وأعقبتها بعد عشرين عاماً ثورة الاغريق ، ثم تجاسرت فرنسا وأرسلت حملتها لاحتلال بلاد الجزائر فى سنة ١٨٣٠ . فكانت هذه الأحداث جميعاً سبباً فى كسر شوكة القراصنة فى شرقى البحر المتوسط و إضعاف دايات طرابلس ، كما كانت عاملا قويا فى تنبيه الباب العالى إلى ضرورة التيقظ للاحتفاظ بالبقية الباقية من نفوذ تركيا فى شمالى إفريقية . لذلك انتهز السلطان محمود الثانى فرصة تفاقم النزاع فى طرابلس بين المطالبين بالحكم من أسرة القرمنلى فأرسل فى سنة ١٨٣٥ قوة بحرية مكونة من ٢٢ سفينة وعليها والٍ من قبله لتسلم الحكم فى ولاية طرابلس الغرب ، وقد عرفت بالغرب لتمييزها عن طرابلس الشام وأصبحت تركيا منذ ذلك الوقت تحكم البلاد رأساً . وكأنما أحست بأن هناك دولا أوربية ترنو ببصرها نحو طرابلس وتطمع فى السطو عليها ، فجعلت تستميل الأهالى إليها بانشاء المدارس ، و إصلاح شؤون القبائل والادارة ، وتعيين بعض أهل البلاد فى وظائف الحكومة ، وأخذت تقوى الثغور والحصون وتسلحها ؛ حتى إذا أعلنت فرنسا حمايتها على تونس فى سنة ١٨٨١ ، واحتل الانجليز مصر فى سنة ١٨٨٢ لم يبق شك فى أن إيطاليا تعد عدتها للانقضاض على طرابلس لتحوز نصيبها من الغنيمة وهى البلاد التى بقيت فى شمالى إفريقية بل فى إفريقية كلها عدا الحبشة غير خاضعة لسلطان إحدى دول أوربا .

وكان بسمرك المستشار الألمانى قد ارتضى أن ينصرف اهتمام فرنسا وتفكيرها عن الالزاس واللورين إلى شمالى إفريقية ليوقع الشقاق بينها وبين انجلترا من جهة وبينها وبين إيطاليا التى كانت لها مطامع فى تونس من جهة أخرى . وأرادت فرنسا بدورها أن تشترى سكوت إيطاليا فاتفقت معها سرًّا على أن تكون لها طرابلس مقابل عدم اعتراضها على مشروعات فرنسا فى مراكش . وعلى ذلك

باتت إيطاليا تترقب الفرصة المناسبة للنزول بأرض طرابلس ، وقد سنحت لها الفرصة فى سنة ١٩١١ وكانت تركيا إذ ذاك قد دخلت فى طور جديد من حياتها الدستورية والسياسية على أثر ثورة جمعية الاتحاد والترقى فى سنة ١٩٠٨ و إقصاء السلطان عبد الحميد عن عرشه ، و إثارة الشعور الاسلامى فى العالم أجمع حول الخلافةالعثمانية ضد أوربا . وكان وليم الثانىإمبراطور ألمانيا إذذاك يشجع حكومة تركيا بالمال والرجال ، و بمعونتها على تنفيذ المشروعات الاقتصادية الكبرى وفى مقدمتها مشروع السكة الحديدية من برلين إلى بغداد ، ومد فرع منها إلى الحجاز . فخشيت إيطاليا لو انتظرت أكثر من ذلك أن يقوى مركز تركيا فى طرابلس على الأيام بمساعدة ألمانيا، ويستعصى عليها بعد ذلك إخضاع البلاد التى سمحت الأقدار بأن تكون نصيبها من التركة . لذلك سارعت إيطاليا فى سبتمبر سنة ١٩١١ بارسال إنذار نهائى إلى تركيا بشأن طرابلس ، وأعلنت الحرب بعد ٢٤ ساعة من تسلم الانذار . ولم يجد الأسطول الايطالى صعوبة تذكر فى إخضاع المدن الساحلية : طرابلس وبنغازى ودرنة ، ولكن القوات الايطالية لم تجرؤ على التوغل فى الداخل على حين قد تسرب الضباط الأتراك بين القبائل ووحدوا صفوف الأهالى وقادوهم ضد الطليان كلما لاحت لهم فرصة للهجوم . وقد حاولت إيطاليا فى أول الأمر أن تضغط على الأتراك فتهاجم أسطولهم البحرى فى شرقى البحر المتوسط ، وتخترق المضايق . ولكن النمسا كانت لها بالمرصاد ، فأنذرتها بعدم الاقتراب من مياه البلقان ، فلم يسع إيطاليا سوى إرضاء حليفتيها النمسا وألمانيا ، وا كتفت باحتلال جزيرة رودس وسائر الجزر الاثنتى عشرة أو الدوديكانيز . ثم أرادت أنتتعجل بالنصر إرضاء للرأى العام الايطالى منجهة وخوفاً من اكفهرار الجو الدولى من جهة أخرى ، فأرسلت أمداداً برية جديدة إلى طرابلس أحرزت بعض انتصارات على قوات المقاومة . وكانت دول البلقان تستعدلتوحيد كلمتها وجمع قواتها ضد تركيا ، فسارعت هذه باجراء مفاوضات الصلح بينها وبين إيطاليا فى أوشى لوزان بسويسرا فى أكتوبر سنة ١٩١٢ ونزلت تركيا عن سيادتها علىطرابلس إلى إيطاليا ووافقت على إخلائها من قواتها ، على أن تبقى لها السيادة الروحية . وقد أراد الأتراك قبل مغادرتهم البلاد رسميا أن يداروا خجلهم أمامالأهالى ، فأعلنوا أنهم رغبة منهم فىإعادة الطمأنينة والسلام إلى البلاد ، قد خولوا الأهالى حق التمتع بالاستقلال الذاتى . وكان هذا التصريح

من أهم العوامل التى ساعدت على تثبيت أقدام المجاهدين فى حركتهم فصمموا على المقاومة إلى النهاية .

وهنا لا بد لنا من الاشارة إلى فضل الحركة السنوسية التى جمعت شمل القبائل ، وجعلت منها وحدة قوية خشيتها إيطاليا وفرنسا وانجلترا ، وهى الدول التى كانت تشترك مصالحها فى الصحراء الكبرى والسودان الغربى .

ولم تكن الحركة السنوسية فى مبدئها إلا طريقة من الطرق الصوفية التى تدعو إلى تقوى الله والعمل الصالح والعودة بالاسلام إلى سابق مجده وقوته ، بالسير على سنن السلف الصالح ، ونبذ الخرافات والبدع المستحدثة . ولكن أهميتها جاءت عن طريقين : الأول مراكز التبشير ونشر الدعاية السنوسية . فقد أنشأ مؤسس الطريقة السيد محمد على السنوسى ، الذى استقر به المقام فى بنغازى سنة ١٨٥١ كثيراً من الزوايا فى مختلف البقاع لتكون مراكز للعبادة والتعليم ، وكان على رأس كل منها شيخ يجمع حوله الأهالى ويقضى بينهم فى منازعاتهم ويرشدهم ويبصرهم بشؤونهم الدينية والدنيوية ، وكان عليه أن يجمع رسوماً محدودة يصرف منها على الزاوية والمدرسة ، وما يعود على الجماعة بالخير وعلى البلاد بالعمران ، كحفر الآبار وزراعة الأشجار ، ويحتفظ بجزء منها ثم يرسل مايفيض بعد ذلك إلى الشيخ الكبير ، فكان نظام السنوسيين فى مراكزهم شبيهاً بحكومة داخل حكومة ، وهو مايطلق عليه الغربيون *imperium in imperia*.

أما الطريق الثانى الذى زاد أهمية الحركة السنوسية فهو انتشار الطريقة من برقة وتحولها فى عهد السيد المهدى السنوسى الذى خلف أباه فى سنة ١٨٥٩ من حركة دينية صرفة إلى حركة نظامية تكاد تفرض لها سيادة إقليمية فى بعض المناطق . ولا شك فى أن ضعف تركيا فى ذلك الوقت قد ساعد على اشتداد ساعد هذه الطريقة وذيوع سلطانها ، لا فى برقة وطرابلس فحسب بل كذلك فى الصحراء الغربية كلها ، وفى السودان الغربى ووسط أفريقية ، فانتشرت زوايا السنوسيين بين بلاد المغرب الى اسطنبول ودمشق ومصر والهند . ومع ذلك فان السنوسيين لم يعمدوا إلى العنف والقوة فى أول أمرهم وتجنبوا كل أسباب العداء والاصطدام بتركيا خاصة وبغيرها من الدول عامة . فلما بدأت تركيا تتوجس خيفة منهم انتقل السنوسى الكبير من بنغازى إلى واحة الجغبوب جنوبى سيوه الغربى بمقدار ٣٠ ميلا ، وفى سنة ١٨٩٤ ترك المهدى السنوسى جغبوب إلى واحة

الكفرة التى تبعد بمقدار ٧٠٠ ميل جنوبى بنغازى . وكان ارتحال السنوسيين جنوباً وتوغلهم فى أعالى السودان واتفاقهم مع سلطان وادای شرقى بحيرة تشاد سبباً فى اصطدامهم مع الفرنسيين الذين كانوا يعملون على تثبيت نفوذهم فى تلك الأقاليم . وقد أدى ذلك الصدام إلى استعمال القوة بين الجانبين فى سنة ١٩٠٠ وقد انهزم السنوسيون ومات المهدى السنوسى سنة ١٩٠٢ بعد أن تعلم السنوسيون دروسهم الأولى فى الحرب وأساليب القتال الحديثة . وكأنما كانت هذه المعركة الحربية الأولى تدريباً عمليًّا للسنوسيين ليستعدوا لمواجهة الأحداث التى كانت تنتظرهم . فما كاد شيخ السنوسيين يعود بهم إلى مقرهم فى الكفرة حتى واجهت البلاد الغزو الطليانى ، فكان السنوسيون روح المقاومة ومضرمى نارها وخاصة فى إقليم برقة الذى كانت لهم فيه السطوة والعصبية . وكان الأتراك حتى بعد عقد معاهدة أوشى لوزان قد تغلغلوا داخل البلاد واعتصموا مع المجاهدين فى مكامنهم وواحاتهم ، فلم تستطع إيطاليا نشر سلطانها إلا على المدن والسواحل . حتى إذا قامت الحرب العالمية الأولى ودخلت إيطاليا الحرب إلى جانب الحلفاء بعد تسعة أشهر من نشوبها ، تشجع الأهالى فى طرابلس وجاءتهم المؤن والذخيرة من تركيا بواسطة الغواصات الألمانية ، فقاموا وأعلنوا استقلالهم وكونوا جمهورية اختاروا على رأسها أحد زعمائهم ، واتخذوا مصراتة عاصمة لهم ، وكذلك أرسلت تركيا أميراً عثمانيا عينته قائداً عامًّا على شمالى إفريقية ، ولم يسع إيطاليا حينذاك إلا سحب قواتها من البلاد مكتفية باحتلال بعض الموانى وأهمها طرابلس وحمص .

ولكن سرعان ما دب الخلاف فى صفوف المقاومين ؛ إذ كان فريق كبير على رأسه السيد أحمد الشريف السنوسى زعيم السنوسيين بعد وفاة عمه يؤازره الأتراك والألمان وبعض رجال العرب الذين انضموا إلى صفوف المقاومة — يريد انتهاز فرصة الحرب لمهاجمة الانجليز فى مصر من ناحية حدودها الغربية على حين كان فريق آخر يتزعمه السيد محمد الادريسى بن المهدى السنوسى وخليفة الشيخ الكبير ، وكان يقيم بمصر — يعارض فكرة الهجوم على مصر حرصاً على مودة الانجليز الذين كان لهم فضل إيواء السنوسيين وحمايتهم من مهاجمة الفرنسيين لهم فى السودان والصحراء الغربية . وبمساعدة الألمان تغلب فريق الهجوم ، فقامت فى أكتوبر سنة ١٩١٥ قوة صغيرة مؤلفة من ٥٠٠٠ من السنوسيين ونحو ألف جندى تركى وجماعة من البدو يقصدون غزو مصر من الغرب من ناحية

السلوم وواحة سيوة . وكان الانجليز قد أرسلوا معظم قواتهم إلى تركيا للاشتراك فى حملة غاليبولى ، ولذلك اضطروا إلى إخلاء السلوم وركزوا قواتهم فى مرسى مطروح . وتقابل الفريقان فى عدة معارك أهمها فى سيوة وقرب السلوم . ولم يكن يرجى للمهاجمين نجاح لضآلة عددهم واستعداداتهم من جهة ، ولانقسام الآراء بين صفوفهم من جهة أخرى . ولذلك انتصر الانجليز رغم حرج مركزهم وخاصة فى مصر ، واضطر الجيش المهاجم إلى الارتداد إلى برقة . أما السنوسيون فقد احتفظوا بالواحات مدة قصيرة إلى أن تألفت وحدات حربية جديدة مزودة بالسيارات المصفحة والجمال ، فاستردت الواحات سنة ١٩١٧ وبذلك تفرقت جموع السنوسيين وضؤل شأنهم ، واضطر السيد الشريف السنوسى إلى مغادرة البلاد إلى تركيا ثم الحجاز تاركا زعامة السنوسيين إلى ابن عمه السيد إدريس السنوسى وهو الزعيم الحالى ، وقد تفاوض مع الطليان بعد الحرب وكانوا فى حال لاتسمح لهم باستئناف القتال مع أهل البلاد ، فاتفقوا معه على أن تكون له السلطة داخل إقليم برقة وتكون له الامارة أيضاً بلقب صاحب السمو بشرط أن يعترف لهم بحق السيادة ، فتم الاتفاق فى سنة ١٩٢٠ ، وقام أهل طرابلس فى سنة ١٩٢٢ يدعونه لزعامتهم أيضاً ؛ وبذلك جمع فى شخصه وحدة برقة وطرابلس ، وبدا للناس أن كلمة البلاد قد توحدت فى النهاية وأن زعيما وطنيًّا مجاهداً من أهلها سيقود البلاد فى كفاحها ضد الغاصب الأجنبى . ولكن ما كادت هذه الآمال تلمع فى الأفق حتى جدت عوامل عجلت بخيبة الأمل ؛ فقد عارضت إيطاليا فى حركة البيعة التى جاء بها الطرابلسيون للسنوسى ، ورجعت عن اتفاقها السابق معه وعادت تحارب حركة المقاومة بالايقاع بين الزعماء تارة وبالغدر حيناً وبالجيوش والدبابات والطائرات أحياناً . ولذلك لم يلبث السيد السنوسى أن غادر البلاد بعد بيعته إلى مصر وبقى متصلا بحركة المقاومة عن طريق أخيه الرضا أولا ثم بوساطة الزعيم عمر المختار الذى قاد الحركة بعد رحيل السيد ، واتخذ من الجبل الأخضر على ساحل برقة قاعدة له ومعقلا حصيناً لأتباعه من المجاهدين الذين جاءوا إليه من كل فج وصدقوا على ما عاهدوا الله عليه من بيع أرواحهم رخيصة فى سبيل الله والوطن .

وكانت الحكومة الفاشية بزعامة مسولينى قد وليت أمر إيطاليا فى خريف سنة ١٩٢٢ وفى مقدمة أغراضها السيطرة على حوض البحر المتوسط و إحياء مجد

الامبراطورية الرومانية القديمة ، وأن تعيد إلى حوزتها أملاكها وولاياتها القديمة ومنها طرابلس ، حتى يجد أهل إيطاليا الذين ضاقت بهم بلادهم فى هذه المستعمرات الجديدة متسعاً كافياً لجهودهم ولذراريهم التى كان مسولينى يباهى بها أمم أوربا جميعاً . لذلك نشط الايطاليون فى العمل على استتباب النظام و إخضاع داخلية البلاد . ورأوا أن خير طريقة لقمع حركة المجاهدين أن يضيقوا عليهم الحصار من كل ناحية ، فطالبوا الحكومة الانجليزية بتحقيق وعودها لهم بشأن تعديل حدود ليبيا شرقاً ومساعدتهم لدى الحكومة المصرية فى إدماج واحة الجغبوب قرب سيوة فى المنطقة الايطالية فتم لهم ذلك فى سنة ١٩٢٥ . وكانت الجغبوب من أهم قواعد السنوسيين ، وفيها قبر منشئ الطريقة السيد محمد على السنوسى ، وباحتلالها تمكن الطليان من حراسة الحدود الشرقية وامتنع تسرب المؤن إلى المجاهدين ، وأقفل الطريق فى وجه اللاجئين منهم إلى مصر . وقد أحكم إغلاق الحدود بعد ذلك بوضع الأسلاك الشائكة على امتداد ٣٠٠ كيلومتر من البردية على الساحل إلى الجغبوب . أما جنوبى ذلك فقفار ووهاد لا سبيل إلى اختراقها أو عبورها إلا بالطائرة .

وأخيراً عين القائد الايطالى المشهور جراتزيانى حاكماً عامًّا على برقة وطرابلس ، وأخذ يعمل على إخضاع حركة المقاومة نهائيا بترغيب طائفة من السنوسيين و إرهاب طائفة أخرى بمختلف وسائل التعذيب ، ومن أقساها وأشدها وحشية أخذ المجاهدين فى الطائرات والتحليق بهم فى الجو ثم إلقاء جثثهم فوق مواطنهم على مرأى من ذويهم وقبائلهم . وأخذ الطليان يخضعون الواحات واحدة بعد أخرى حتى وصلوا إلى واحات الكفرة ، وتقع جنوبى بنغازى بنحو ألف كيلومتر . وفى هذه الواحات كان السنوسيون قد أنشأوا قرية التاج وزاويتها ، وهى تعتبر أكبر معقل للسنوسيين وفيها شيدوا دورهم ومخازنهم ، فسير الطليان إليها أكبر حملة اخترقت صحراء برقة فى العهد الأخير ؛ إذ كانت تتكون من نحو ثمانية آلاف جمل وعشرين طائرة محملة بالقنابل . واشتبك الأهالى مع القوة الايطالية فى معركة دامت بضع ساعات تمكن فى أثنائها المجاهدون من التسلل وحداناً وجماعات فى الصحراء ميممين شطر مصر والسودان شرقاً ومعهم نساؤهم وأطفالهم وما خف من متاعهم ، ومضوا مشاة وركباناً يتخبطون ذاهلين من أثر الصدمة نا كسى رءوسهم مما أصابهم من الهزيمة ، يرافقهم الجوع ويتعقبهم العدو بطائراته وقنابله

ويتخطفهم المرض والموت ، فكانوا يتساقطون على طول مسالك الصحراء وشعابها كأوراق الشجر أذواها الخريف . حتى إذا قاربوا حدود مصر وصل رائد منهم إلى الواحات الداخلة فى مصر ، وقص على مسامع أهلها وحكامها حكاية هؤلاء التعساء المنكودين ، فسارعوا بانقاذ من أمكن إنقاذه منهم بعد مسيرة نحو شهرين قمريين .

وكان احتلال الكفرة كالصاعقة نزلت على رءوس المجاهدين ، فأيقنوا بقرب مصيرهم . وأراد الطليان أن يسدوا فى وجوههم جميع المسالك ، فأقاموا الأسلاك الشائكة على الحدود الشمالية الشرقية ، فانقطعت أمام السيد عمر المختار وأصحابه أسباب الاتصال بالخارج وأصبحوا مضيقاً عليهم من جميع الجهات . وذات يوم من ربيع سنة ١٩٣٢ وقع السيد عمر أسيراً فى أيدى الطليان فسجنوه ثم حاكموه عسكريا ونفذوا فيه حكم الاعدام ، فارتكبوا باعدامه إثماً لا يزال عاره يلطخ صفحة استعمارهم إلى اليوم . و بموته انطفأ آخر بريق لحركة المقاومة فى ليبيا . وأخذ الناس يتناقلون فى جميع أنحاء العالم العربى أحدوثة البطولة التى اضطلع بها أهل برقة وطرابلس مدة عشرين عاماً ، والتى تمثلت فى جهاد السنوسيين واستشهاد عمر المختار ومن سبقه من المجاهدين والشهداء ، وقد راح ضحيتها نحو ثلث شباب برقة ونحو تسعة أعشار ماشيتها ؛ فلم يبق من سكان البلاد اليوم أكثر من مليون نفس . وقد ظن الطليان أنهم بقضائهم على حركة المقاومة قد مكنوا لحكمهم وتيسر لهم استعمار ليبيا . ولكن سرعان ما خاب ظنهم ؛ فقد انتثر عقد المجاهدين حقا ولكنهم انتشروا بين الشعوب العربية فى كل صقع يرددون مأساتهم ، وما اقترفه الطليان فى بلادهم من ألوان الجور والغدر والوحشية ، حتى أضحى الحكم الفاشى فى نظر الأمم العربية مبعث الخوف والشقاء ، وجرثومة الفساد والانحلال التى يجب أن تستأصل إن كان مقدوراً للشعوب أن تعيش وترقى فى مدارج المدنيـة .

وما كادت الحرب العالمية الثانية تنشب وتدخلها إيطاليا إلى جانب حليفتها ألمانيا ، حتى تجلت روح الكراهية والسخط ضد إيطاليا فى شمالى إفريقية ، وتقدم السيد إدريس السنوسى وأخطر الحكومتين المصرية والبريطانية باستعداده لمعاونة الحلفاء . وعلى أثر ذلك تألفت فرق القوة العربية الليبية من متطوعى برقة وطرابلس وأمدتهم انجلترا بالذخيرة والمؤن وبعض الضباط . وقد أبلى الليبيون بلاء حسناً

فى المعارك التى تتابعت جيئة وذهاباً فوق أديم أرضهم ، فتارة كان يتقدم الطليان فيصدهم الحلفاء ، وأخرى كان يرتد الطليان ويتقدم الحلفاء ، وآونة كان يزحف الألمان ومعهم الطليان ثم يردهم الحلفاء . وكانوا كلما ارتد الانجليز وحلفاؤهم وعاد الطليان إلى قواعدهم آثروا بمقتهم وغضبهم أهل ليبيا ، واختصوا من بينهم من كانوا يتعاونون مع الحلفاء فأنزلوا بهم سوء العقاب .

وفى ديسمبر سنة ١٩٤٢ خرج الحلفاء ظافرين من موقعة العلمين وأخذوا يطاردون فلول المحور غرباً حتى قذفوا بهم إلى البحر ، فثبتت قدم الانجليز فى ليبيا وبدءوا يقيمون حكومة مدنية يشترك فيها أبناء البلاد . وكان النزاع القديم بين القبائل فى برقة وطرابلس قد بدأ يتحرك ، ولكن أحداث الحرب الأخيرة قد أوثقت الصلات بين الجانبين وتوحدت كلمتهم فى القرار الذى أصدروه فى أكتوبر سنة ١٩٣٩ ، ثم أيدوه بعد موقعة العلمين باعترافهم جميعاً بالأمير السنوسى زعيما لهم ، وبأن له وحده أن يتكلم بلسانهم فى مختلف شؤونهم . وقد أعلنت الحكومة الانجليزية من جانبها بلسان وزير خارجيتها عقب انهزام قوات المحور تصميمها على عدم السماح بعودة الحكم الايطالى إلى برقة أو قرنيقيه بأية حال ولكنها لم تصرح بشئ عن نيتها نحو طرابلس حيث يكثر الطليان وتشتد المنافسة .

وقد نبتت عقب انتهاء الحرب الأخيرة مقترحات مختلفة بشأن إدارة البلاد ؛ فقد طالبت روسيا بدون جدوى أن تكون لها الوصاية على طرابلس حتى تحل محل إيطاليا فى حوض البحر المتوسط وتخرج من عزلتها فى البلقان إلى مياه البحر المتوسط ، ولتشرف على شؤون الشرق الأوسط من كثب بعد أن أصبحت هذه المنطقة أشد مواطن العالم تنافساً بين الدول وأكثرها خطراً . وتقدمت مصر تقترح أن تتمتع ليبيا باستقلالها السياسى ، وإن كان لا بد من وضعها تحت الوصاية فترة من الزمن فان روابط الجوار واللغة والدين تجعل حق مصر فى ذلك أولى من غيرها .

وقد مضى الوقت الذى كانت مصر فيه مؤمنة بمناعة حدودها من ناحية الصحراء الغربية معتبرة خط الطول رقم ٢٥° درجة شرقى جرينتش آخر حدودها الغربية خطًّا وهميًّا ؛ فقد ذللت الصحراء للسيارات والدبابات وتقدم الطيران فألغى مسافة الصحراء زماناً ومكاناً ، وأصبح جدبها وقيظها ووعثاؤها كل أولئك أموراً لا يحس بها العلم الحديث ولا تعترف بها السياسة . لقد أصبحت الصحراء

عنصراً مهما فى جسم السياسة ، العالمية وزالت عنها إلى غير رجعة تلك الحصانة الحربية الماضية . فقد أظهرت الحرب الأخيرة كيف استطاع العدو أن يتخذ من صحراء ليبيا ومن واحة الجغبوب التى اغتيلت منا حين كانت بريطانيا لا تزال تحسن الظن بايطاليا — أن يتخذ منها قاعدة حربية يحشد فيها قواته ويثب منها على حدودنا . ولو لم تكن بريطانيا محتفظة وقتئذ بتفوقها فى البحر المتوسط والبحر الأحمر لاستطاع العدو أن ينفذ خطة « الكماشة » الحربية التى دبرها ضد مصر والسودان بتسيير قواته شرقاً من ناحية ليبيا وغرباً من ناحية أرترية والحبشة .

من أجل ذلك كان فى مقدمة ما طلبته مصر فى مؤتمر الصلح الذى انعقد فى باريس فى صيف سنة ١٩٤٦ إعادة واحة جغبوب إلى حدود مصر كما كانت .

والناس فى برقة شديدو التمسك باستقلالهم ، وللسنوسيين بينهم مقام مرموق فلهم علمهم الخاص وتجمع الضرائب وتصدر المنشورات باسمهم ، وزعيمهم يجمع بين السلطتين الدينية والزمنية . أما فى طرابلس فالحال غير مستقرة ، وللطليان فيها قضاة وأطباء وفنيون منتشرون فى البلاد ، والانجليز لايزالون يحتلون البلاد حراساً على أموال الطليان ، وذلك إلى أن يصل الحلفاء إلى قرار حاسم بشأن مصير ليبيا . وقدقرروا أخيراً إرجاء بحث المسائل الاقليمية الخاصة بمستعمرات إيطاليا إلى مابعد انقضاء عام على توقيع معاهدة الصلح مع إيطاليا ، وقدوقعت المعاهدة فى ١٠ فبراير سنة ١٩٤٧ .

ولا تزال إيطاليا تطمع فى أن يجود عليها الحلفاء بشئ فى طرابلس ثمناً لمعاونتها لهم فى المرحلة الأخيرة من الحرب ضد ألمانيا واستمالة لها إلى جانب كتلة الدول الغربية . ولكن يبدو أن انجلترا تريد أن تبقى مضطلعة بسياسة البلاد العليا سواء كان ذلك بطريق الوصاية أو بالاتفاق مع حكومة وطنية تتولى أمر البلاد بمعاونة مستشارين من الانجليز ، ويكون شأن ليبيا حينذاك كشأن مملكة شرق الأردن .

وتواجه ليبيا بعد الحرب الأخيرة أزمة اقتصادية اجتماعية على درجة عظيمة من الخطورة ؛ فقد أرسلت إيطاليا إلى ليبيا عشرات الآلاف من الطليان وأقطعتهم الضياع والمزارع من الأراضى التى صادرتها من أرض المجاهدين ومن أراضى الزوايا السنوسية . وكانت الحكومة الايطالية تمد المستعمرين لهذه الأراضى بالماشية والعدد والبذور مما جعل الحكومة المحلية فى ليبيا تهمل الاقتصاد العام

للبلاد ، حتى بلغت قيمة وارداتها فى سنة ١٩٣٨ ثمانية أضعاف صادراتها ، وباتت البلاد بعد الحرب فى حاجة شديدة إلى رءوس الأموال و إلى الرجال الفنيين الذين يعالجون ما سببه الطليان من مغارم على البلاد وهى الفقيرة فى المعادن والزراعة.

ولما جلا الطليان عن البلاد غادرها كثير من مستعمرى تلك الأراضى . ولكن ما كادت تنتهى الحرب حتى ضجر أولئك بمقامهم فى إيطاليا وسئموا اضطراب الأحوال فيها ، وحفزهم الحنين إلى ضياعهم وسابق رغدهم فى ليبيا ، فبدءوا ينسلون إليها سرًّا وعلانية كما ينسل اليهود إلى فلسطين ، بعد أن أصبحت ليبيا لأهل إيطاليا عامة ولأهل صقلية بصفة خاصة « أرض المعاد » . وسيؤدى وجودهم حتما إلى مشكلة اجتماعية خطيرة . فلعل بريطانيا وهى القائمة بشؤون الحكومة مؤقتاً أن تبادر بأخذ الحيطة حتى لا يشهد العالم حركة صهيونية جديدة تقوم فى ليبيا .

وأمام أهل برقة وطرابلس جميعاً واجب قومى يدعوهم فى أثناء فترة هذا العام إلى التضافر والعمل يداً واحدة على مناهضة كل حركة ترمى إلى إعادة مأساة الاستعمار ثانية بين ظهرانيهم . ومما يدعو إلى التفاؤل أنه قد عاد أخيراً إلى البلاد رجال من الليبيين كانوا قد نشأوا وتثقفوا أثناء الاحتلال الايطالى فى جامعات ومدارس مصر وغيرها من بلاد الشرق العربى ، وقد حملوا معهم جميعاً إلى ليبيا أمانى الجيل الجديد وأهدافه نحو الاستقلال فى ظل الجامعة العربية . وإنهم وأيم الحق بهذا لجديرون .

محمد رفعت

من مشاهدات سائر فى نيو يورك

الأبيض والأسود ... وقصص أخرى !

تتناثر فى نيويورك الأحياء الخاصة بالأجناس المتباينة ؛ فهذا حىّ الايطاليين، وهذا حىّ الإيرلنديين ، وهذا حىّ الإسبان ، وهذا حىّ الروس ، وتلك أحياء أُخر لأجناس أُخر . . .

و إن تلك الأحياء لتبتلعها المدينة وتؤمركها ، فتتضاءل على مر الزمن ، كأجناس هذه الأحياء تربطهم جامعة أمريكية واحدة و إن تفرقت بهم المنَاسِب والأصول . . .

تتحلل أحياء الأجناس فى بوتقة المدينة ، كما تتحلل الأجناس أنفسها فى بوتقة الأمة الأمريكية . . .

ولكنْ ثمة حىّ لا أدرى كيف يتحلل فى بوتقة نيويورك وكيف يتحلل جنسه فى بوتقة الأمة ، ومتى يتم هذا وذاك ؟ إنه كالحجر الصلد لا يلين للأحماض المذيبة ، ولا ينصهر فى أتون النار المتقدة . . .

ذلك هو حىّ الزنوج ، أو مدينة هارلم ، كما يسمونها هنالك . . .

إنه أبعد أحياء نيويورك صيتاً ، وأوضحها تميزاً . ومرجع ذلك إلى قوة المقاومة فى جنسه ، وما يحيط به من ملابسات تعين على احتفاظه بجوهره . . .

إن الأجناس الأخرى ليسرع إليها التحول والاندماج ، حتى لتكاد تنسى أصولها العريقة . أما الزنجى فإنه و إن استمسك بأمريكيته واعتز بها وا كتسب كثيراً من مظاهر الحياة فيها ، فهو ما برح يعد نفسه غريباً فى أمريكا . . . غريباً فى وطنه !

إنه ليشعر بأن جنسه هدف للضيم والاضطهاد ؛ ولذلك يتحصن خلف أسوار حيه ، يكاد يحظر دخوله على غيره ، بل يكاد يقيم عليه باباً لا يستطيع اقتحامه أحد . . .

وإنه لمن عجيب المفارقات أن تجد جنساً لا يعرف له وطناً إلا أمريكا التى

يسكنها ، وهو مع ذلك يتأبى الاندماج فى هذا الوطن ، أو لعله لايجد السبيل إلى هذا الاندماج . . .

تجول فى هارلم ، فاذا بك فى حى كسائر أحياء نيويورك فىظواهر العمران ... إلا فى السكان !

مستعمرة سوداء لا ترى فيها الأشباح البيض إلا لماما . . .

إن الأبيض يطرق هذا الحى وهو عليم بأنه إذا توغل فلن يأمن على نفسه الغوائل . فكأين من كلمة أثارت شغباً وأججت حرباً ، وكأين من إيماءة أقامت قتالا وأورثت وبالا . . .

إن هذه الوجوه السود لتقلّب فيك نظر المستريب ، فاذا رجعت إليها البصر تحفزت لك مستوفزة متنمرة . . .

إن قصة الأبيض والأسود قصة تتجلى فيها الطرافة ، و إن شئت قلت الغرابة والشذوذ . . . إنها مأساة دامية ، بل وصمة فى جبين التحضر الأمريكى الناصع !

كادت قصة الأبيض والأسود تقوّض بناء الجمهورية الفتية وتفصم عراها ، فتتفكك دويلات ضئالا ضائعة الشوكة والسلطان ؛ ذلك لأن قديساً من البشر ، مثالىّ الفكرة ، تعمر الانسانية قلبه ، أبى أن يكون فى الجمهورية الجديدة أرقاء من السود يباعون بيع السلع ، فمنحهم حق الانسان ، حق الحرية والمساواة ... ذلك هو لنكولن العظيم الذى كانت روحه فداء لفكرته ، فما كاد يرفع راية العدالة ، ويقضى على الثورة حتى خر صريعاً بيد رجعية آثمة ، وراح شهيد مثله الأعلى . . .

لقد وضعت الحرب الأهلية أوزارها ، وعفّت الحقب آثارها ، ولكن ثمة حرب أخرى ما برحت مستعرة الأوار ، فى الخفاء !

لقد محا القانون معانى الرق والاستعباد ، ولكنها لما تزل عامرة بها الصدور . . . الأسود والأبيض سيان أمام القانون ، وأمام فرص الحياة الرسمية فى كل منحى من مناحى الاجتماع ، ولكن نصوص القانون فى واد ، وفهم القانون والانطباع به فى واد آخر بعيد . . . فاذا عرفت أن عقلية الأبيض لا تسيغ بأية حال شخصية ذلك الأسود المنبوذ ، تسنّى لك أن تعلم كيف يفهم الأبيض ذلك القانون ، و إلى أى مدى يجرى تنفيذه فى المجتمع الأمريكى الذى نعده معقل الديمقراطية وملاذها الأمين !

ربما تحدث الأبيض إليك عن الأسود بروح لنكولن العظيم ، روح الإخاء والمساواة ، ولكنه حين يمارس شؤون الحياة ، ويلابس ذلك الأسود فى هذه الشؤون ، فسرعان ما تتبدل الحال غير الحال ، فاذا الأبيض ينظر إلى الأسود نظرة الأحرار إلى العبيد ، ويعامله معاملة السيد للمسود !

لا ألفة بين الأبيض والأسود فى أمريكا ؛ فبينهما حاجز تكاثفت طبقاته وتحجرت على ترادف الأيام . ومنشأ ذلك أن الأبيض ما زال بواعيته الخفية ينظر بعين أجداده ، فيرى الأسود عبداً رقيقاً ، له أن يبيعه وأن يشتريه وأن يسخره فيما يبغى من الأعمال ، فكيف يراد الأبيض اليوم على أن يساويه أولئك العبيد الأرقاء ؟

ومن ناحية أخرى نرى الأسود قد استنار عقله ، واستبان له حقه فى أن يعيش حرًّا على قدم المساواة بينه وبين سائر الناس . . . وإذا كان قد اتخذ أمريكا وطناً له فشأنه فى ذلك شأن الأبيض سواء بسواء . . . وفوق ذلك فهو يرى بواعيته الخفية أن البيض القدماء قد استعبدوا أجداده ظلماً وعدواناً ، فهو يحفظ لأخلافهم البيض ثأر الجدود . ومن ثم تشهد فى الأسود المعاصر عنجهية وخيلاء ، وتلمح فى عينه نظرة الثائر المحنق ، فيزيد ذلك من حفيظة الأبيض عليه ، ويوسع بينهما هوة الشقاق . . .

ومن أضاحيك المفارقات أن الديمقراطية الرحبة التى هى شعار الجمهورية الأمريكية قد أعانت على التفرقة بين الأبيض والأسود دون عمد . . . فهذه الديمقراطية تمنح الهيئات والأفراد حرية التصرف فى الأنظمة والإجراءات واتخاذ الخطط التى تيسر سبل النجاح ، وكان من أثر ذلك أن عمدت طائفة كبيرة من المعاهد والمؤسسات ونحوها إلى إقصاء الأسود عن رحابها ، مستخدمة فى ذلك حقها فى أن تقبل من تشاء وتأبى من تشاء . . . فلم يجد الأسود بدًّا من أن ينشئ لنفسه معاهد ومؤسسات خاصة ، فاشتدت بذلك الفرقة ، وتلظت البغضاء ، وتقطعت أسباب التواصل والاندماج . . .

ستظلين يا هارلم كما أنت ، لايعفى عليك الزمن إلا إذا انقلب الأمريكيون البيض جميعاً أشباهاً للنكولن خلقوا من طينته ، وأُشربت قلوبهم فكرته ، وكانوا كمثله قديسين ، نصب عيونهم مثله الأعلى فى الإنسانية والأخاء !

ولكن أمن الخير للأمة الأمريكية أن تكون على غرار لنكولن مثالية

قديسة ، فيندمج العنصران النقيضان ، وتتزاوج العقليتان المختلفتان ؟
أم الخير كل الخير فى أن يظل للأسود ميدانه ودنياه ، وللأبيض حضارته يمضى بها طوع هواه ، ويطبعها بعقليته ومنحاه ؟
مهما يكن من قول ، فان فى سريرة الغد جلاء ما تضطرب فيه الظنون ! . . .

ما كان لنا وقد ذرعنا شوارع نيويورك وتدسسنا إلى أحيائها إلا أن نخرج من عزلة المدينة ، متخطين أسوارها فى نزهات قاصية بين الضواحى والأرباض . . .
و إنك لتحسب نفسك فى نزهة حول المدينة ، فاذا بك تعلم أنك قد اقتحمت حدود ولاية أخرى ، وبدأت تجوب مدائنها ، وتطرق عاصمتها . . .
تحاط نيويورك بضواح طريفة ، سمّها كما شئت ولايات أو مدائن أو مقاطعات، لها جميعاً طابع واحد ، فما أشبه بعضها ببعض : البالساد ، بيرماونتن ، وست شستر ، لنج بيتش ، كونى أيلند ، وما إليها . . .
دساكر وبقاع تتجلى فيها مفاتن الريف جمعاء ، ولكنه الريف فى مظهر مثالى شائق . . . إن هذه الدساكر لتعد قرى هنالك ، ولكن أية قرى هذه ؟ تلك وسائل الحضارة فى هذه المدن الريفية مستكملة مستوفاة تحيلها حضراً له مزايا الريف . . .
للناس فى نيويورك عادة ألفوها ، هى أن يخرجوا إلى تلك البقاع فى أيام الآحاد والعطلات ، و إن بعضاً من الناس ليتخذونها مستقرًّا ومقاماً ، يفزعون إليها انتجاعاً للراحة ، ونجاء من الزحمة والضجيج . . .
و إن لأهل نيويورك نزعة قوية إلى طلب الراحة ، ينشدونها ويسعون إلى تحقيقها ما وجدوا إليها الخلاص . . .
ترى أكثر كلماتهم دوراناً على ألسنتهم هى كلمة « ريلاكس » . . . يتناقلونها فى كل مناسبة ، فهى فردوسهم المفقود ، ونعيمهم الموعود . . . إنها « التراخى » . . .
وحق للأمريكيين أن يحلموا بهذه الرخاوة ، يهيمون بها حبًّا ، ويتحرقون إليها شوقاً . ولكن هذا الفردوس عزيز المنال على أولئك المساكين الذين دارت بهم الآلة ، وضغطتهم الزحمة ، وجهدهم التكالب على الكسب والاغتنام !

إنهم لا يخرجون من رَهَقٍ إلا إلى رهق ، ولا يخلصون من مجهود إلا إلى مجهود . . .

إلى أين يقصدون ؟

ألى سفوح الجبال ، حيث تجول يد الفنان فى مجالى الطبيعة فتحيلها جنات بحق : حدائق وغابات ، جسور معلقة ، وهاد ونجاد ، جداول وبحيرات للسباحة والجدف ، ملاعب تحت الخمائل ، مقاصف بين الأيك والغصون ، إلى غير ذلك من محاسن تقرّ بها العيون ، وتثلج لها الصدور ؟ . . .

ولكن كيف السبيل إلى الاستمتاع بهذه المجالى الفاتنات ؟

ليس ثمة من سبيل إلا أن ترهق نفسك وتزحمها بين الكتل البشرية فى البواخر والقطارات والسيارات الحافلة ، فاذا استخلصت جسمانك من بين الجموع فى آخر المرحلة ، ورأيت نفسك قاب قوسين أو أدنى من تلك الجنان الزاهية ألفيت شياطين الزحمة ، وأنظمة « الطوابير » قد سبقتك هنالك ، ووقفت لك بالمرصاد ، تعكر عليك الصفو ، وتسلبك أملك فى «الريلاكس» فتنشد مع الشاعر العربى قوله :

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

إن نشدان الراحة فى مظان الراحة هنالك معضلة من جسام المعضلات !

ولذلك تجلت أمنية « التراخى » فى مظاهر شتى من الأدب الأمريكى والفن الأمريكى ، ولا سيا الفلم السينمائى . . .

تراهم يصورون حياة الطبيعة الفطرية تصويراً بالغ الروعة ، ويشيدون بمفاتن المواطن غير المتحضرة إشادة ظاهرة . وليس ولعهم بذلك التصوير وتلك الإشادة إلا إرواء لظمأ نفوسهم إلى الراحة والرخاوة . . .

ما أكثر المتنزهات الخلوية ، وما أحفلها بالمتع المتنوعة تواتى كل امرئ بما تصبو إليه نفسه ! . . . وما أروع الطرق التى تصل بعض هذه المتنزهات ببعض ! . . . إنها طرق فسيحة معبدة ، أخليت مضماراً للسيارات تنتهبها وحدها انتهاباً . وقد يتحول الطريق جسراً عظيما يمتد أميالا طوالا ، ثم ينقلب نفقاً هائلا يتغلغل فى جوف الأرض متسللا تحت أعماق الماء ، ثم تخرج منه تستقبلك المروج الخضر والغابات المشتبكة وتلك المغانى الفاتنة تبدو فى فن بنائها كأنها لعب مكبرة أو نقوش ملونة . . .

أما الشواطئ الخاصة بالاستحمام ، فلكل بقعة منها نصيب ، فإن ضنت الطبيعة به خلقوه لها خلقاً ، وأنشأوه إنشاء !

ولعل أكبر ما يميز تلك الشواطئ حفولها بتلك الملاعب التي نسميها : « لونابارك » . . .

ما أنس لا أنس ملعب كونى أيلند . . . رقعة واسعة تحوى كل عجيب غريب من الألعاب التي تأخذ بمجامع الألباب . . .

وإنها لظاهرة تسترعى النظر ، تلك الرغبة التي تمتلئ بها نفوس الأمريكيين في ارتياد أماكن التسلية الطفولية العامرة بالصخب والضجة والمخاطر . . .

ربما كانت علاجاً يفزعون إليه شفاء لأعصابهم المنهوكة ، على نحو ما كان يشفى به نفسه أبو نواس إذ يقول :

دع عنك لومى فان اللوم إغراء   وداونى بالتى كانت هى الداء

إنهم يعبون من تلك الخمر الكاوية للأكباد ، لينسوا ما نهكهم من جهد ومشقة . . .

إنهم ليترامون في ذلك الصخب والضجيج ، يتركون أنفسهم على سجيتها منطلقة تمرح وتلعب . . .

هى رغبة في التحرر من الأغلال : أغلال العمل الدائب ، وأغلال النظم الصارمة !

في هذه الملاعب يحاولون أن يحطموا هذه الأغلال ، فتجد الرجل الناضج قد اهتز طرباً وهو يعتلى صهوة حصان من خشب يسابق به الريح ، أو ضج مرحاً وهو يترنح على مقعده في ذلك القطار الأهوج الذى لا يفتأ في صعود وهبوط ، أو انبعث ضاحكا والرحى السحرية تدور به دورتها الحمقاء ، ثم تلفظه لفظ النواة ؛ فلا تراه قد ترك لعبة إلا مقبلا على أخرى طلباً للمزيد من الضحك والمرح !

في تلك الملاعب الثائرة تتجلى المخاطر في صورة واضحة ، ولكنها مخاطر مأمونة العقبى . . . وإن الانسان ليولع بها إرضاء لنزعة أصيلة في أغوار نفسه . هذه الحضارة على وجه عام قد أمّنت عيشه ، ومهدت طريقه ، فأصبح يحيا حياة أمن لا تكلفه جهداً ذاتيا في المغامرة ومجالدة المخاوف ، ولا تتطلب منه أية جرأة أو جسارة ، لا كما كان يعيش أبوه الأول ، يصارع ويصاول ، تعتاقه في

كل طريق عقبة ، ويخشى فى كل خطوة أن يقع فى شرك ، فاذا ذلل العقبات ، وتخطى الأشراك ، أحس قوة الشخصية وكبرياء الفتوة وزهو الغلب . . .

أما هذا الانسان الحضرى فانه قد أُحيط بما يؤمّنه حتى مل الأمن الشائع حوله ، فهو تواق إلى أن يستعيد حياة الفزع ومجابهة الأهوال ، ولو ساعة فى مجال تتناثر فيه ألعاب الصبيان !

ومن ثم يرمى بنفسه فى تلك المخاطر المصنوعة ، ويخرج منها سالماً يوهم كبرياءه أنه الفارس المغوار ، والبطل المقدام . . .

طال بنا التجوال يوماً فى هذه الشواطئ العامرة بالملاعب والمسابح والمقاصف ، حتى آذنت شمس النهار بالمغيب ، فاذا بى أسمع صوتاً يقول :

— هلاّ رافقتمونى إلى مغنى فكتور نقضى فيه هزيعاً من الليل ؟

فالتفتّ صوب الصوت ، فواجهنى صديق كريم ، سمح المحيا ، طلق الأسارير ، فقلت له على الفور :

— وما هو مغنى فكتور؟

— مثابة فى إحدى الضواحى القصوى ، إن شئت سميتها مطعما ، وإن شئت سميتها منتدى تستمتع فيه بجلسة صافية . . .

فقلت له :

— لبيك !

وأقلتنا سيارته الرشيقة ، فانسابت فى طريق من تلك الطرق الفساح ، تمر بنا المروج والغابات والضياع ، يتلو بعضها بعضاً ، فى جو رخى الأنسام ، حتى شارفنا مغنى فكتور . . .

حديقة طيبة ، وبركة أنيقة ، يتوسطهما مبنى جميل ، كل ما فيه يشعرك بالألفة ومظاهر الحياة العائلية . . .

لستَ فى مطعم أو مشرب ، وإنما أنت فى بيت غطريف سرى من أمراء الطليان له فى الحياة ذوق فنى مصفى ، تخير هذه البقعة النائية ليحيا مع ضيوفه ورواد مغناه فى دعة وطمأنينة وصفاء ، يقدم لهم أفخر الطعام وأطيب الشراب فى تأنق وسخاء . . .

وتوخينا معزلا هادئاً بجوار الشرفة ، وأمضينا فترة هانئة . . . لا موسيقى ولا رقص ، لا حركة ولا جلبة ، لا شئ مما تحفل به مقاصف الليل !

إن انتزاح هذه المثابة عن قلب نيويورك وقيامها على أطراف الأرباض ، وخلوها من المغريات الشائعة ، جعلها مهوى أفئدة أولئك الذين يبتغون تذوق المتع الغالية الرفيعة فى سكينة وهدوء . . .

وتلفتّ حولى أقول :

– أين رب البيت السيد فكتور ؟

فعلا صوت ضخم رددت أصداءه أبهاء المغنى ، وقد شاعت فيه نغمة حفاوة وترحيب ، تصحبها ضحكة رنانة لا يجيد إطلاقها إلا من كان خالى البال . . .

فملت على صديقى أقول :

– قسما إنه السيد فكتور !

فاعتاض الصديق عن الجواب بالابتسام . . .

وهرع بعض قصاد المغنى إلى مصدر الصوت فى بشاشة وإيناس ، وأهاب بنا الصديق أن ننهض كما نهضوا ، فتبعناهم ، فاذا بنا أمام قفص لطيف تقف على إحدى دعائمه ببغاء رشيقة تصوب فينا النظر وتصعده بعينين حادتين . . .

فهمست فى أذن صديقى :

– من يكون هذا السيد الظريف ؟

– إنه الخل الوفى والصديق الودود لرب الدار . . .

– حقًّا إنه لخير من يؤدى حق الضيافة !

ولبثنا حيناً يحيينا هذا السيد ونحييه ، ويفاكهنا ونفاكهه ، وقد توثق بيننا الود ، واتصلت أسباب الألفة . . .

ولكن القصاد تكاثروا حول القفص ، وتكاثفت الحلقة ، فاذا بهذا السيد الظريف ينقلب عفريتاً من الجن يصخب ويثور ، ويسلقنا بلسان سليط ، فتراجعنا عنه مقهورين !

لقد استجبنا لنداء هذا الزعيم الحبيس ، فلم ندع صيحته تذهب مع الريح ، ولكنه ما كاد يحس عظمته تتجلى ، ويرى مكانته تتسامى ، حتى أشر وبطر ، وحسب نفسه زعيما بحق ، وانبرى يثور على من استجابوا له ! . . .

ذلك صنيع حيوان .

أتراه محاكياً يفصح عن طبيعة الإنسان ؟

وشرع صديقى يروى لى قصة السيد فكتور . . .

إنه طليانى "تأمْرَكَ" ، طليانى فنان فى روحه وذوقه ، احتل هذا المغنى بحديقته وبركته ، فأقام هو فى الطبقة العليا ، وجعل الطبقة الدنيا مطعما ومثابة للوجهاء المترفين . . . وإنه ليتفنن فى كل ما يقدمه من مأكل ومشرب ، وما تقع عليه العين من أثاث ومتاع . . .

ولقد استغل الحديقة ، فاتخذ منها حظيرة للدواجن ، ومزرعة للخضر والفاكهة ؛ ولذلك يقدم لك من ثمر المزرعة ما هو يانع جنى ، ومن نتائج الحظيرة ما هو منتقى شهى . . .

كل ما عندك أيها السيد فكتور — أو على الأصح أيها السنيور فيتوريو — طريف شائق حتى هذه الببغاء المتمردة الشغوب !

لقد تفتقت عبقريتك عن عمل فنى يدل على أن للطليان الِتمدّح المعلَّى فى حب الجمال !

حقًّا لقد ظلمكم زعيمكم الراحل موسولينى أيها الطليان ، إذ حاول أن يخلق منكم جبهة حرب وضرب ، وكر وفر ، وما أنتم إلا أمة فن جميل ، وذوق رفيع . . .

وهل تقل عظمة الفن والجمال عن عظمة القتال والصيال ؟

محمود تيمور

الفلاح المصرى يشكو اضطهاد طبقة الموظفين

كما دونها حكيم مصرى قديم على بردية منـــذ اثنين وأربعين قرنا

[ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . . .
إعدلوا هو أقرب للتقوى]

سعيدة الأمة التى خلفت وراءها ماضياً مجيداً ، وتراثاً خالداً ، وتاريخاً حافلا، تستمد العون من معين عظاته ودروسه الخالدة ، عندما يقلب الدهر لأبنائها ظهر المجن ، وتنقطع بهم أسباب المعونة ، ووسائل الخروج من المآزق الحرجة ، وإذا كان لأمة من أمم العالم القديم أن تفخر بمالها من تراث تليد ومجد مؤثل فى الحضارة العالمية ، وبخاصة فى نشر المثل العليا فى الاجتماع والسياسة ، وسبل الحياة الحقة التى بنيت على العدالة الاجتماعية منذ انبثاق فجر التاريخ ، كان لمصر بلا نزاع لها قصب السبق فى ذلك المضمار ؛ إذ لا يعرف التاريخ حتى الآن حضارة مدونة محفوظة تضارع الحضارة المصرية فى القدم ؛ فقد انبثق فجرها منذ ٣٤٠٠ ق.م. تقريباً فى فترة من الزمن كان جل العالم الذى نعيش فيه لا يزال فى سبات عميق غارقاً فى لجة من ظلمات الجهل التى لم يفق منها إلا بعد أن أفاضت عليه مصر من نورها وعرفانها .

ولا غرابة إذن فى أن يقال عن مصر إنها المعلم الأول لدول العالم القديم ، على أن تاريخ المدنية المصرية يرجع إلى عهد أقدم بكثير من تاريخ ظهور مدنيتها المدونة ، وهذا العهد كان عهد حكم الآلهة كما زعم المصريون وعلى رأسهم الإله الأعظم الذى كان يمثل فى الشمس ، وكان عهده نموذجاً للحكومة العادلة التى قوامها الحق والصدق والمساواة . ولما انتقل الحكم إلى أيدى البشر ساروا على نهج الإله الأعظم فى حكمه العادل الذى كان رائده الحق للحق مدة طويلة من الزمان تبلغ نحو ألف سنة أو تريد . وهذه الفترة يطلق عليها فى التاريخ المصرى عهد الدولة القديمة أى من ٣٤٠٠ إلى نحو ٢٤٠٠ ق.م. تقريباً ؛ غير أن عامل

الفساد كان قد بدأ يسرى فى جسم الدولة وئيداً فتنحى حكامها عن العدالة الاجتماعية ، فكان ذلك نذيراً بانحلال وحدة البلاد حتى رجعت سيرتها الأولى قبل توحيدها على يد مينا ، فصارت إقطاعات مستقلة عن العرش تقريباً . وقد أدى ذلك الانحلال إلى سقوط الدولة القديمة ، ومن ثم فشا الخراب ، وعمت الفوضى ، وقامت طبقة الفقراء والمضطهدين فى البلاد بثورة طاحنة أتت على الأخضر واليابس ، مطالبين بالعدالة وكشف الضر عنهم . وقد ظلت البلاد مقسمة إقطاعات مستقلة إلى أن قامت أسرة عريقة فى « إهناسية المدينة » وأسست حكومة ملكية ؛ غير أن سلطانها لم يكن يمتد على البلاد كلها إلا اسما .

والواقع أن حكم الإقطاع الغاشم كان متفشياً فى ذلك العهد إلى حد بعيد ، وكانت مظالمه واقعة على الفلاح والعامل بدرجة شائنة غاشمة . ولقد رأى رجال الفكر فى ذلك العصر الحالة المحزنة والظلم الفاحش ، والاضطهاد الشائن ، الذى كان يئن منه الفلاح وغيره من أهل الطبقة الدنيا ، ثم قرنوا تلك الحالة بما كانت عليه حكومة البلاد قبل أن يدب فى جسمها الفساد ، وتذكروا عهد حكومة الإله العظيم أيام كانت العدالة هى قانون البلاد ، وكلمته العليا . ولذلك تطلعوا إلى ذلك الماضى المجيد ، فكانت ذكرياته وما فيه من مثل عليا حافزاً لهم على المحاربة بأسنة أقلامهم الملتهبة حماسة بسبب ما وصلت إليه حالة البلاد من الخراب وانقلاب النظم الاجتماعية ، التى نشأت من ظلم طبقة الأغنياء للفقراء ، واستئثارهم بالثروة ، ووضعهم الفلاح والعامل فى مرتبة الحيوان أو أحط منزلة منه . غير أن بعض أولئك الكتاب كانوا يرجون ويؤملون صلاح هذا المجتمع الفاسد الذى انقلبت فيه الأوضاع الإنسانية ، وأخذ الفقراء ينقمون من أصحاب الثروة والجاه الذين ساموهم سوء العذاب . والواقع أن بعض أولئك الكتاب المفكرين كان مقتنعاً بإمكان السير نحو عهد جديد على أساس إيجاد جيل من الموظفين الأمناء العدول .

وطائفة أخرى رأت أن تحقيق ذلك قد يأتى على يد ملك عادل مخلص مجدد للمجتمع ، فعندما فحص رجال الطائفة الأولى الحياة رأوا وجوب التمسك بالمبادئ العملية للحياة الحقة ، التى يمكن أن تطبق على الحياة اليومية بانتقاء طائفة الموظفين على أسس متينة . وهؤلاء المفكرون هم الذين كانوا لا يزالون يؤمنون بوجوب سيادة الحق والعدالة الخالدة ، وهى التى كان يعبر عنها المصرى القديم

بكلمة « ماعت » . وقد استمروا على التمسك بأهداب ذلك الأمل ، ووجوب سيادة العدالة لأنها استطاعت السيطرة على الحياة المصرية قديماً .

وهذه الآراء قد عبر عنها فى مقال يمكننا أن نسميه الفلاح الفصيح ، أو شكاوى الفلاح المظلوم . ولحسن الحظ قد وصلت إلينا نسخة من هذا المقال الرائع كاملة غير منقوصة ، والبردية التى تحتويه موجودة الآن فى متحف برلين وكاتب هذا المقال جندى مجهول .

وقد وضع المؤلف بين أيدينا فى ذلك المقال الممتع مناقشة فى هيئة قصة رائعة جعلها فى شكل سلسلة من البحوث المؤثرة المسرحية عن خُلق الموظف المستقيم ، وما انطوت عليه روحه ، وما ينجم عن ذلك من إقامة العدالة الاجتماعية والادارية نحو الفقير المهضوم الحقوق ، فى ذلك العهد الذى طغى فيه الأغنياء حتى إن الرجل الفقير لم يكن ليجد قوة تحميه ممن هم أقوى منه . وقد كان ضمن المقترحات التى أشار بها أحد حكماء هذا العصر لعلاج طبقة الموظفين ، أن يجعل لكل موظف راتب عال وفير .

وسنرى فيما يلى أن هذا العلاج كان غير ناجع بمفرده ؛ لأننا سنجد فيما سيأتى ذكره أنه حدث بمشهد من القصر الملكى بجوار « إهناسية المدينة » عاصمة الملك إذ ذاك ، اضطهاد غاشم أقدم على ارتكابه موظف فاسد الأخلاق فى ضيعة مدير أملاك الفرعون فى ذلك الوقت . وهذا الحادث يدل دلالة قاطعة على أن الوظيفة ذات الراتب الضخم لا تغرس فى نفس صاحبها العدالة ، ولن تغنى الفقير شيئاً من اضطهاد رجال الحكومة له ، والعبث بالشىء القليل الذى يملكه .

ومما هو جدير بالذكر أن ترى ذلك المفكر القديم الذى كتب قصة الفلاح الفصيح ، وهو يجاهد ليظفر بالتغلب على تلك العقبة الكأداء ، عقبة الاضطهاد القائمة أمامه التى صارت منذ ذلك العصر من أعقد المسائل فى بلادنا بل فى الشرق ، حتى إن الأوربيين قد استساغوها لأنفسهم فى معاملتنا .

والواقع أنها مسألة لم يستطع حلها حلا مرضياً إلى الآن فى مصرنا الحديثة .

ومجمل هذه القصة أن فلاحاً من أهالى الفيوم فى منطقة وادى النطرون ، كان يقطن قرية تسمى « حقل الملح » وقد وجد أن مخزن غلال أسرته قد أشرف على النفاد ، فحمل على قطيع صغير من الحمير حاصلات قريته وسار به نحو العاصمة ، وكانت وقتئذ « إهناسية المدينة » ، وكان غرضه أن يستبدل غلالاً بحاصلاته هذه .

وكانت الحالة تحتم عليه أن يمر من طريق به منزل رجل يدعى تحوتى نخت ، وهو موظف صغير من موظفى شريف يدعى رنزى وكان يحمل لقب « المدير العظيم لبيت الفرعون » . وعندما لمح تحوتى نخت حمير ذلك الفلاح تقترب منه سولت له نفسه تدبير حيلة لاغتصابها بما عليها ، فأرسل على الفور أحد الخدم إلى منزله ، فجاء بصندوق مملوء بنسيج الكتان فأخرجه ونشره على الطريق العامة حتى غطاها كلها من حافة حقله الذى كان وقتئذ مزروعاً قمحاً إلى حافة الترعة التى كانت تقع على الجانب الآخر من الطريق . وكان ذلك الفلاح البرئ ، كما تقول القصة ، يتقدم فى سيره على الطريق العامة التى يسير فيها كل الناس ، وهى التى سدها تحوتى نخت المذكور بنشر النسيج عليها — ويلاحظ هنا أن العبارة الأخيرة تشف عن غضب الكاتب وحنقه مما حدث — ولما كان الفلاح يخشى السير فى الماء اضطر أن يمشى فى الجهة الأخرى فى شريط ضيق لم يكن قد غطاه نسيج هذا الموظف بجوار حقل القمح .

وفى أثناء السير التقم أحد الحمير بضع سيقان من القمح ، وبذلك تهيأت الفرصة لتحوتى نخت الماكر للوصول إلى مأربه وكان يترقب ذلك عن كثب . وفى هذه اللحظة تقدم الفلاح إلى تحوتى نخت مقدماً له الاحترام والخضوع بألفاظ لا تحط من كرامته . فما كان من تحوتى نخت المذكور إلا أن قبض على الحمير واستاقها إلى منزله ، وكان الفلاح وقتئذ يصيح ويستغيث محتجا على ذلك الفعل فى أدب واحتشام ، ثم أردفه باحتجاج شديد، وانبرى يقول له : إن طريقى مستقيمة ، غير أن أحد جانبيها قد سد ، فمن أجل ذلك سرت بحميرى على تلك الحافة .

أتغتصب حميرى لأن واحداً منها التقم ملء الفم من سيقان قمحك ؟ إنى أعرف رب هذه الضيعة ، فهى ملك رنزى المدير العظيم لبيت الفرعون ، وأعرف أنه هو الذى يقضى على كل سارق فى هذه الأرض . فهل أسرق فى ضيعته ؟ فلما أحفظ تحوتى نخت من جسارة هذا الفلاح انتزع فرعاً من شجرة أثل وأخذ يضرب به الفلاح بدون رحمة ولا شفقة غير مبال بصياحه واحتجاجاته المتكررة ، واستاق كل الحمير إلى منزله ؛ واضطر الفلاح الشقى أن يمكث أربعة أيام يرجو فيها ردّ الحمير إليه بدون جدوى ، وكان يذكر له طول مدة بعده عن أسرته التى أشرفت على الموت من الجوع ، وهو لا يأبه لحاله . فلما رأى الفلاح المذكور منه ذلك صمم على رفع شكواه إلى المدير العظيم لبيت الفرعون نفسه ، وهو الذى

حدث فى ضيعته ذلك الاعتداء الصارخ . وزاد الفلاح شجاعة فى رفع شكايته إليه ما اشتهر به من حبه للعدل حتى صار مضرباً للأمثال فى عدالته . وبينما كان الفلاح يقترب من المدينة إذ قابله لحسن حظه مدير البيت العظيم المقصود خارجاً من باب ضيعته الواقعة على النهر وهو سائر فى طريقه ليركب فى قاربه الرسمى . وعند ذلك استطاع ذلك الفلاح بما أوتيه من أدب جم وسيطرة على أساليب البيان ، وتوجيه للأقوال الحسنة التى يليق التفوه بها فى مثل هذا المقام ، أن يسترعى أذن ذلك الرجل العظيم حتى يصغى إليه بضع لحظات فى أثناء مسيره لركوب قاربه ، فأرسل أحد خدمه لكى يعرف قصة ذلك الفلاح . فلما رجع ذلك الخادم وأخبر المدير رنزى بتلك السرقة التى ارتكبها تحوتى نخت لم يسعه إلا أن يبسط ذلك الأمر على موظفيه ليقولوا كلمتهم فيه ؛ فكان جوابهم على تلك السرقة هو الغرض الذى قصد إليه مؤلف هذه القصة ؛ فإنه يضع أمام القارئ صورة واضحة للمعاملة الشائعة التى كانت تتبع فى مثل شكاية ذلك الرجل الفقير فى الدوائر الحكومية ؛ إذ نجد زملاء مدير البيت العظيم قد انحازوا إلى جانب مرءوسهم تحوتى نخت السارق ، ولذلك كان جوابهم على المدير رنزى جواباً ملؤه الفتور قائلين : إن القضية يحتمل أن تكون قضية فلاح قد دفع ما يستحق عليه من الضرائب إلى رئيس أعلى خطأ ، وأن تحوتى نخت قد استولى على ما يستحقه من الضرائب بحق من هذا الفلاح . ثم تساءلوا بغضب : هل يعاقب تحوتى نخت بسبب أخذ قليل من النطرون والملح ؟ وعلى أكثر تقدير فى موضوع كهذا يصدر إليه الأمر بإعادتها وهو بلا شك معيدها إليه .

ومما يلفت النظر هنا فى طبقة أولئك الموظفين أنهم تجاهلوا الحمير التى سرقت كلية ، وهى التى كان ضياعها معناه موت ذلك الفلاح وأسرته جوعاً . وفى ذلك الوقت نفسه كان الفلاح واقفاً على مقربة يسمع بضياع ماله وخرابه المحتم . وهكذا تغاضى عنه رجال السلطة وتجاهلوا أمره . (أليست هذه الصورة المخزية تمثل الواقع الآن ؟)

وفى تلك الأثناء كان مدير البيت العظيم جالساً يفكر فى صمت . والواقع أن هذا المشهد يمثل لنا باختصار عصوراً من التاريخ الاجتماعى فى بلادنا . فمن ناحية يصور لنا طائفة الموظفين الليني الجانب المتملقين وهم فى ذلك يمثلون

الطراز الغالب فى طبقة الموظفين . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نشاهد صورة ذلك الفلاح المنكود الحظ الذى لا صديق له ينصره ، وقد اغتصب متاعه ، ثم يتمثل فيه صورة الصيحة التى كانت أول مظهر لطلب العدالة الاجتماعية فى ذلك الوقت السحيق الذى يرجع إلى نحو خمسة وأربعين قرناً مضت .

وهذا المشهد الذى وضعه هذا الكاتب أمامنا فى صورة قصصية يعد من أقدم الأمثلة التى تدلنا على المهارة المصرية فى تصوير المبادئ المعنوية فى شكل مواقف ملموسة ، وهى التى صورت بشكل مدهش فى أقوال عيسى عليه السلام التى جاءت بعد ذلك بقرون عدة .

غير أن الفلاح لما رأى أن مدير البيت العظيم لم يحر جواباً على كلامه حاول مرة أخرى أن ينجى نفسه وأسرته من الموت المحقق الذى كان يتهددهم جميعاً بسبب الجوع ، فتقدم خطوة إلى الأمام وخاطب بفصاحة مدهشة ذلك الرجل العظيم الذى كانت قصته الآن بين يديه متمنياً له سياحة طيبة عند نزوله فى قاربه ، ثم لهج بشهرة مدير البيت العظيم فى فعل الخير ، وذلك ما كان يعلل به نفسه عندما رفع قضيته إليه ، فكان يقول له :

« إنك والدا ليتيم ، وزوج الأرملة ، وستر من لا أم له . دعنى أضع اسمك فى هذه الأرض فوق كل قانون عادل . يأيها القائد الذى لا يشوبه الطمع ، ويأيها الرجل العظيم الذى يتجنب الصغائر ، ويحطم الظلم ، ويثبت الحق ، أجب للصيحة التى ينطق بها فمى . فاذا تكلمت فعليك أن تسمع . أقم العدل ! أنت يا من قد مدحت ويا من يمتدحه الممدوحون . إكشف عنى الضر . أنظر إلى ! فانى أحمل أثقالا فوق أثقال ، حقق شكايتى فإنى فى حيرة ! »

وقد كان مدير البيت العظيم يشعر بسرور عظيم من لباقة الفلاح الخارقة للعادة ، إذ كان يعبر بحسن منطق وفصاحة لسان ، حتى لقد تركه دون أن يفصل فى قضيته برأى ، وذهب على الفور إلى البلاط حيث قابل الفرعون وقال له : «يا سيدى ! لقد عثرت على أحد أولئك الفلاحين ممن يحسنون القول بحق» . فسر الفرعون سروراً عظيما ، وكان مدير البيت العظيم هذا أن يصحب الفلاح معه دون أن يفصل فى قضيته برأى طمعاً فى أن يرتجل له الفلاح خطباً أخرى . وكذلك أمر الفرعون بتدوين أقوال هذا الفلاح بدقة ، وأن يقدم له الطعام وكل ما يلزم لأمر معاشه ، وأن يرسل خادماً إلى قريته ليتحقق من أن أسرته ليست فى حاجة

لى شئ خلال تلك الفترة التى سيكون الفلاح فيها بعيداً عن مسقط رأسه .

وقد كانت نتيجة ذلك أن أخذ الفلاح يلقى على أسماع رنزى مدير البيت العظيم مالا يقل عن تسع شكايات .

وعند هذه النقطة تنتهى هذه المقدمة التمثيلية ، وقد كان الغرض منها أن تضفى على ذلك المقال الاجتماعى الذى كان هدفه الإصلاح ثوباً يجعله فى صورة قصة . وبعد ذلك تبتدئ الشكاوى أو الخطب التسع التى يتألف منها جميعاً ذلك المقال الاجتماعى . وهذه الخطب تكشف لنا أولاً عن خيبة الأمل المحزنة التى صادفها الفلاح فى اعتقاده بشهرة ذلك الرجل العظيم التى كان يعرف بها ، وهى أنه لا يحيد عن العدل . فنجد الفلاح يبتدئ خطبته الثانية بالتقريع اللاذع فيقاطعه « رنزى » مهدداً إياه . أما فى خطابه الثالث فانه يعود إلى مدائح كالتى ذكرها أول رفع شكواه إلى رنزى . فاستمع لما يقول :

« يا سيدى إنك رب السماء فى صحبة حاشيتك ، وإن قوام بنى الإنسان منك ؛ لأنك كالفيضان وأنت « جعبى » (أى إله النيل) ، الذى يجعل المراعى خضراء ، ويمد الأراضى القاحلة . ضيق الخناق على السارق ، ودافع عن الفقير، ولا تكونن كالسيل ضد الشاكى ، واحذر من قرب الآخرة ، وارغب فى أن تعيش طويلا ؛ لأن المثل السائر يقول : إن إقامة العدل هو نَفَسُ الأنف ، وأوقع العقاب على من يستحق العقاب . وليس هناك شئ يماثل استقامتك . هل الميزان يتحول ؟ وهل يميل لسانه إلى جهة ؟ . . .

« لا تنطقن كذباً ، فانك الميزان ، ولا تنكمش ؛ فانك الاستقامة . تأمل ! إنك على مستوى واحد مع الميزان فان انحرف انحرفت أيضاً . ولا تحيدن ، بل أدر السكان ، واقبض على حبل الدقة . ولا تغضبن ، بل اعمل ضد المغتصب ، وذلك العظيم ليس عظيما ما دام جشعاً . إن لسانك هو ثقل الميزان ، وقلبك هو ما يزن به ، وشفتيك ذراعاه . فاذا سترت وجهك أمام الشرس ، فمن ذا الذى يكبح الشر ؟ » وهذه الموازنة بين أخلاق مدير البيت العظيم رنزى وبين الميزان تظهر مرات متكررة فى خطب ذلك الفلاح .

أما العبرة التى تؤخذ من تلك الخطب فواضحة ؛ إذ أن مفتاح طريق الحق كان بأيدى الطبقة الحاكمة ، فاذا أخفقوا فى اتباعها ففى أى مكان آخر يمكن الحصول عليه ؟ إذ كان المرجو منهم أن يوازنوا بين الحق والباطل ثم يفصلو

فيه بقرار عادل كالموازين الدقيقة التى لا تخطئ . ومن ذلك تعلم أن الموازين كانت تؤلف رمزاً أصبح شائع التداول فى الحياة المصرية، حتى إن كفتى الميزان كانتا على ما يظهر قد صارتا بمثابة وسيلة دقيقة لتصوير محاكمة كل روح فى عالم الآخرة .

ولسنا مبالغين إذا قلنا إن الموازين قد وجدت لأول مرة فى ذلك المقال فى تاريخ الأخلاق ، وقد بقيت مستعملة فى يد العدالة المطلقة إلى يومنا هذا . وترجع نشأة هذا الرمز إلى الظهور أولاً بين رجال الفكر فى العهد الإقطاعى بمصر ، أى منذ ما يربى على أربعة آلاف سنة مضت . ولم يكن الأمر مقصورا على استعمال الميزان بوجه عام بمثابة رمز للاستقامة فى ذلك العهد الإقطاعى فحسب بل كانت أجزاؤه كذلك تستعمل على الدوام لذلك الغرض أيضاً .

ويجب أن نلاحظ هنا كذلك أن الفلاح كان يذكر مدير البيت العظيم بضرورة ظهوره أمام محاسبة الميزان الذى لا يتحيز إلى جهة ؛ إذ يقول له : « احذر قرب يوم الآخرة » . وهذا المثل من الأمثلة القليلة التى يلجأ إليها تحذيراً من الظلم وإشعاراً بما يتعرض له الظالم من المسئولية أمام الله فى الحياة الآخرة .

وقد صارت الآن تهديدات الفلاح لمدير البيت العظيم وهو يلقيها واقفاً أمام القصر فى شدتها أكثر مما يمكن احتماله ، حتى لقد أرسل خادمين ليجلدا ذلك التعس . ولكنه على الرغم من ذلك انتظر قدوم رنزى كرة أخرى بقلب ثابت لا يزعزعه خوف الضرب أو التعذيب . وعندما وقع بصره عليه واجهه بخطبة رابعة ثم تلاها بخطبة خامسة . وبالرغم من أنها كانت أقصر خطبه كلها فانها كانت ألذعها فى الاتهام . فاستمع لما يقول : « لقد نصبت لتسمع الشكاوى ، وتفصل بين المتخاصمين ، وتكبح جماح اللص ، ولكن ما تفعله هو أنك تتحالف مع اللص . والإنسان يضع ثقته فيك ، ولكنك أصبحت معتدياً . لقد نصبت سدًّا للفقير ، فاحترس خوف أن يغرق . ولكن تأمل ! إنك تياره السريع ، وفيضانه الجارف ! »

ولكن رنزى كان لا يزال ملازماً الصمت ؛ من أجل ذلك اضطر الفلاح أن يبتدئ خطابه السادس لاجئاً من جديد إلى عاطفة العدالة التى اتصف بها مدير البيت العظيم ، و إلى ما اشتهر به من الرأفة . فاستمع لما يقول :

« يا مدير البيت العظيم ، يا سيدى ! . . . إن كل محاكمة حقة تدحض الباطل ، وتعلو بالصدق ، وتشجع الحسنة ، وتمحو السيئة ، كالشبع عندما يأتى يقضى على الجوع ، وكالكساء يقضى على العرى ، وكالسماء تصفو بعد العاصفة الشديدة ، وتدفئ كل من شعر بالبرد ، وكالنار التى تسوى النئ ، وكالماء الذى يطفئ الظمأ ، أنظر بعينيك ! إن الحكم متلاف ، والمصلح موجد للفساد ، ومهدئ الخلافات خالق للألم ، والمغتصب يحط من قدر العدالة . »

ولما لم يجد الفلاح جواباً من رنزى على استعطافه اهتاج من جديد وأخذ يقول : « إنك متعلم ، وإنك ماهر ، وإنك عادل ، ولكن ليس فى النهب والسرقة . والآن مثلك مثل كل بنى الانسان ، كل أعماله ملتوية ومفسد الأرض كلها يمشى مستقيما إلى الأمام (لا يرى أمامه اعوجاجاً) ، وزارع الشكر يروى حقله بالأعمال الخاطئة حتى يجعل مزرعته تنمو بالكذب ، وبذلك يرى المتاعب إلى الأبد ! »

ومع ذلك فان هذه الاتهامات لم تحرك ساكناً عند مدير البيت العظيم . ولذلك أخذ الفلاح التعس يفتح فمه بصوت عال ، وألقى شكواه السابعة . فيبتدئ كالمعتاد بمدح مدير البيت العظيم ، فيقول له : « إنك سكان البلاد قاطبة ، والأرض حسب أمرك ، وإنك معادل للإله تحوت (إله العلم والمعرفة والمواقيت) تقضى دون أن تنحاز إلى جانب . يا سيدى ! كن صبوراً حتى يمكن الانسان أن يستغيث بك لقضيته العادلة . ولا تجعلن قلبك جموحاً ، فان ذلك لا يليق بك ، فان الرجل البعيد النظر يكون حليما . » ثم ترى الفلاح يرجع فجأة على الفور إلى وصف حالته التعسة فيقول : « حقًّا ! إن جوفى لملآن ، وقلبى لمفعم ، وقد طفح من جوفى تقرير عن تلك الحالة . لقد كان صدع فى السد فتدفق منه الماء ، وقد انفتح فمى للكلام . » غير أن استمرار تغاضى ذلك الحاكم وعدم اكتراثه مع ما هو مشهور عنه من عدالة ورأفة بالضعفاء ، قد زاد فى غيظ ذلك الفلاح التعس إلى حد جعله يتخذ من صمت مدير البيت العظيم عنه شاحذاً لعاطفته ، ويرى فيه دافعاً يطلق عقال ألسنة أكثر الناس لكنة وعيًّا ، فيقول مقرعاً إياه : « إن خمولك سيضلل بك ، وشراهتك ستغشك ، وإن عدم اكتراثك سيولد لك أعداء . ولكن هل يمكنك أن تجد فلاحاً آخر مثلى ؟ وهل الشاكى يقف على باب بيت الخامل ؟ على أنه لا يوجد إنسان صامت قد أنطقته ،

ولا نائم قد أيقظته ، ولا مكتئب قد نشطته ، ولا إنسان فمه مغلق قد فتحته ، ولا جاهل قد جعلته يعرف ، ولا غبى قد علمته . ومع ذلك فان الحكام هم الذين يقصون السوء ، وأرباب الخير هم أصحاب فن ليصنعوا أى شيء كائن ، ويصلوا الرءوس التى قد فصلت عن أجسامها ! »

ولما لم يكن فى مقدور ذلك الفلاح أن يكبح جماح غضبه وشدة حنقه ؛ أخذ يلقى خطابه الثامن ، واستمر فى تهديد رنزى إذ يقول : « يأيها المدير العظيم يا سيدى ! إن الناس يتحملون السقوط السحيق بسبب الطمع ، والرجل الجشع يعوزه النجاح ، ولكنه ينجح فى الخيبة ! إنك جشع وذلك لاينسجم معك . وإنك تسرق وذلك لا يفيدك ، أنت يا من يجب عليه أن يسمح للإنسان أن يشرف على قضيته الحقة . ذلك لأن ما يقيم أودك فى بيتك ، ولأن جوفك قد ملئ . . . آه ! أنت يا من يجب عليه أن يقضى على اللص ، ويا من يقصى الحكام وقد نصبوا ليدرءوا السوء ، وهم حمى الساخط . والحكام قد نصبوا ليكبحوا الكذب . . . إنك تملك حقلك فى الريف ، وضياعك التى وهبها لك الملك ، وخبزك فى المخبز ، والحكام يعطونك ومع ذلك تغتصب ! هل أنت لص ؟ هل يحضر إليك بجنود لتصاحبك عند تقسيم الحقول (المسروقة) ؟ »

ومع كل ما وجهه هذا الفلاح من تقريع واتهامات لاذعة إلى هذا الحاكم فانه لم ين عن المطالبة بتحقيق العدالة ؛ ولذلك يعود من جديد مطالباً بها فى أعظم فقرة فاه بها فى ذلك المقال العظيم ؛ إذ يقول : « أقم العدل لرب العدل ، والذى عدل عدالته موجود . وأنت يأيها القلم ، وأنت يأيتها البردية ، ويأيتها الدواة ويا تحوت (رب العلم) ابتعدوا عن عمل السوء ، وعندما يكون الحسن حسناً فالأمر إذن حسن . غير أن العدل سيكون إلى الأبد ، ويذهب مع من يعمله إلى الجبانة ، وسيدفن وتطويه الأرض ، أما اسمه فلن يمحى من الأرض ، بل سيذكر للخير . وهكذا القانون التى رسمته كلمة الله العليا . »

على أن السؤال الذى ينشأ عن ذلك طبعاً بعد إلقاء هذه الكلمات الخارجة من الأعماق هو : ألا يزال هناك مجال للظلم بعد ذلك ؟ ولقد أخذ الفلاح يسأل هذا السؤال . فاستمع إليه وهو يسأل :

« هل هو ميزان ؟ إذن لا يميل . هل هو لسان الميزان ؟ إذن لا يحيد إلى جانب (لايزن غشا) . » ثم يستمر قائلا : «وإذا احضرتُ أو حضر غيرى فخاطبه

ولا تجيبن كانسان يخاطب رجلا صامتاً ، أو كانسان يهاجم من لا يمكنه أن يهاجم ... إنك لا تظهر الرحمة . . . إنك لا تعطينى مكافأة على تلك الخطب التى تخرج من فم الاله نفسه . انطق بالعدل ، وأقم العدل ، لأنه خطير وعظيم ويعيش طويلا ، والثقة به قد عرفت ، فهو يؤدى إلى العمر الطويل المحترم . هل الميزان يحيد ؟ فاذا كان الأمر كذلك فان ذلك يكون بسبب كفتيه اللتين تحملان ما يوزن . ولا يجوز وجود الظلم مع القانون . »

ولما لم يفه رنزى بجواب على هذه الكلمات السامية ، رفع الفلاح صوته عالياً للمرة الأخيرة وألقى مرافعته النهائية عن قضيته اليائسة ، وهى خطبته التاسعة التى يذكر فيها مدير البيت العظيم بخطر الكذب والغش إذ يقول :
« وإذا مشى الكذب فى الخارج فانه يضل ، ولا يعبر فى قارب التعدية ، ولن يتقدم قيد أنملة . أما من تنمو ثروته به فلن يكون له أطفال ، ولن يكون له وارث على الأرض . ومن يسيح به فيتخذه بضاعة فلن يصل إلى بر ، وسفينته لن ترسو على مرفأ . . . » ثم يختم الفلاح خطبته بالكلمات التالية :

« لا تكونن متحيزاً ، ولا تصغين لقلبك ، ولا تسترن وجهك من إنسان تعرفه ، ولا تتعامين عن إنسان قد رأيته ، ولا تردن إنساناً يشكو إليك ، واترك هذا الخمول حتى يمكن أن تروى حكمتك القائلة « افعل الخير لمن يفعله لك » وأن تصل إلى مسامع كل الناس ، وحتى يرجع إليك القوم فيما يتعلق بالمطالبة بالحق . والأصم عن العدل لا رفيق له . والرجل الجشع لا فراغ لديه . وذلك الذى يوجه إليك التهمة يصير رجلا فقيراً ، والفقير يصير شاكياً ، والعدو يصبح ذابحاً للفلاح . تأمل ! إنى أشكو إليك ، وأنت لاتسمع شكواى ، فسأذهب وأشكو إلى أنوبيس . »

ولما كان أنوبيس هو إله الموتى ، فان الفلاح كان يقصد من ذهابه إليه أنه سينتحر . وعندئذ يرسل مدير البيت العظيم خادمه على الفور ليجئ بالفلاح أثناء عزمه على الرحيل . وإذذاك تبادلا معاً بعض العبارات المبهمة فى المتن . على أن رنزى فى الوقت نفسه كان قد دوّن فى بردية أخرى كل شكايات الفلاح حسب تواريخها .

والمفروض أن ما انحدر إلينا من تلك الوثائق هو نسخة من تلك البردية . ولكن مما يؤسف له أن خاتمتها كانت ممزقة كل ممزق . ويمكننا أن ندرك أن

لفائف البردى التى أعطاها أمناء أسرار رنزى إياه هى التى حملها رنزى هذا إلى الملك . وقد وجدها الملك سارة لقلبه أكثر من أى شئ فى البلاد ، وبعد ذلك يأمر الفرعون مدير البيت العظيم أن يفصل فى قضية الفلاح ، وإذذاك يحضر المختصون بهذا العمل سجل الضرائب الذى يحدد ممتلكات ذلك الفلاح الرسمية ، ويبين موقفه القانونى والاجتماعى ، وعدد أفراد أسرته ، ومقدار ثروته ، ثم يعقب ذلك فى البردية بعض كلمات مفتتة يقل عددها عن اثنتى عشرة كلمة ، يمكننا أن نفهم منها على وجه التقريب أن تحوتى نخت قد عوقب ، وأن ممتلكات ذلك الموظف الجشع المغتصب قد أعطيها الفلاح .

ولأمر هام نجد أن أشراف رجال البلاط الفرعونى منذ ما يربى على أربعة آلاف سنة مضت مهتمون بما فيه الكفاية لإسعاد حال الطبقات الدنيا ، حتى إنهم كانوا يكلفون أنفسهم مشقة تدوين مثل تلك المقالات والاعتناء بحفظها ، وهى لم تكن فى الواقع إلا دعاية لنظام قوامه العدل والشفقة بالفقراء . وأمثال أولئك الرجال كانوا حملة أقلام لاعلان حرب مقدسة مطالبين فيها بالعدالة الاجتماعية . وقد جعلوا ذلك المقال بالذات ممتعاً فى قراءته لطبقة الأغنياء الموجه إليهم ذلك المقال . وبالرغم مما يجده الأثرى من الغموض المستمر فى لغته وأسلوبه البليغ ، واستعاراته القوية ، وتشبيهاته القريبة مما صير فصاحة ذلك الفلاح غامضة المعنى فى أذهان عالمنا الحديث ، فان ذلك المقال قد اكتسب مكانة جعلته أدباً من الطراز الراقى فى عصره . ولا شك فى أنه كتب بالأسلوب الذى كان مستحسنا عند أهل ذلك العصر؛ على أن ذلك التهكم اللاذع الذى يبدو فى نواحيه كان مما يزيد فى شهرته الأدبية عند قدماء المصريين الذين كانوا محبين بطبيعتهم للتهكم ، ولكنه مع ذلك كان أدباً يرمى إلى غرض خلقى . وقصة ذلك الفلاح الفصيح تعد تصويراً حيًّا ناطقاً عن عجز أولئك الموظفين الأمناء إذ لم يكن يشد أزرهم ملك عادل حازم رءوف عليم بخبايا الأمور يعرف ما يجرى فى مختلف بقاع بلاده من أصدقاء أوفياء لا موظفين متملقين يصورون له الحقائق مقلوبة ويعرضونها كما تشاء أهواؤهم وتتفق مع مصالحهم ومصالح من يلوذ بهم . والآن نسائل هل أعطى الكاتب الاجتماعى القديم درساً لمصرى الجيل الحاضر ؟

سليم حسن

إلى فتاة

فيضُ أهواء العيون تَنشد المرمى اللطيفْ
خاف جسّاتِ الجفون تحصر الوهم الرهيف
فرّ هفّافَ الجنون نحو أبراج الطريف
يجتلى ما قد يكون بعد منظورٍ كثيف
عاد من قطب الظنون من سنا أوجٍ عفيف
مثل زهوٍ فى الغصون لم يروّضه الخريف

بصّرينى يا «وضوحْ» ثروةَ القطب الخطيرْ
أنا فى وهْج الفتوح يقظٌ لكن حسير
خفّ بى كشفٌ طموح وكبا فهمٌ كسير
فسرَت فوحاتُ روح فى غيابات الضمير
لمحَاتٌ قد تبوح بخفيّات الأثير
ويْهَ جودى بالشروح يسّرى أنس الغرير

بشر فارس

ذكريات الحرب الكبرى الأولى

كانت الحرب الكبرى فى ١٩١٤ متوقعة ، وكان أساسها المباراة العظيمة بين الانجليز والألمان . فانهما كانا على تقدم صناعى عظيم يحتاج إلى المستعمرات والمواد الخامة والأسواق . وكان الانجليز حاصلين على كل هذا ، ولم يكن الألمان حاصلين على شئ يؤبه به . فكانت الصناعات الانجليزية تمتاز بالمواد الخامة الرخيصة التى تحصل عليها من الهند وجاوة ومصر وغيرها ، فتستطيع بيع مصنوعاتها بأثمان منخفضة . ثم فى الوقت نفسه كانت تجد التفضيل فى الأسواق فى هذه الأقطار وغيرها ، وإذا لم يكن هذا التفضيل بالامتياز الجمركى الصريح ، الذى يجعل مصنوعاتها تدخل هذه الأقطار بسهولة ، فانه يكون بألاعيب أخرى تؤدى إلى التفضيل ، ويقوم بها موظفو المستعمرات لخدمة طبقة الصناعيين والتجاريين فى بريطانيا .

ولم يطق الألمان هذه الحال ، أى أن يثرى الانجليز بأوضاع اقتصادية عالمية غير عادلة ، ويبقوا هم فى تخلف اقتصادى . وشئ من هذه الحال كان أيضاً بارزاً فى مقدمات الحرب الكبرى الثانية التى دعت اليابان فيها إلى « الرخاء المشترك » .

وكانت الشرارة الأولى للحرب قتل أحد الأمراء من أسرة الامبراطور فرانز جوزيف ، وكان إمبراطوراً هرماً على إمبراطورية هرمة ضعيفة . ولم تمض إلا أيام حتى كان العالم كله مشتعلا ، وأخذ الجمهور فى مصر على دهشة .

وكنت أصدر مجلة المستقبل فى القاهرة . فدعيت إلى تعطيلها فى إدارة المطبوعات . ثم شرع الانجليز فى اعتقال من يتوجسون فى اتجاهاته . ولبثت بعض الشهور وأنا أعمل مع مى فى جريدتها ، أى جريدة والدها ، المحروسة . ولكنى سئمت الرقابة التى لم تكن تسمح بنشر خبر صحيح إلا بعد أن تزيفه حتى تخرج الهزيمة التى كانت تقع بالحلفاء كأنها انتصار رائع لهم .

ورحلت إلى الريف ، ورأيت كيف كان يسلط الانجليز علينا الموظفين المصريين من مأمورين ومديرين وحكمدارين وشرطة لخطف محصولاتنا . وكانت الجمال

والحمير بل الرجال يخطفون أيضاً كما لو كانوا فى قرية زنجية على خط الاستواء قد كبسها النخاسون لخطف سكانها وبيعهم فى سوق الرقيق . وكان المنظر يهين النفس كما يفتت القلب . فكان الرجل يربط بالحبل الغليظ من وسطه ، وخلفه أمثاله ، ويسيرون على هذه الحال صفًّا إلى أن يبلغوا « المركز » فيحبسون فى غرفة المتهمين ثم يرحّلون إلى فلسطين . وكنت أنجح أحياناً بالرشوة فى استخلاص بعض هؤلاء المساكين . وذات مرة سمعت صراخاً ودخلت علىّ نسوة فى فزع ونحيب . وعرفت أن ثلاثة ممن يزرعون أرضنا ألقى القبض عليهم وهم يحرثون فى الحقل . فخرجت ووجدتهم مربوطين بالحبال بحراسة أحد الشرطة . أما سائر الشرطة فقد تركوهم كى يغزوا قرية أخرى . واستطعت بمساومات مع الشرطة أن أحصل على الافراج عنهم . ولكنى لم أكن أنجح كل مرة ؛ ففى ذات يوم قصدت إلى المأمور فى الزقازيق أطلب منه إطلاق اثنين من الفلاحين . فتأملنى ثم قال : أنا عايز أرحّلك أنت لفلسطين . فتركته إذ لم تكن الظروف وقتئذ تأذن بالتحدى .

وفى تلك السنوات السود أثرى كثير من العمد ثراء فاحشاً ؛ فقد فرضوا ضرائب على جميع الشباب من سن العشرين إلى الخمسين كل على مقدار مايملك . فهذا يؤدى خمسة جنيهات ، وذاك عشرة جنيهات ، حتى يعفيهم من الاعتقال وبعثهم إلى فلسطين . وعرفت عمدة كان يملك ستة أفدنة فقط جمع نحو خمسة آلاف جنيه بهذه الطرق . وكان الفلاحون يجوعون كى يجمعوا هذه الغرامة ويؤدوها .

وقد استمتعت بعد ذلك بالشماتة عندما رأيت هذا الشقى وقد قبض عليه الانجليز بعيداً عن قريته وأجبروه على النزول فى ترعة يبحث عن أحد قضبان الخط الحديدى لشركة الدلتا . فقد فوجئ وهو على حمار قاصداً إلى الزقازيق فأنزلوه وضربوه وأجبروه على العمل فى ترميم الخط الحديدى الذى كان الفلاحون قد نزعوه فى ١٩١٩ . وعرفت بعد ذلك أنه تورط فى معاكسات ومشاجرات بينه وبين الأهلين فضاع كل ما جمعه ؛ فقد تعقبوه بالشكايات جملة سنوات وتمسكوا عليه بمخالفات خطيرة جعلته ينفق فى الرشوة وأجور المحامين كل ما جمعه من هؤلاء الفلاحين المساكين .

وكان معظم النقل فى الحرب الكبرى الأولى على الخيول الاسترالية ، وكانت ضخمة يعلف الحصان منها بضعف ما يعلف به حصان من خيولنا . ولذلك كان التبن والشعير يخطفان من الريف . وقد قام عمالنا المصريون ، وهم من الفلاحين ،

بخدمة الحملة الانجليزية فى فلسطين . وكانوا يعدون بعشرات الألوف مات أكثرهم وعمى بعضهم . ومع ذلك عندما انتهت الحرب واشتعلت الثورة فى مصر فى سنة ١٩١٩ وقف السفير البريطانى فى واشنطون ينتقص من قيمة خدمتنا فى الحرب كى يحول دون العطف الأمريكى على قضية استقلالنا ، فقال إن جميع من قتلوا فى الحرب من المصريين لا يزيدون على ثلاثة أشخاص .

وكثير من الفلاحين يتركون الأرض إلى المدن لما يلاقون من قسوة المالكين الذين يعصرونهم بالايجارات والمحاسبات . ولكن الريف لا يزال معموراً بل مزدحماً بالفلاحين على الرغم من جميع ما يلقى هؤلاء فيه من مصاعب . وظنى أن بعض السبب لذلك أن فى الأرض فتنة تسحر الفلاح وتربطه بها مهما قل كسبه منها . فانه يستيقظ قبل الشروق ، ويخرج إلى حقله ترافقه بقرته وحماره وعنزته أو نعجته . وهو يحس برفقة هذه الحيوانات ويجد فى هذه الرفقة لذة تسمو على الاعتبارات المالية . وهو يتشمم الأرض عقب حرثها حين تنفح التربة الهواء بروائحها التى توحى الرخاء والبركة . بل هو يبكر أحياناً كى يتحقق من النمو الجديد فى الذرة أو القمح . وفى الشتاء حين يكسو الندى البرسيم تبدو الدنيا فى بهاء لا يعدل الانسان به أى جمال آخر .

وقد وجدت هذه الفتنة فى السنوات التى قضيتها فى الريف مدة الحرب . وكنت كثيراً ما أتأمل الفلاحين وهم يكدّون من الفجر إلى الغروب ، ثم يعودون مرحين يتغنون بالمواويل خلف البهائم إلى بيوتهم . وهذا الحب للأرض وللنبات وللحيوان يلصق الفلاح بالريف ويجعله يرضى بالمعيشة الضنينة من حيث الطعام واللباس والمسكن ، بل يرضى بقسوة الايجارات والمحاسبات ، بل إن الفلاحة أيضاً تجد من الاهتمامات بتربية الدجاج والبط والحمام ما يجعلها مفتونة بهذه الطيور فتعنى بها كما لو كانت تؤدى هواية لذيذة . وكثيراً ما رأيت إحدى الفلاحات تخاطب البقرة التى عزفت لسبب ما عن الطعام بقولها : يا حبيبتى ، يا أختى ، ثم تمسحها بيديها كما لو كانت طفلا تدلله .

ثم يجب ألا ننسى القمر فى الريف؛ فانه يسكب سحره على كل شئ ، وأبناء المدن الذين يرون القمر من خلال المبانى لا يعرفون فتنة هذا الكوكب فى الريف.

وغيرى يعدّ الريف منفى ، ولكنى أعتقد أن أحسن سنى حياتى هى تلك التى

قضيتها فى الريف . فقد أتاح لى الدراسة الجدية كما أتاح لى الاستمتاع بالطبيعة . ولم يكن يمر علىّ يوم دون أن أستيقظ فى الساعة الرابعة أو الخامسة من الصباح وأسير فى الحقول وهى مبللة بالندى فى هدوء الطبيعة الرخيم أنتظر بزوغ الشمس فأحييها وأتأملها كأنى فى صلاة . وهناك آلاف من الناس لم يعرفوا قط هذه الصلاة ولم يحسوا هذا الاحساس الدينى فى الاتصال بالطبيعة فى خلوة الحقول التى تنمو كل نهار بحياة جديدة . والسائر فى الحقول فى هذه الساعات الأولى من النهار تغمره نشوة حقيقية حتى ليجد خفة فى نفسه لا تختلف من تلك التى يحدثها الكئول ، ولكن دون تخدير للوجدان .

والريف يوهم التجزؤ والانفصال . هذا نبات ، وهذا حيوان ، وهذا مسكن ، وهذا حقل ، بل هذا إنسان وهذا بهيم . ولكن المتأمل يجد الترابط والتكافل ، كأن كل هؤلاء وحدة حية .

وقد كان داروين يقول على سبيل الفكاهة إنه يستطيع أن يقدر عدد العوانس فى قرية (فى انجلترا) بملاحظة حقول البرسيم المحيطة . فاذا كان البرسيم مزدهراً ناجحاً فانه يدل على أن العوانس كثيرات فى القرية . ذلك لأنهن يربين القطط . والقطط تأكل الفئران . والفئران تأكل النحل . والنحل هو الذى ينقل إلى البرسيم لقاحه من زهرة إلى زهرة . . . فاذا قلت العوانس قلت القطط وزادت الفئران ، وقل النحل ثم قل ازدهار البرسيم .

ونحن نرى هنا بالطبع فكاهة . ولكن لها مغزاها ، وهو أن النبات والحيوان يعيشان فى تضامن سمبيوزى أى إن كلا منهما يخدم الآخر ؛ فحياة هذا تتوقف على حياة ذاك . وقد كنت أبتهج بالتأمل فى الريف لهذه الروابط بين النبات والحيوان . وكثيراً ما كنت آسف وأنصح بشأن البومة ؛ فان الفلاحين قد ورثوا عقائد غيبية عنها إذ يقتلونها لأنهم يتشاءمون منها ، مع أنها تأكل الفئران التى تقتات بذراهم وخبزهم . ثم إن تكاثر الفئران يؤدى إلى تكاثر الثعابين التى تقتات بها . بل إن للذئاب والثعالب فى ريفنا قيمتها السمبيوزية أيضاً لأنها تنظف القنوات من الرمم .

وقد كنت ، وما زلت إلى الآن ، أجد لذة واهتماماً فى أن أتابع فراشة بل أجرى وراءها كالصبى حتى أمسكها وأتأملها وأبحث عن أعضائها ، ثم أطلقها . وسلوكى هذا كثيراً ما كان يبعث الابتسامات بين الفلاحين الذين يعتقدون

أن مثل هذا العبث لا يتفق والوقار . وما زلت أحلم بأن أقضى السنة الأخيرة من عمرى فى الريف .

وريفنا الذى صنعته الطبيعة ، ريف الحقول والزهر والشجر والطير والفراش ، هذا الريف يتلألأ بالجمال ويبعث الحياة تنبض فى عروقنا حين نشرب من هوائه ونشم منه خضرة البرسيم أو الذرة التى تغمر نفوسنا . ولكن الريف الذى صنعه المجتمع المصرى ، ريف المساكن الكالحة المبنية من الطين المجفف ، ريف الايجارات والمحاسبات والحرمان للفلاحين ، هذا الريف لا يوحى إلينا الصلاة بل يوحى الغضب واللعنة وكراهة الحياة فى مصر . فان المالك يعامل أحياناً الفلاحين بروح تجارى لا يبالى هل هو يجوع أو يمرض بسبب الايجارات العالية التى يفرضها عليه .

وأذكر أن أحد الفلاحين فى عزبة غير بعيدة قدم إلىّ ذات صباح فى ١٩١٥ وعرض علىّ أن ينتقل إلى عزبتنا ، فقبلت . وقبيل الغروب حضر هو وزوجته التى كانت تحمل ابنتها على صدرها ، وكان هو يحمل جرة بها « مخلل » . وكانت هذه الجرة كل ما يملك من متاع فى الدنيا . فقد حاسبه صاحب الأرض وأخرجه خالصاً لا عليه ولا له . وفاحت رائحة كريهة من الجرة . فكشف عنها أحد الحاضرين وصب منها على الأرض ، وما زال يصب حتى فرغت . وكان هذا « المخلل » الذى ذكره هذا المسكين لا يتجاوز هذا السائل الكريه يبلل به هو وزوجته خبز الذرة ثم يبلعانه . وكان الهزال واضحاً فى الثلاثة . وكان أوضح فى الطفلة التى كانت تتعلق بصدر أمها كأنها خرقة بالية معلقة . وقد ماتت هذه الطفلة بعد نحو أسبوعين .

وقص علىّ على ، وهذا اسمه ، مأساته . فقد دخل تلك العزبة قبل ست سنوات ومعه بقرة وحمار ، وكان لزوجته صندوق ولحاف وحصير ومخدة . ولكن المالك كان « يحاسبه » كل عام ، فيخرج مديناً . وباع بقرته وحماره فى تسديد الدين . ثم باعت زوجته كل أمتعة البيت كى تشترى الذرة .

وذات مساء أقبلت على العزبة فوجدت علياً مبطوحاً على بطنه وهو يصرخ صرخات عالية . وفزعت عندما رأيته على هذه الحال ، وظننت أنه قد تسمم أو أن وباء الكوليرا قد نقل إلى مصر مع بعض الجنود الهنود . ولكن المسكين سكت خجلا عندما رآنى . وذهبت به فى اليوم التالى إلى الزقازيق لأحد الأطباء .

فقال إنه مريض بالبلاجرا ، وهو مرض ينشأ من النقص الغذائى ، فذكرت الجرة التى جاء بها وصببنا منها المخلل على الأرض . . .

وتفاقمت حاله ، وظهرت عليه أمارات البلاهة . وتركته زوجته وتزوجت غيره . ثم حدث حريق فى بهنباى بعد ذلك بسنين ، وكان هو فى أحد أزقتها . فخانه ذكاؤه الذى تقهقر من البلاجرا فعجز عن التخلص من النار ومات بالحريق .

وفى الريف المصرى الجميل ، آلاف من هذه المآسى التى تعود إلى الروح التجارى فى محاسبة الفلاحين وزيادة الايجارات حتى يموتوا فى بطء لقلة الطعام . وأغلب المسئولين عن هذه القسوة هم من المالكين الذين يعيشون فى المدن ويستغلون غيابيا أرضهم ، فلا يستطيع وكلاؤهم التسامح ، ولا نقول الرحمة ، مع المأزومين والفقراء ، بل أحياناً يبرهن هؤلاء الوكلاء على إخلاصهم واجتهادهم للمالكين بزيادة الايجارات على هؤلاء المساكين .

وكنا نقرأ الأخبار كما يحب الانجليز أن نفهمها . ولذلك كانت الرقابة صارمة شاملة . فقد اشتركت فى بعض المجلات الأمريكية كى أصل عن طريقها إلى الأخبار الصحيحة . فكانت إما تمنع من الوصول إلىّ وإما تقص أوراقها التى تحمل أخباراً غير ملائمة للانجليز . ولكن حتى بين المحررين المصريين من كان يستطيع أن يروى الخبر بحيث يجوز ظاهره على الرقيب ويدرك قارئه ما بين سطوره ، مثل :

« جاء فى التلغرافات أن هزيمة الألمان عند فردناش كانت فادحة ؛ إذ تقدموا بعد جهد كبير عشرة كيلومترات . ولكن ارتد عليهم الجنود الانجليز والفرنسيون فانتزعوا منهم طاحوناً . وقد أحدث هذا المنظر فرحاً عاما فى قيادة الحلفاء . »

وكان الرقيب ينخدع بهذه اللهجة وينسى المعانى الواضحة .

وكان إعجاب الجمهور بألمانيا يفوق الوصف . وبعض هذا كان يعود بالطبع إلى الشماتة بالانجليز المحتلين لوطننا . وكنا نهجس أحياناً بأمل الاستقلال إذا انهزمت بريطانيا أو على الأقل لم تنتصر . وكان هذا الأمل قوياً فى بداية الحرب وبقى إلى أن دخلت أمريكا فى صف الحلفاء . ولم تكن الطائرات عنصراً خطيراً فى الحرب الكبرى الأولى . ولم تزرنا فيها غير طائرتين : الأولى ألقت قنبلة بالقرب

من البنك الأهلى . والثانية ألقت قنبلة فى حى الفجالة ، وكان التلف صغيراً . وأيضاً أرسلت ألمانيا بلوناً عبر جوّنا ، ذهاباً و إياباً ، من أوربا إلى المستعمرة الألمانية فى أفريقيا الشرقية . ولم يلق أية معارضة من الانجليز . وكان على ارتفاع بعيد حتى لم يسمع أحد بأزيز موطراته .

وقد كانت براعة الألمان فى القتال عظيمة ، ولكن إخفاقهم فى السياسة كان عظيما أيضاً ؛ إذ لم يستطيعوا أن يتوقوا انضمام الأمريكيين إلى أعدائهم . ولذلك صحت كلمة لويد جورج رئيس الوزارة الانجليزية عندما قال : « الألمان يكسبون المعارك الآن . ولكنا نحن سنكسب الحرب » .

وكان تشرشل بطل الحرب الكبرى الثانية بطلا أيضاً فى الحرب الكبرى الأولى . فقد كان يتهم الألمان بأنهم يصنعون الصابون من جثث القتلى أى يستخرجون الشحم من هذه الجثث ويصنعون منه الصابون . وقال أيضاً إن الألمان يبعثون جنودهم إلى المدن لتلقيح النسوة بلا زواج . . . وكانت هذه التهم بالطبع غير صحيحة . ومما قام به تشرشل فى تلك الحرب أنه زيف ملايين النقود الورقية وبعث بها عن طريق سويسرا إلى ألمانيا حيث أفسد قيمة النقد الألمانى . وتشرشل أيضاً هو المسئول عن الحصار الذى ضربه الانجليز على ألمانيا أحد عشر شهراً بعد إعلان الهدنة . فلم يكن يدخل ألمانيا شئ من الأغذية التى يحتاج إليها السكان ، وكانوا قد بلغوا حالا بشعة من القحط . وقد عم الكساح أطفالهم لهذا الحصار .

وارتفعت الأسعار والأثمان إلى أربعة أضعاف بل خمسة أضعاف ما كانت عليه قبل الحرب . ولكن الرخاء كان عاما ، لأن الانجليز بعد أن كانوا قد حددوا أثمان القطن فى السنتين الأوليين من الحرب تركوها حتى وصلت إلى ٤٠ و ٤٥ جنيهاً للقنطار . وكان أردب القمح يصل إلى ٧ أو ٨ جنيهات . وبقيت إيطاليا مدة طويلة وهى محايدة ، فكانت تموننا بكثير من المصنوعات . ولذلك لم يزد قط ثمن البذلة على ٨ أو ٩ جنيهات . وأحدثت أثمان القطن المرتفعة هوساً عاما فى الريف حتى بلغ ثمن الفدان خمسمائة جنيه و إيجاره ٤٠ أو ٥٠ جنيهاً . وبدهى أنه فى مثل بلادنا حيث منع الانجليز تأسيس المصانع يجب أن ترتفع أثمان الأرض كلما زاد النقد المتداول ؛ إذ ليس هناك شئ آخر لاستغلال النقد الفائض . وأعرف اثنين شقيقين فى الريف كانا يتجران بالقطن فى ١٩١٩ . وقد عمهما الهوس بشأن

الزيادة المستمرة فى أثمانه ، فصارا يجمعان منه ويكنزان حتى أصبحت ثروتهما كلها قطناً لا يملكان شيئاً غيره . وكان يعرض عليهما الثمن العالى فيرفضان انتظاراً لارتفاع الثمن إلى خمسين أو مائة جنيه . وهما فى هذه الآمال والأحلام وإذا بالثمن يهوى إلى أقل من أربعة جنيهات . فجن أحدهما ومات الآخر . وكثر الانتحار بين المضاربين على أثمان القطن فى بورصة الاسكندرية . وفى أثناء هذه الحمى كانت الثروات الضخمة تتكون فى أيام أو أسابيع ؛ فقد كان هناك تجار يشترون البيض أو الزبد أو يتجرون فى البهائم ، فلما رأوا أن القطن يصعد إلى السماء أقبلوا عليه . فلم يكن يدور العام على أحدهم ، فيما بين ١٩١٨ و ١٩١٩ ، حتى كان يملك عشرين أو ثلاثين ألف جنيه مع أن كل ما كان يملك فى بداية تجارته لم يكن يزيد على مئتى جنيه . وكان بعض هؤلاء يتناسى قديمه ويزعم أنه أصيل عريق فى الثراء . وبعض آخر كان يتبجح بعصاميته وأنه جمع ثروته بذكائه ، أو كما كان يقول بذراعه . وكلاهما كان كاذباً ؛ لأن كل ما فى الأمر أن الحظ رفعهم كما خفض غيرهم .

وكانت الحرب تسير فى سلحفة بطيئة خالية من الاقتحامات ، حتى كاد الناس يعدونها شيئاً مألوفاً ليس هناك ما يدعو إلى أن يتغير . فقد حفرت الخنادق ، من الجانبين ، فى الاقليم الشمالى من فرنسا وجهزت بالأثاث والمصابيح الكهربائية ، ونظمت بينها المواصلات وحصنت بالأسمنت . وعم الجبهة الغربية ركود حتى صارت عبارة « كل شئ هادئ فى الميدان الغربى » من العبارات الرمزية نقولها عندما لا نجد خبراً جديداً . وهنا الاختلاف بين الحرب الأولى والحرب الثانية فى ١٩٣٩ . فان الغارات الجوية التى وصلت إلى مدننا جعلت هذه الثانية متحركة نشيطة بالمقارنة إلى سكون الأولى فى الخنادق . وحاول الألمان أن يحركوا الجبهة الغربية بالهجوم الكبير على فردان . ولكنهم لم ينجحوا إلا فى قتل عشرات الألوف من شباب الألمان والفرنسيين . والواقع أنه لم يكن فى أخبار الحرب الأولى ، بعد الهجوم البرقى الألمانى الأول ، مما بقى أثره سوى ثلاثة أشياء هى دخول أمريكا فى الحرب ، ثم انفصال روسيا بنظامها الجديد . وأخيراً شروط ولسن التى أحسسنا بها كأننا نفتتح عصراً جديداً للسلام والعدل . وكان أهم ما فى هذه الشروط حق تقرير المصير للشعوب التى يستعبدها الاستعمار . وكانت « عصبة الأمم » إحدى ثمرات جهاد ولسن للسلام العام .

وقد ظهر ولسن بمذهبه الجديد كما لو كان نبيا . فان العالم الذى كان يئن من الامبراطورية البريطانية استروح نسيما منعشاً من هذه المبادئ الجديدة التى تقول بالمساواة والحرية وتقرير المصير . وعلقت هذه المبادئ بأذهاننا ، وصرنا نلهج بها ونفكر فيما نستطيع أن ننتفع به منها . وكان الساسة الانجليز يتململون من هذه المبادئ ولكنهم لم يستطيعوا منعها وإنكارها . وقد عادوا إلى مثل هذه الحال فى الحرب الكبرى الثانية عندما دعا الرئيس روزفلت إلى ميثاق الأطلنطى والحريات الأربع . فقد قبلوا مبادئ ولسن ثم مبادئ روزفلت بالقول مع نية نقضها بالفعل .

وكان ولسن يسير فى أوربا ويتنقل من عاصمة إلى أخرى والجماهير تحتشد له وتتلقاه فى خشوع دينى ، حتى كان بعضهم يجثو على الركب على أرصفة المحطات . وكان الكاتب الفرنسى رومان رولان فى فرنسا التى غادرها احتجاجاً على الحرب . وقد كتب له خطاباً مفتوحاً قال فيه :

« أنت وحدك ، أيها الرئيس ، بين جميع أولئك الذين يحملون الواجب الرهيب لقيادة الأمم ، أنت وحدك تستمتع بسلطة روحية عالمية . فانك توحى الثقة العامة .

« أجب نداء هذه الآمال الحارة . وتناول هذه الأيدى التى بسطت إليك فاجعلها تصافح بعضها بعضاً . . . لأن الأمم إذا وجدت أنها خذلت فى هذه الوساطة فانها ستتفرق وتهيم فى فوضى ثم لا بد أن تتحطم فى الشطط . وعندئذ تنغمس الشعوب فى الدماء وتنكفئ الأحزاب القديمة إلى رجعية دموية . . . أيها الوارث لجورج واشنطون وإبراهام لنكولن هلم إلى الراية وهى ليست راية حزب أو راية أمة وإنما هى راية العالم كله . وادع نواب الشعوب إلى برلمان البشرية . وارأس أنت هذا البرلمان بالسلطة الكاملة التى هى حقك لمالك من وجدان روحى سام ، ولما لأمريكا من مستقبل عظيم . تكلم . تكلم إلى الجميع . لأن العالم متعطش إلى صوت يعلو ويغمر تخوم الأمم وطبقاتها . كن الحكم للأمم الحرة ، حتى يعرفك المستقبل بأنك كنت المصالح . . . »

وليس شك فى أن مبادئ ولسون الأربعة عشر كانت من أكبر العوامل لثورتنا فى ١٩١٩ . وكان ولسون يحاول تغيير العالم ، وكان يؤمن برسالته فى جد وشرف . ولكن الرجل فى شرفه وسذاجته لم يقدر عتوّ اللؤم والخسة

فى الامبراطوريين : كليمنصو رئيس وزارة فرنسا ، ولويدجورج رئيس وزارة بريطانيا .
فقد سايره هذان الاثنان وأوهماه بالموافقة التامة على مبادئه كى يلقى بكل القوة الأمريكية فى كفة الحلفاء ضد ألمانيا . حتى إذا تم الانتصار بفضل هذه القوة للانجليز والفرنسيين تنكر هذان الاثنان له . وكان من الفكاهات التى يتنادر بها الفرنسيون فى حمق ورعونة قول كليمنصو وقت المفاوضات : إننى فى مأزق ، فعن يمينى نابليون وعن يسارى المسيح . وهو يعنى بنابليون لويد جورج فى زعمه أنه بطل ، وبالمسيح ولسون فى زعمه أنه مصلح للعالم . ونحن الآن فى ١٩٤٧ عندما نذكر هذه المفاوضات فى ١٩١٩ ندرك أن ولسون لم يكن فقط الرجل البار بالبشر بل كان أيضاً الرجل البصير . أما هذان الاثنان فكانا أحمقين ، طربا للانتصار ورضيا بالنظر القصير . ولو أن مبادئ ولسون عمت العالم لما وقعت الحرب الكبرى الثانيـة .

وعلى كل حال ربح العالم من ولسون « عصبة الأمم ». وصحيح أن الامبراطوريين من الانجليز والفرنسيين أفسدوها وأحالوها إلى هيئة ميتة عندما أيقنوا أنها تعارض المذهب الامبراطورى . ولكن هذه العصبة نبهت الأذهان ، وبقيت ماثلة أمام العالم نحو عشرين سنة وهى تشهد ، حتى بضعفها وفشلها ، على ضرورة إقامة منظمة عالمية تشرف على مصالح البشر . وقد كانت هى الباعث بعد ذلك لايجاد « منظمة الأمم المتحدة » و « مجلس الأمن » .

والحق أن هاتين الحربين قد أنجبتا بطلين عالميين فقط ، كلاهما أمريكى هما ولسون وروزفلت . وكلاهما دعا دعوة عالمية فعبر عن أسمى الأمانى وأنضر الآمال فى السلام والعدل والشرف بين البشر . وفى العالم الآن ثقافة عالميـة بشرية جديدة تختمر . وعن قريب ستتبلور . ثم سوف تتجوهر مبادئ عامة نؤمن بها جميعاً ونقول بها إن هذا الكوكب هو وطننا ، هو قريتنا التى يجب أن نجوب شوارعها ونعرف أزقتها ، فى القطب الشمالى أو جبال هملايا فى الصيف ، وفى صحارى أفريقيا أو آسيا فى الشتاء . وطن عالمى جديد كبير يلغى هذا العالم المجزأ أو هذه الأوطان القديمة .

وكثير من الفضل فى هذا الاتجاه يعزى إلى ولسون وروزفلت .

سلامه موسى

الصحافة فى عصر اسماعيل

حقائق وذكريات مطوية

كان عصر اسماعيل على قصره من أحفل عصور مصر الحديثة بالحوادث والتطورات السياسية والاجتماعية ، وكان أهم ما يميز هذا العصر تعدد نواحيه ، وتنوع اتجاهاته ؛ ففيه تمتد النهضة إلى سائر النواحي ، وتتغلغل فى مختلف جوانب الحياة العامة . وكانت النهضة الأدبية والثقافية التى وضعت أسسها فى عهد محمد على ، وألفت ميدانها الخصب فى مختلف البعوث العلمية والأدبية ، قد أخذت تتفتح وتزدهر . وحفل عهد اسماعيل بجمهرة من الأدباء والكتّاب الذين درجوا فى مهادها . وكانت الصحافة الشعبية تبدو يومئذ بدعة أدبية محدثة تتأهب لأن تخطو خطواتها الأولى . ذلك أن الصحافة المصرية لبثت حتى عهد اسماعيل تتركز فى جريدة الحكومة الرسمية ، وهى الوقائع المصرية ، وتتركز حركة الطباعة والنشر فى مطبعة بولاق الأميرية . وكانت هاتان المؤسستان العظيمتان ، وهما أيضاً من غرس محمد على ، قد وهبتهما الحكومة فى عهد سعيد باشا لأحد الموظفين ، وآل أمرها إلى التدهور والخراب ؛ فشاء القدر أن يفتتح اسماعيل عهده بانقاذهما إذ قرر شراءهما ودفع ثمنهما من ماله ، وردّتا بذلك إلى حظيرة الرعاية الرسمية . ودل اسماعيل بهذا التصرف المحمود على ما يكنه نحو المنشآت العلمية من تقدير ، وهى عاطفة ظهر أثرها فيما بعد فى فرص ومناسبات عديدة .

وكان مولد الصحافة الشعبية المصرية فى بداية عهد اسماعيل ؛ ففى سنة ١٨٦٥ أنشأ الدكتور محمد على باشا البقلى والشيخ ابراهيم الدسوقى كبير مصححى المطبعة الأميرية مجلة اليعسوب الطبية ، فكانت أول صحيفة مصرية خاصة ظهرت بعد الوقائع المصرية ، ولكنها احتجبت بعد زمن وجيز .

وفى سنة ١٨٦٧ صدرت أول صحيفة أدبية سياسية إخبارية ، وهى جريدة وادى النيل التى أنشأها الشاعر الأديب عبدالله افندى أبو السعود ؛ فكانت أول

جريدة مصرية من نوعها ، وكانت تصدر فى شكل المجلة مرتين فى الأسبوع ، وكان لها مطبعة خاصة تقوم إلى جانب طبع الجريدة بطبع بعض الكتب الأدبية القديمة . واستمرت وادى النيل فى الظهور حتى عطلت بأمر الحكومة سنة ١٨٧٢ . وكان عبدالله افندى أبو السعود من نوابغ الكتاب والصحفيين ومن أنجب تلاميذ رفاعة بك وأرسخهم قدماً فى التحرير والترجمة ، وله عدة مؤلفات فى التاريخ وديوان شعر حسن ، وتولى فى عهد اسماعيل رياسة قلم الترجمة وتدريس التاريخ فى دار العلوم ، ثم عين قاضياً بمحكمة الاستئناف وتوفى سنة ١٨٧٨ .

ولما عطلت وادى النيل أنشأ محمد بك أنسى نجل عبدالله أبو السعود افندى مكانها جريدة « روضة الأخبار » ، ثم غير اسمها إلى « النيل » فى سنة ١٨٧٨ ، واستمرت تصدر بهذا الاسم حيناً .

وتلا جريدة وادى النيل فى الظهور مجلة « نزهة الأفكار » الأسبوعية أنشأها فى سنة ١٨٦٩ ابراهيم بك المويلحى ومحمد بك عثمان جلال ، وكلاهما من أساطين الأدب والبيان فى ذلك العصر ؛ بيد أنها لم تلبث أن عطلت بأمر الخديو بعد ذلك بقليل .

وفى سنة ١٨٧٠ ظهرت مجلة روضة المدارس الشهيرة . أنشأها العلامة على باشا مبارك وقت أن كان ناظراً للمعارف ، وكانت مجلة حكومية تتولى نظارة المعارف إصدارها والإنفاق عليها وتعنى بالشئون الأدبية والعلوم العصرية . وكانت فى هذا العصر الذى ازدهرت فيه النهضة الأدبية روضة حقة ، تحفل بثمار جمهرة من الأقلام البارعة ؛ وتولى رياسة تحريرها فى البداية العلامة رفاعة بك الطهطاوى يعاونه ولده على بك فهمى رفاعة ؛ وكان يساهم فى الكتابة فيها على باشا مبارك ، وعبدالله باشا فكرى ، والشيخ حسين المرصفى ، ومحمود باشا الفلكى ، ومحمد قدرى باشا ، وأحمد بك ندا ، والسيد صالح بك مجدى ، وعبدالله أبو السعود افندى ، والشيخ حسونة النواوى ، والشيخ حمزة فتح الله ، وغيرهم من أعلام البيان فى ذلك العصر . واستمرت روضة المدارس تصدر بانتظام ثمانية أعوام ، وكانت تصدر مرتين فى الشهر وتوزع على التلاميذ مجاناً ، وكان لها أثر كبير فى خدمة النهضة الأدبية فى ذلك الحين .

وصدرت فى الوقت نفسه مجلتان رسميتان للجيش المصرى ، تسمى إحداهما

«جريدة أركان حرب الجيش المصرى» ، والأخرى «الجريدة العسكرية المصرية» ؛ يتولى تحريرها ضباط الجيش ورجاله الفنيون . وصدرت مجلة «أركان حرب» شهرية فى سنة ١٨٧٣ واستمرت تصدر أعواماً ، وكانتا تطبعان فى مطبعة الجيش التى ضمت فيما بعد إلى المطبعة الأميرية .

وأنشأ سليم الحموى من الأدباء اللبنانيين النازحين جريدة بعنوان «الكوكب الشرقى» بالأسكندرية فى سنة ١٨٧٣ ، ولكنها لم تلبث أن احتجبت ، فأنشأ بعدها مجلة أسبوعية تسمى «الاسكندرية» فى سنة ١٨٧٨ ولكنها احتجبت بعد أعوام قلائل .

وقد كان اسماعيل يقدر بذكائه وبعد نظره ما للصحافة يومئذ من الأثر العميق فى تكييف الأفكار والاتجاهات السياسية والاجتماعية ؛ ولهذا لم يضن عليها بعطفه و إغداقه . بيد أنه يلاحظ أن الصحافة المصرية الحقيقية لم تكن قد نشأت يومئذ ؛ وبذا استأثرت بنفحات اسماعيل وصلاته طائفة من الصحف الأجنبية المحلية والخارجية .

وتدل الأوامر العالية والوثائق المختلفة التى استعرضناها فى هذا الشأن على أنه كانت ترصد كل عام فى عهد اسماعيل اعتمادات شتى لمعاونة الصحف ووكالات الأخبار الأجنبية فى كثير من العواصم الأوربية ، وكذلك لبعض مكاتبى الصحف . وكانت هذه الاعتمادات تصرف أحياناً بصفة ثابتة منتظمة ، وبعضها يصرف بدلا لاشتراك الحكومة فى عدد كبير من هذه الصحف ، والبعض الآخر يصرف كإعانات وهبات لأسباب وبواعث سياسية أو شخصية يصعب استجلاؤها .

فمثلا نقرأ فى إرادة صادرة لناظر المالية فى سنة ١٨٦٣ بأن يصرف المبلغ المرتب سنوياً لصاحب الجرنال المستقل البلجيكى (وهو فيما نعتقد جريدة *Indépendance Belge*) وقدره ستون ألف قرش من خزينة نظارة المالية ورفعها لطرف الديوان .

وصدر أمر المالية فى صفر سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) بصرف مبلغ العشرة آلاف فرنك مرتب الجرانيل المطالب بصرفه مسيو دومارتينو ، وكان يصرف سنويا مقدماً لأخيه يصرفه بمعرفته إلى جرانيل تليانى .

وصدر فى ربيع الأول سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) أمر للمالية بأن يدفع مبلغ

٢٣٨ ليره و ٦ شلنات قيمة سنوية (اشتراك) مائة نسخة من الجرنال المسمى المالية (وفى اعتقادنا أنه جريدة ***Finance***) من ابتداء ٢١ أكتوبر سنة ١٨٧٤ ، ومبلغ ١٣٦ ليره سنوية مائة نسخة من الجرنال المسمى رفيو لنفس المدة .

وصدر أمر فى ربيع الثانى سنة ١٢٩٢هـ (١٨٧٥م) بالموافقة على صرف مبلغ ثلاثين ألف فرنك ، صرفت إلى مسيو وينكر محرر جرنال لوفات هيرالد بالإستانة ؛ وصدر الأمر فى نفس التاريخ « برفع الاعانة السنوية التى كانت تدفع إلى جرنال فينانسه التليانى من خمسة آلاف فرنك سنوى إلى عشرة آلاف ، وذلك ابتداء من سنة ١٨٧٥ » .

وفى سنة ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م) صدر للمالية أمر « بصرف مبلغ ١٢٦,٧٥٠ قرشاً إلى مسيو ما كدن المكتاتب بلونده ما يعادل ١٣٠٠ ليره أسترلينية منها ألف ليره مرتبه سنة كاملة ، والباقى نظير مصاريف أجرى صرفها » .

وصدر فى نفس العام أمر « باعتماد مبلغ ١٩,٥٠٠ قرش قيمة ٢٠٠ ليره أسترلينية نظير مصاريف جرانيل بمدينة فينا مدة ثلاثة شهور مقدماً ابتداء من يوليو إلى سبتمبر سنة ١٨٧٦ ، تدفع إلى مسيو بلوم ناظر البنك النمسوى » .

ويتضح من مراجعة ميزانية الجرائد (أو مرتبات الجرانيل كما توصف) فى سنة ١٨٧٧ أن حكومة الخديو كانت تصرف مبالغ كثيرة إلى صحف أجنبية عديدة فى لندن وباريس وإستانبول وفينا وغيرها ، وأنها كانت تؤدى إلى وكالة رويتر إعانة قدرها ٢٤٦,٢٥٠ قرش وإلى وكالة هافاس إعانة قدرها ٢٣,١٠٠ قرش . وكان هذا منشأ الإعانة الرسمية التى استمرت من ذلك الحين تصرف إلى هاتين الوكالتين الشهيرتين ، والتى ما زالت تؤديها الحكومة كل عام إلى وكالة رويتر حتى يومنا .

كذلك كانت حكومة الخديو تدفع إعانات ضخمة للصحف الأجنبية المحلية ، . مثال ذلك أنها كانت تؤدى سنويا إلى صاحب جريدة « الفارد الكسندرى » ، وهو محام يونانى مبلغ خمسين ألف فرنك سنويا (نحو ألفى جنيه) مقابل اشتراكها فى عدد من نسخ الجريدة كان يرسل إلى دواوين الحكومة ، وذلك بمقتضى عقد لمدة خمسة أعوام ابتداء من يناير سنة ١٨٧٥ .

وكانت تصرف بعض الإعانات أيضاً إلى بعض الصحف العربية ، بيد أنها كانت تصرف على الأغلب إلى الأدباء النازحين . وكان اسماعيل فى سعة أفقه يشمل برعايته كل مشروع أدبى أو صحفى عربى ولو كان خارج حدود مصر . من

ذلك أنه صدر أمر للمالية فى سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥م) بصرف مبلغ ١٠٠٠ جنيه « إلى سليم افندى البستانى كدفعة من ثمن ألف مجلد من كتاب دائرة المعارف الجارى طبعه بطرفه ببيروت » . وقد رفعت هذه الاعانة فيما بعد إلى ثلاثة آلاف وخمسمائة جنيه نظير استلام الحكومة مائتى نسخة من الموسوعة المذكورة[1] وأنه كانت تؤدى إعانة سنوية إلى جريدة « الجنان » البيروتية التى كان يصدرها سليم افندى المذكور ، وأنه كانت تدفع إلى أحمد فارس الشدياق صاحب جريدة الجوائب إعانات مختلفة ، هذا عدا ما كان يدفع إليه نظير اشتراك الحكومة فى نسخ الجوائب وقد بلغ فى سنة ١٨٧٦ وحدها مبلغ ٣١,٥٩٠ قرش.

وورد فى ميزانية الصحف (مرتبات الجرانيل) فى هذه السنة ما يدل على أن مجلة روضة الأخبار المصرية لصاحبها محمد افندى أنسى كانت تستولى على إعانة قدرها ٢٧,٧٧٤ قرش ، وهى الجريدة المصرية الوحيدة التى ورد ذكرها فى قائمة الصحف التى تحظى بعون الحكومة[2] .

وقد يبدو أن فى هذه المبالغ الكبيرة التى كانت تخصصها حكومة الخديو لإعانة الصحف الأجنبية والمراسلين الأجانب نوعاً من الاسراف الذى امتاز به هذا العهد . ولكن يجب أن نذكر أن السياسة المصرية كانت تجتاز فى أواخر عهد اسماعيل مرحلة دقيقة ، وأن الخديو كان يحاول بهذه الهبات أن يتقى قدر الاستطاعة شر الدعايات المغرضة .

هذا وقد كانت كلمة جرنال وجرانيل تستعمل طوال القرن الماضى للاشارة إلى الصحف والصحافة ، وذلك منذ أنشئ ديوان « جرنال الخديو » فى أوائل عهد محمد على ، واستعملت أيضاً غير مرة للإشارة إلى « الوقائع المصرية » وظهرت فى كثير من الأوامر الرسمية المتعلقة بالصحف الداخلية والخارجية حتى قيام الثورة العرابية ، وكذلك استعملها قانون المطبوعات المصرى الصادر فى سنة ١٨٨١ ، واستعملت أيضاً فى الأوامر الرسمية كلمة الغازيتات إلى جانب كلمة الجرانيل ، واستعملت كلمة « صحيفة » فى أحيان قليلة ولكن بدون أن يكون لها نفس المعنى الصحفى الواضح الذى تدل عليه اليوم .

---

(١) هى « دائرة المعارف » التى وضعها المعلم بطرس البستانى والد سليم المذكور .

(٢) اعتمدنا فى تلخيص الأوامر المتقدمة على ثبت الاوامر الخديوية الذى أورده المرحوم أمين باشا سامى فى « عصر إسماعيل » .

ولم تظهر كلمة جريدة وجرائد بصورة منتظمة إلا فى أواخر القرن الماضى ، ثم تلتها كلمة صحيفة وصحف وصحافة ، بمعناها الحديث ، واختفت كلمة جرنال وجرانيل نهائيا من الوثائق الرسمية واللغة الثقافية الرفيعة ، وأضحت كلمة الصحافة ومشتقاتها هى الكلمة المفضلة اليوم .

وفى أواخر عهد اسماعيل وقع حادث صحفى ذو شأن هو صدور جريدة الأهرام ، وكان صدورها فى أوائل أغسطس سنة ١٨٧٦ بثغر الأسكندرية على يد منشئيها الأخوين سليم وبشاره تقلا اللذين نزحا إلى مصر قبل ذلك بقليل . وفى ملف الجريدة الرسمى بوزارة الداخلية صورة التصريح الصادر من الخارجية إلى ضبطية الأسكندرية فى يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٧٥ بالترخيص باصدار الأهرام ، وقد جاء فيه : « إنه تقدم انهى من الخواجه سليم تقلا يلتمس التصريح له بانشاء مطبعة حروف تسمى الأهرام بجهة المنشية بالاسكندرية يطبع فيها جريدة تسمى الأهرام تشتمل على التلغرافات والمواد التجارية والعلمية والصناعية والمحلية وألا تتعرض للمسائل البوليتقية . . . »

وصدرت الأهرام منذ يوم السبت ٥ أغسطس سنة ١٨٧٦ أسبوعية ، وكانت تصدر كل سبت فى أربع صفحات من قطع الصحف النصفى . ونمت الأهرام وتقدمت بسرعة ، وصدرت يومية بعد ظهورها بقليل . وغضب الخديو اسماعيل على الأهرام لتعرضها لبعض تصرفاته فأمر بتعطيلها والقبض على محررها سليم تقلا فى أوائل سنة ١٨٧٩ ، وتقديمه للمحاكمة . ولكن تدخل قنصل فرنسا فى الأمر انتهى بالعفو عنه والعدول عن محاكمته . واستمرت الأهرام تشق طريقها قدماً ، وهاجمت الثورة العرابية بعنف ، ثم عمدت بعد ذلك إلى معارضة الحكومة الخديوية وعطلت من أجل ذلك غير مرة ، بيد أنها استمرت فى طريقها ثابتة راسخة القدم ، ونقلت إدارتها إلى القاهرة منذ سنة ١٨٩٨ ، واشتد ذيوعها فى مصر والعالم العربى كله ، وأضحت اليوم من أعظم الصحف العربية نفوذاً وانتشاراً .

وفى أواخر سنة ١٨٧٧ ظهرت جريدة « الوطن » القبطية أسبوعية سياسية ، وكانت فى بداية أمرها مصرية وطنية النزعة وناصرت الثورة العرابية ، ولكنها جنحت فيما بعد إلى مقاومة الدعوة الوطنية التى يحمل لواءها مصطفى كامل و إلى مناصرة الانجليز ، وقامت بعد ذلك بدور لا يحمد فى إثارة النعرة الطائفية .

وصدرت فى نفس هذا العام بالقاهرة جريدة « مصر » الأسبوعية لصاحبها أديب إسحاق ثم عطلت بعد عامين . وأنشأ أديب إسحاق وسليم نقاش فى سنة ١٨٧٨ بالاسكندرية جريدة « التجارة » يومية سياسية ، وكان الشيخ محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغانى يخصانها ببعض رسائلهما ، ولكنها لم تلبث أن عطلت فى سنة ١٨٨٠ .

وفى نفس هذا العام الحافل بالنشاط الصحفى أعنى سنة ١٨٧٧ ظهرت بالقاهرة صحيفة من نوع خاص هى مجلة « أبو نضارة » الهزلية لمنشئها ومحررها الكاتب الاسرائيلى الفكه الشيخ يعقوب صنوع ، وكانت أول مجلة نقدية فكاهية من نوعها بمصر . وكان الشيخ صنوع إسرائيليا مصريا تلقى ثقافة واسعة فى مصر وأوربا ، وأنشأ فى سنة ١٨٧٠ أول مسرح عربى بالقاهرة بمساعدة الخديو اسماعيل ، ثم اتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ، واتفقا معه على أن يصدر جريدة عربية هزلية لانتقاد أعمال الخديو وحكومته ، فأصدر مجلة « أبو نضارة » وكان يحررها بلغة دارجة نصف عامية ، بأسلوب فكه لاذع ، وينشر فيها بريشته صوراً رمزية مسلية . وذاع أمر هذه المجلة بسرعة . وغضب الخديو لتطاولها على نقده ، فأوعز إلى قنصل إيطاليا بنفى صاحبها إذ كان محتمياً بايطاليا فأبعد عن القطر وسافر إلى باريس واستأنف هناك إصدار مجلته . وصدرت مجلة « أبو نضارة » فى باريس فى أغسطس سنة ١٨٧٨ ، ويعرضها محررها الكاتب الفكه فى عددها الأول على النحو الآتى : « رحلة أبى نضارة زرقا الولى من مصر القاهرة إلى باريز الفاخرة بقلم جيمس سانووا (يعقوب صنوع) محرر جريدة أبى نضارة زرقا الباهية والدة النظارات المصرية » .

وكانت هذه المجلة الفكاهية تصدر يومئذ أسبوعية مكتوبة بخط اليد ومزينة بطائفة من الصور الرمزية ومحررة بأسلوب فكه ممتع ، وبها محاورات بين شخصيات مختلفة بلغة دارجة مضحكة ولكن قوية لاذعة ، وفيها حملات مرة على الخديو وتصرفاته ، ونكت وأزجال بلدية ، ورسائل رمزية على لسان شخص يدعى الشيخ يوسف الشفعاوى يستعرض فيها مثالب الحكم القائم إلى غير ذلك من الحملات والدعايات المرة[1] . ومنعت أبو نضارة بالطبع من دخول مصر ولكن الشيخ صنوع كان يحتال فى تسميتها وإرسالها سرًّا إلى مصر ، فكان يسميها

(١) تحتفظ دار الكتب بمجموعة من أعداد « أبو نضارة » التى صدرت فى باريس .

بأسماء مختلفة مثل « أبو زمارة » « وأبو صفارة » و « الحاوى » . واستمر الشيخ صنوع فى منفاه يتابع الكتابة و إصدار الصحف التى تعنى بشئون مصر ، هذا عدا ما ينشره فى كبريات الصحف الفرنسية من مقالات ممتعة . ولما وقع الاحتلال الانكليزى اشتد فى الحملة عليه واشتهر فى باريس بين الشرقيين قاطبة ، وكان له فى قلوبهم منزلة رفيعة لرفيع ثقافته ولاذع دعابته . وتوفى فى باريس سنة ١٩١٢ وكان مجهوده فى الصحافة الرمزية والهزلية أول مجهود من نوعه فهو المؤسس لهذا النوع من الصحافة بمصر .

وكان يصدر فى عهد اسماعيل بمصر عدة صحف أجنبية فى مقدمتها جريدة « الفار دالكسندرى » *Le Phare d'Alexandrie* التى أنشئت بالاسكندرية سنة ١٨٧٤ ، وجريدة « البروجريه اجيبسيان » *Le Progrès Egyptien* وهى من الصحف المعارضة لإسماعيل ، وجريدة الريفورم ثم الاجيبشيان غازيت ، وقد ظهرت بالاسكندرية منذ سنة ١٨٧٨ . وكانت تصدر بالقاهرة جريدة « البوسفور المصرى » *Le Bosphore Egyptien* صدرت أولا بالفرنسية ثم نشرت فيما بعد قسما بالعربية للدعاية لفرنسا ، وما زالت توالى الصدور حتى عطلت سنة ١٨٨٥ . كذلك كانت تصدر باليونانية أكثر من جريدة فى الثغر والقاهرة . وكانت هذه الصحف الأجنبية على الأغلب حرباً على مصر وعلى الخديو وحكومته ، وكانت شديدة التعصب للمصالح الأجنبية ، وقد لعبت فى تعكير الجو بين مصر والدول الأجنبية دوراً لا يحمد .

هذا استعراض سريع للحركة الصحفية فى عهد اسماعيل . ومما يلفت النظر أن الصحافة المصرية الوليدة التى نشأت مع بداية هذا العهد ، قد استطاعت أن تصل فى أواخره فى ظرف خمسة عشر عاماً فقط إلى ذلك المدى من التعدد والقوة والنفوذ . ولكن الطموح من خواص عصر اسماعيل ، وقد كان الجديد فى كل شىء يسير نحو التقدم فى وثبات سريعة .

محمد عبد الله عنان

CONDORCET

ALEXANDRE KOYRE

كوندرسيه

منذ ١٥٠ عاما مات فى سجن بور - لا - رين جان أنطوان نيقولا كاريتاس ، مركيز كوندرسيه سابقا والسكرتير الدائم لأكاديمية العلوم وعضو الأكاديمى فرانسيز وممثل الشعب فى المؤتمر الوطنى ، وكان قد أدين وصدر الأمر بالقبض عليه من تلك الجمهورية الفرنسية ذاتها التى كان هو بين أوائل من تمنوها وطالبوا علنا بتأسيسها ، وبذهابه ذهب عصر بأكمله .

وصدق بريور[1] حين عبر خير تعبير إذ قال : « يشغل كوندرسيه مكانا فريدا فى تاريخ الفكر الفرنسى . فهو آخر « الفلاسفة » والوحيد منهم الذى اشترك اشتراكا فعليا فى الثورة . ولم يضع مذهبا خاصا به حقا ، وإنما جمع كل نظريات سابقيه . وإننا لواجدون لديه آراء من فولتير ومن روسو ومن تورجو ومن هلفيسوس ومن كوندياك ، وقد تشكلت شيئاً فشيئاً فى وحدة منسجمة آخر مايعبر عنها كتابه « الوجيز » وهو نوع من الملخصات الفلسفية للقرن الثامن عشر[2] .

وليس للقرن الثامن عشر ولفلسفته سمعة طيبة ، فهى بما فيها من مزيج من العقلية الديكارتية ومن المذهب التجريبى الحسى[3] تبدو آخر الأمر متناقضة غير ثابتة . فما يؤخذ عليها ، ومما أخذ عليها بصفة خاصة فى القرن التاسع عشر ، أنها فلسفة متطرفة فى فرديتها ، سطحية فى مذهبها العقلى ، ساذجة فى تفاؤلها . كما أخذ عليها إنكارها للحقائق العميقة ، وعلى الأخص إنكارها للتاريخ وإيمانها بالتقدم .

---

(١) راجع كوندرسيه : ملخص لوحة تاريخية لتقدم العقل الانسانى . طبعة بريور ، باريس ، بوفان ، ١٩٣٣ . المقدمة .

(٢) كانت حياة كوندرسيه رجل الرياضة والاقتصاد والفلسفة والسياسة ، ملخصا لكل وجوه التطور الفكرى فى القرن الثامن عشر وللتحول من النظريات إلى الواقع والعمل .

(٣) فيما يتعلق بالمذهب الديكارتى فى القرن الثامن عشر عموما ولدى كوندرسيه خاصة راجع كتاب ف . بوييه : تاريخ الفلسفة الديكارتية ، مجلد ٢ ص ٦٤١ .

وليست كل هذه المآخذ خاطئة . فمما لا شك فيه أن فلسفة القرن الثامن عشر قد تبدو قليلة العمق ، قليلة الحياة بالقياس إلى ما سبقها أو ما لحقها من مذاهب فلسفية كبرى . ومن المؤكد أيضا أن القرن الثامن عشر قد تفاءل أكثر من اللازم ، وقد آمن بقوى العقل أكثر مما يجب ، وأنه أخذ مأخذ الجد ذلك التعريف القديم للانسان بأنه حيوان عاقل . وأنكر قوة العناصر اللاعقلية ، أو بتعبير أدق أنكر الأساس اللاعقلى لطبيعة الانسان . كما أنه لم يعترف بالأهمية الاجتماعية والدور الرئيسى لما كان يدعوه الآراء السابقة (أى الآراء الصادرة دون فحص) ، وباستغراقه فى العمل على هدم بعض « الآراء السابقة » السائدة فى ذلك الوقت (الآراء السابقة الاجتماعية والدينية) مستخدما نور العقل ، تراه قد قلل من تقديره لقوتها وغاب عنه أن الانسان قادر على أن يستبدل بالآراء السابقة المنهدمة ، « آراء سابقة » جديدة . وهذه المآخذ حقة ، ولكنها فى رأيى أقل خطورة مما يقال وبالأخص مما قيل [1] ولا يجدر أن تؤدى بنا إلى نسيان أن فلسفة القرن الثامن عشر قد أقامت مثلا أعلى إنسانيا واجتماعيا وأن ذلك المثل سيبقى أمل الانسانية الأوحد . ولقد رأينا ما تخسره فلسفة القرن الثامن عشر إن تركت الحرية والمساواة والاخاء فى سبيل الرغبات العميقة لطبيعة الانسان اللاعقلية . . إن ما يفسر قلة التقدير التى هبط إليها القرن الثامن عشر ، هو أنه قد انهزم [2] والهازمون هم الذين يكتبون التاريخ . وإن ممثلى الرجعية ، الرجعية الرومانطيقية ، والرجعية الرومانطيقية الألمانية بنوع خاص ، هم الذين حددوا أحكامنا التاريخية بل هم الذين عينوا لنا معنى التاريخ . وهم أيضاً الذين أقنعونا أن القرن الثامن عشر قد أنكره .

ويبدو لى أنه ما من خطأ أعظم من الزعم بأن القرن الثامن عشر قد أنكر التاريخ ، وهو زعم لا يمكن الدفاع عنه إلا بالموافقة على المعنى الرومانطيقى للتاريخ . فاذا لم نفعل ذلك وجدنا أننا على العكس مدينون

---

(١) يبدو أن تغيرا فى الرأى قد حدث مؤخرا . راجع مؤلفات جـ . ر . كاريه «فونتنل أو بسمة العقل» باريس ١٩٣٢ ، و«تركيب ڤولتير الفيلسوف»، باريس ١٩٣٨ . وراجع أيضاً ا . كاسيريه : *Die Philosophie der Aufklärung*, Tübingen, 1932.

(٢) راجع Bréhier, *Histoire de la Philosophie*, Vol. 2, Paris.

للقرن الثامن عشر ، مدينون لمونتسكيو[١] ولفولتير[٢] ولمونتيكلا ولجيبون باكتشاف التاريخ أو إذا شئت بالكشف عنه ثانية ، كما أننا مدينون للقرن السابع عشر ، مدينون لسبينوزا ، وبيل ومابيون باكتشاف المعرفة التاريخية والنقد التاريخي .

ومما لا شك فيه أن رجال القرن الثامن عشر لم تكن تنطوى قلوبهم على احترام وعبادة وتقديس للتاريخ كما سيفعل الرومانطيقيون .

ومما لا شك فيه أيضاً أنهم لم يقدسوا المعرفة التاريخية ، وأنهم كثيراً ما كانوا يجهلون تفاصيل الماضى (بل أكثر من التفاصيل) . ذلك لأنه لم يكن لهم ما كان للرومانطيقيين من حنين إلى الماضى وألم عليه . وإنما على العكس كانت أبصارهم متجهة إلى المستقبل . والتفكير الرومانطيقى (وكل مذهب تاريخى قد ورث شيئاً من التفكير الرومانطيقى) تفكير «نباتى» ، كما يقول بحق جوستاف هو بنر وهو يعمل فى حيز سام مستخدماً استعارات عضوية وبالأخص استعارات نباتية . فتراهم يتكلمون عن النمو والجذور ، ويقارنون بين المؤسسات التى تكونت نتيجة لنمو طبيعى natürlich gewachsen وتلك التى تكونت صناعيا kunstlich gemacht . أى إنهم يواجهون عمل الجماعات الانسانية الذى تم بطريقة لاشعورية وغريزية بعملها الشعورى الارادى ، أى يقارنون بين التقليد وبين التجديد الخ ...

وهذا الفهم للتاريخ أو هذا الاتجاه الذى ينظر إليه كأنه شىء ينمو بطريقة شبه ذاتية والذى لا يرى فى الانسان عاملا مؤثرا وإنما يعده محصولا للتطور التاريخى وللقوى اللاشخصية فيه أو للقوى التى تمر به ، هذا الاتجاه لا يرتبط بالضروة بفلسفة سياسية أو بفلسفة تاريخية رجعية ؛ فليس النمو جمودا ، وليست الشجرة جذراً ولا الزهرة برعما[٣] . . .

ولكن النمو النباتى عملية بطيئة ، وفى الغالب ما يحتفظ النبات فى صورته

(١) إن مونتسكيو هو الذى أعطانا فكرة القوانين التاريخية المتغيرة والخاصة بمختلف الصور الاجتماعية للجماعات الانسانية .

(٢) لقد جدد كتابا : «قرن لويس الرابع عشر» ، «بحث فى العادات» تأليف التاريخ تجديداً تاما .

(٣) إن الفلسفة الهيجلية للتاريخ ، وهى التى تنظر إليه باعتباره عملية نمو ذاتى وتكوين ذاتى للعقل ، تدعو فى نفس الوقت ، إلى تفسير محافظ وإلى تفسير ثورى .

الجديدة بصورته القديمة . وكذلك ترى فى المذهب الرومانطيقى اتجاها إلى المحافظة بل إلى الرجعية . ولما للتقاليد من قيمة كبيرة لدى الرومانطيقيين تجد مذهبهم يؤدى إلى معارضة التغيير وإلى السمو بالماضى بل إلى تخيل الكمال فيه . . .[1] ومهما يكن من أمر فيكفينا القول بأن فهم الرومانطيقيين للتاريخ يتضمن رفع قدر الماضى ، ذلك الماضى الذى يتحقق فى الحاضر ويمتد إلى المستقبل .

والأمر جد مختلف فيما يتعلق بفهم فلاسفة القرن الثامن عشر للتاريخ . فليس التاريخ لديهم قوة لاشخصية تتحقق فى الدنيا ، وإنما هو على العكس محصول عمل الانسان ونشاطه الذاتى . وليس التاريخ شيئا يصنعنا وإنما هو شئ نصنعه نحن ، أى إنه جماع ماصنعه الناس وما يصنعونه وما سيصنعونه أو ما سيستطيعون صنعه . ونتيجة لهذه النظرة العملية ، تجد المؤرخ لايرنو ببصره إلى الماضى وإنما يتطلع إلى الأمام ، ويرى أنه ما من شئ أجدر بأن يقص ولا أقمن بأن يدرس من تاريخ التقدم ، أى تاريخ تحرر العقل الإنسانى تدريجيا ، تاريخ كفاحه قوى الجهل والخرافات التى تكبته أو التى كبتته ، تاريخ النصر الذى ناله الإنسان شيئا فشيئا باستيلائه على قوى النور والحرية .

والتاريخ بهذا المعنى يبدو لنا كأنه تاريخ كفاح ، تاريخ معركة ضد القوى اللاعقلية التى تعوق تقدم الإنسان ، تاريخ الثورة على الماضى فى سبيل المستقبل . وإذن فلا يجب الاحتفاظ بآثار الماضى ولابالتقاليد والعادات البالية بل يجب على العكس هدمها فى أغلب الأحيان . ومن هنا يدخل التاريخ — أو على الأصح المؤرخ — فى المعركة . فهو عند ما يكشف عن الأصل البسيط للتقاليد وللمعتقدات المقدسة المبجلة يرينا عدم جدواها فيقتلعها من جذورها ، ويمهد الأرض ويهيئها لبناء جديد ، بناء سيؤسس على العقل فى هذه المرة .

وإنه لمن مفاخر فلسفة القرن الثامن عشر أنها لم ترد تفسير الدنيا فحسب وإنما أرادت تغييرها أيضاً . بل كانت تؤمن أنها قادرة على تغيير الدنيا بتفسيرها ، أو بعبارة أخرى كانت تعتقد أنه يكفى أن تبين للناس أين تستقر

(١) ومثال ذلك السمو بالعصر الوسيط واعتباره مثلا أعلى .

الحقيقة وأين يكون الخطأ حتى يسيروا — ولا محيص لهم عن ذلك — نحو الحق . وكانت تشعر أن التاريخ يؤيدها فى إيمانها بقوة الحقيقة والعقل ، ويبين لنا كوندرسيه أن الإنسانية قدحققت رقيًا دائمًا رغم العقبات التى كانت تعوق سيرها إلى الأمام . أوليس من الحق أن سير التقدم منذ زمن ما ، منذ اختراع الطباعة ومنذ الثورة التى شنها ديكارت ، قد زاد بشكل جد محسوس ؟ أوليس من الحق أن انتصار النور فى أيامنا فى الحضارتين العظيمتين الفرنسية والانجليزية ، يبدو كأنه قد حمانا من خطر الانتكاس كما حدث فى سالف الأيام عند ما أعقبت بربرية القرون الوسطى الحضارة اليونانية العظيمة الباهرة[1] ؟

وهكذا نرى أن تفاؤل كوندرسيه إنما هو تفاؤل مبنى على العقل وعلى التجربة . وليس التقدم شيئاً مقدرا لابد منه ، ولكن تاريخ الإنسانية يبين لنا حقيقته . أوليس من المعقول أن نعترف بأن الإنسانية ، التى عرفت كيف تحصل على الحرية العقلية ، وعلى الحقيقة العلمية ، بل الحرية السياسية لن تدع هذه الغنائم تفلت من يديها ولن تتحول عن نور العقل[2] ؟

ولن نحاول هنا ان نعرض لكتاب كوندرسيه « الوجيز » ، ولا أن نحلل فى تفصيل « العصور » وهى الدرجات المتتابعة التى ارتقى عليها الإنسان ليصل من البساطة الخشنة فى حياته البدائية إلى نور الحضارة العلمية والحرية السياسية . وحسبنا أن نعلم أن كوندرسيه يقسم تلك العصور إلى عشرة ، وأنه يعد ديكارت خاتم العصر السابع الذى يمتد « من اختراع الطباعة حتى ذلك العهد الذى استطاعت فيه العلوم والفلسفة أن تتخلص من نير السلطة » . ويقول إن العصر التاسع يمتد « من ديكارت حتى تكوين الجمهورية الفرنسية » وأن العصر العاشر يشمل « تقدم العقل الانسانى فى المستقبل[3] . »

والمكان الذى عينه كوندرسيه لديكارت مكان مميز حقا . ولم يكن ديكارت

(١) وتلك نبوءة حقة ، لأن انتشار النور والمبادىء الديمقراطية فى البلاد التى تتكلم الفرنسية والانجليزية ، هى التى انقذت العالم من انتكاس يرجعه إلى البربرية .

(٢) لم يتنبأ كوندرسيه بذلك الاندفاع نحو العبودية ، وبذلك البعد عن التفكير الانسانى الذين نراهما فى أيامنا .

(٣) معرفة الطبيعة وقوانين العقل الانسانى تمكننا ، فى رأى كوندرسيه من معرفة تطورات المستقبل فى مجموعها ، لا فى تفاصيلها بالطبع .

العقلية الوحيدة التى زعزعت نير السلطة ، فقد سبق « أن كشف باكون Bacon عن الطريقة الحقة لدراسة الطبيعة ولاستخدام الأدوات الثلاث التى وهبتها لنا لنتعمق أسرارها ألا وهى الملاحظة والتجربة والحساب . . . ولكن باكون — وهو الذى امتلك ناصية الفلسفة إلى حد بعيد — لم يجمع بينها وبين العلوم ، وأعجب الفلاسفة بطرقه لاكتشاف الحقيقة التى لم يعط عنها أى مثل — ولكنها لم تغير قط من سير العلوم .

«لقد سبق لجاليليو أن زاد تلك الطرق باكتشافاته المهمةالباهرة . وكان ، على سبيل المثال ، قد علم الناس الوسائل التى تسمو بهم إلى معرفة قوانين الطبيعة ... ولكنه وقد اقتصر فقط على العلوم الرياضية والطبيعية لم يستطع أن يطبع فى عقول الناس تلك الحركة التى كانوا ينتظرونها .

« ولقد بقى ذلك الشرف ليحرزه ديكارت الفيلسوف العبقرى المقدام . ولقد أوتى عبقرية عظيمة فى العلوم ، وجمع بين القول والفعل حين أبان لنا النهج لايجاد الحقيقة ومعرفتها . . . وكان يريد أن يمد طريقته ليستخدمها فى كل نواحى العقل الانسانى ، فكان الاله والانسان والكون ، على التوالى ، موضوعا لتأملاته . . . وكان إقدامه ، حتى فى الخطأ ، معوانا على تقدم النوع الانسانى ، ومحركا للعقول التى لم تستطع حكمة منافسيه أن توقظها . وطلب إلى الناس أن يرفعوا عن كاهلهم نير السلطة وألا يعترفوا إلا بما يمليه عليهم العقل . ولقد لقى آذانا صاغية لأنه استخدم إقدامه وحماسته . ولم يتحرر العقل ولكنه علم أن تكوينه يعده لذلك ... ومنذ ذلك الحين استطاع الناس أن يتنبأوا أن أغلال العقل لا بد محطمة عما قليل[1] . »

وكبار العباقرة الذين بزغوا فى العصر التاسع ، ذلك العصر الذى سمح فيه أخيرا باعلان حق طالما أنكر ، ألا وهو حق إخضاع كل الآراء للعقل ، أى استخدام الوسيلة الوحيدة التى منحناه لفهم الحقيقة ومعرفتها[2] ، هم فى رأى كوندرسيه — نيوتن الذى يرجع إليه الفضل فى أن يعرف المرء أخيرا ولأول مرة

---

(١) أنظر *Essai* ص ١٤٣ .

(٢) ص ١٥٩ من *Essai* : لقد تعلم الناس أن الطبيعة لم تكتب عليهم أن يؤمنوا بكلام الآخرين . وهكذا اختفى من الجماعة الانسانية التطير القديم ، وخضوع العقل أمام المعجزات ، اختفى ذلك من الجماعة الانسانية كما اختفى من الفلسفة .

أحد القوانين الطبيعية للكون . . . وهو اكتشاف فريد ما زال للآن يعد مجدا لمن وجده[١] ، ثم «لوك الذى أبان أن التحليل المضبوط الدقيق للآراء — وذلك باختزالها إلى آراء أكثر قربا من الأصل وأكثر بساطة فى التكوين — إنما هو الوسيلة الوحيدة لكى لا نضل السبيل فى فوضى الأفكار غير التامة ، التى لاوحدة بينها ولا تحديد فيها ، والتى قدمتها لنا المصادفة بلا نظام وتلقيناها نحن بلا تفكير[٢] » ، ثم روسو الذى أصبح بفضله مبدأ المساواة الطبيعية بين الناس «وهو المبدأ الذى دافع عنه سدنى بدمه ، والذى أضفى عليه لوك قوة من اسمه .» أقول أصبح بفضله « فى عداد الحقائق التى لم يعد سبيل إلى إنكارها ولا إلى محاربتها[٣] » وكان ذلك العصر فى الواقع هو العصر الذى وصل فيه الكتّاب السياسيون إلى أن يعرفوا أخيرا حقوق الانسان الحق وإلى أن يستنبطوها من تلك الحقيقة الوحيدة ، وهى أنه كائن حساس قادر على التفكير وعلى اكتساب آراء خلقية .

« ولقد رأوا أن الاحتفاظ بتلك الحقوق هو الغرض الوحيد من اجتماع الناس فى جماعات سياسية ، وأن الفن الاجتماعى يجب أن يكون فن الاحتفاظ بتلك الحقوق مع تحقيق المساواة التامة . ولما كان من الضرورى أن تخضع الوسائل لضمان حقوق الأفراد لقواعد عامة ، وجب لذلك ألا تكون السلطة فى اختيار تلك الوسائل ملكا لأحد اللهم إلا لكثرة الأعضاء فى الجماعة . لأن أى فرد لن يستطيع أن يتبع رأيه الخاص فى ذلك الاختيار دون أن يخضع الآخر له ، فرغبة الكثرة هى وحدها التى يمكن للجميع قبولها دون مساس بالمساواة[٤] .

« ويمكن كل شخص أن يتعهد مقدما بالانضمام إلى رأى الكثرة فيصبح رأيها رأى للكل . ولكنه لا يستطيع أن يضم إلا نفسه فقط . ولا يمكن أن

---

(١) فى نفس المؤلف ص ١٧٥ ، يذكر كوندرسيه اسم دالمبرت إلى جانب اسم نيوتن، ولو أنه يضعه فى مرتبة أدنى منه بكثير ، ودالمبرت هو مكتشف القاعدة التى تسيطر على كل أعمال الانسان .

(٢) نفس المؤلف ص ١٥٥ .

(٣) نفس المؤلف ص ١٥٢ .

(٤) من المهم أن نرى كيف يبعث كوندرسيه روح العقل فى مبدأ خضوع الفرد للكثرة فليس فى ذلك خضوع الارادة الخاصة للارادة العامة ، وإنما خضوع الرأى الفردى لرأى الكثرة .

يتعهد — حتى نحو تلك الكثرة — إلا بالقدر الذى لا تمس به حقوقه الشخصية المعترف بها .

« تلك هى حقوق الكثرة على الجماعة أو على أفرادها وحدود تلك الحقوق . وذلك أصل الاجماع الذى يلزم الجميع ماتراه الكثرة ؛ وهو إلزام تبطل مشروعيته عند ما ينتهى وجوده بتغير الأفراد . ومما لا شك فيه أن رأى الكثرة فى بعض الأمور كثيرا مايكون فى جانب الخطأ وضد المصلحة العامة . ولكن للكثرة — حتى فى هذه الحالة — أن تقرر الأمور التى لا يجب أن يرجع فيها رأسا إليها ؛ ولها أن تقرر من تنزل له عن حقها فى إبداء الرأى ، وأن تبين الطريقة الواجب عليهم اتباعها ليصلوا إلى الحقيقة بطريقة أسلم . وليس لها أن تنزل عن إبداء الرأى فى قراراتهم لترى أهى أضرت بالحقوق العامة للأفراد أم لا[1] .

«وهكذا اختفت إزاء هذه المبادئ البسيطة فكرة وجود عقد بين الشعب ورؤسائه ، ذلك العقد الذى لا يلغيه إلا اتفاق متبادل على إلغائه أو خيانة من أحد الطرفين المتعاقدين . كما اختفى أيضا ذلك الرأى ، الذى يعتبر أقل عبودية ولكنه ليس أقل خطأ من سابقه ، ألا وهو ربط الشعب بالدساتير متى أقرت ، كأن الحق فى تغييرها لم يكن أول الضمانات لسائر الحقوق ، وكأنما تلك المؤسسات تستطيع أن تعيش إلى الأبد ، وهى مؤسسات من صنع الانسان وهو عمل بالضرورة ناقص وقابل للتحسن كلما استنار الناس . وهكذا اضطر القوم إلى ترك السياسة الخادعة الخاطئة التى نسيت أن للناس حقوقا واحدة بطبيعتهم ، فأرادت حينا أن تحدد لهم الحقوق على حسب اتساع أراضيهم ، أو درجة الحرارة فى بلادهم ، أو صفاتهم الوطنية ، أو ثروة الشعب ، أو درجة تقدم التجارة والصناعة لديهم ؛ وأرادت حينا آخر أن تقسم تلك الحقوق تقسيما غير عادل بين طوائف الناس المختلفة وفقاً لأصلهم أو ثروتهم أو مهنهم ، وخلقت بذلك مصالح متعارضة وقوى متضادة لتقيم بعدئذ بينها توازناً أصبح وجوده ضروريا بموجب تلك المؤسسات ، ولكنه توازن لا يزيل أثرها الخطر[2] .

« وهكذا لم يعد يجرؤ أحد على تقسيم الناس إلى سلالتين مختلفتين ،

---

(١) ومن هنا ضرورة الخضوع لقرار أو لقانون يعتبره المرء خاطئا أو سيئا .

(٢) إنا لنرى هنا هوبز ومونتسكيو .

إحداهما لتحكم والأخرى لتطيع ، إحداهما لتَخدع والأخرى لتُخدع . واضطر القوم الى الاعتراف بأن للجميع الحق فى أن يتبينوا مصالحهم ويعرفوا الحقائق جميعا ، وبأنه ليس لأية سلطة — حتى التى أقامها الناس على أنفسهم — أن تخفى عنهم أية حقيقة[١] . »

هذه الصفحة الرائعة التى اقتبسناها آنفاً تلخص تلخيصاً وافياً معتقدات كوندرسيه بل إيمانه الديمقراطى الجمهورى . وليس ذلك إيمان كوندرسيه وحده ، وإنما هو إيمان القرن الثامن عشر بأكمله كما يقول لنا كوندرسيه نفسه ، إيمان ذلك العصر المجيد بين العصور جميعاً « عصر تكون أثناءه فى أوربا طبقة من الرجال وقفوا أنفسهم على متابعة الخرافات إلى معاقلها حيث أداها وحماها رجال الدين والحكومات والمدارس والنقابات القديمة . رجال وضعوا مجدهم فى هدم الأخطاء الشعبية ، أكثر مما اهتموا بتوسيع نطاق المعارف الانسانية ، وتلك طريقة لخدمة التقدم الانسانى ولو أنها غير مباشرة إلا أنها ليست أقل الطرق فائدة أو أقلها خطراً[٢] . »

كان حب الانسانية وبغض الظلم يملأ نفوس فلاسفة القرن الثامن عشر . ولهذا كونوا « جماعة فوق الأحزاب يربط أعضاءها رباط قوى ولمكافحة الأخطاء وكل أنواع الاستبداد . ولما كان شعور الصداقة العالمية يجمع بين أفرادها كانوا لذلك يكافحون الظلم حتى وهو ناء عن بلادهم لا يستطيع أن يصيبهم بأذى ، وحتى لو كان وطنهم هو المسىء إلى شعوب أخرى . ويقومون فى أوربا ضد جرائم الجشع التى تدنس شواطىء أمريكا وأفريقيا وآسيا[٣] . »

وأعلنوا « مذهباً جديداً كان جديراً أن يقضى القضاء الأخير على البقية الباقية من الخرافات : ذلك هو مبدأ قابلية تحسن النوع الانسانى إلى حد لا نهاية له . وهو مبدأ كان أشهر رسله ورواده هم : تورجو ، بريس ، بريستلى[٤] . »

---

(١) *Essai* ص ١٤٩ — ١٥١ .

(٢) نفس المؤلف ص ١٥٠ .

(٣) نفس المؤلف ص ١٦٥ . كان الفلاسفة يكونون جماعة من الكتاب لا تحون رأيها أبداً . ويرى كوندرسيه أن أجدرهم بالذكر هما فولتير وديدرو .

(٤) نفس المؤلف ص ١٦٦ . كان أثر تورجو فى كوندرسيه عظيما جدا ، فقد أخذ عنه آراءه الاقتصادية .

وكان كوندرسيه يضع ذلك المذهب فى العصر العاشر ، عصر تطور العقل الانسانى وعصر المستقبل . ولهذا مايسوّغه ؛ فان ذلك المذهب ، مذهب التقدم ، هو الذى يعبر خير تعبير عن النظرة الجديدة للتاريخ التى تكلمنا عنها آنفاً ، ألا وهى تفضيل المستقبل على الماضى ، وتفضيل العمل على الميراث ، والعقل على التقاليد .

وهذه النظرة هى التى بدت فى الحركتين العظيمتين : الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية ، وهما اللتان تمثلان أو تحققان — فى رأى كوندرسيه — نصر الفلسفة على الخطأ الشائع ونصر الحرية على الاستبداد .

ومن المهم أن نرى الطريقة التى يحكم بها كوندرسيه على الدور الذى قامت به كل منهما وعلى أهميتهما التاريخية . فالثورة الأمريكية قد أظهرت للعالم « لأول مرة شعباً عظيما قد تحرر من أغلاله ، وأقام لنفسه دستوراً وقوانين اعتقد أنها خير ما يوصله إلى السعادة » ، وهو دستور وقوانين « جمهورية أساسها الاعتراف الكامل بحقوق الانسان الطبيعية . » وكان الأمريكيون راضين عن القوانين المدنية والجنائية التى جاءتهم من انجلترا . ولم يكن لديهم نظام ضرائبى فاسد يستحق التغيير ، ولا استبداد إقطاعى ، ولا فروق وراثية ، ولا نقابات غنية قوية ذات امتيازات ، ولا نظام دينى عديم التسامح . ولهذا اقتصروا على إقامة سلطات جديدة بدلا من التى كانت الأمة البريطانية تمارسها لديهم[١] . »

ولهذه الأسباب كانت الثورة الأمريكية أقل كثيراً فيما أحدثته من انقلاب من الثورة الفرنسية التى جاءت نتيجة مباشرة حتمية لها .

« كان على الثورة فى فرنسا أن تهتم بالاقتصاد جميعه وأن تغير كل العلاقات الاجتماعية وأن تنفذ إلى آخر حلقات السلسلة السياسية . . .[٢] » ولهذا كانت الثورة الفرنسية ثورة حقيقية ، وبعثاً حقيقيا ، وبناءً جديداً للهيكل السياسى والاجتماعى . ولهذا يرى كوندرسيه أن « المبادئ التى بنى عليها الدستور

---

(١) نفس المؤلف ص ١٧١ . أما فى فرنسا فقد كانت القوانين المدنية والجنائية غاية فى السوء ، وكانت العدالة زائفة بسبب شراء الوظائف .

(٢) نفس المؤلف ص ١٧١ .

والقوانين فى فرنسا أكثر نقاء ودقة وعمقاً من المبادئ التى ألهمت الأمريكيين ... فقد كان تخلصها من آثار المعتقدات الشائعة أعظم . . . ولم تترك المساواة فى الحقوق مكانها قط لما يدعى المصلحة العامة وما هى فى الحقيقة إلا خدعة . . . وأقيم مبدأ تحديد السلطات بدلا من ذلك التوازن الذى لا قيمة له والذى طالما أعجب به البعض . . .[1] فلأول مرة وفى أمة عظيمة متفرقة بالضرورة ومنقسمة إلى العديد من المجالس المنعزلة ، جرؤ القوم أن يحتفظوا للشعب بحقه فى السيادة ، وبحقه فى ألا يخضع إلا للقوانين التى تصدر بموافقته المباشرة عن طريق ممثليه ، والتى لو مست حقوقه أو مصالحه فانه يستطيع تغييرها بما له من سيادة[2] .

وكان لا بد للثورة الفرنسية أن تكون ثورة جذرية (راديكالية) أو هى قد نجحت بالفعل فى أن تكون كذلك . وبفضل جذريتها هذه كان لها أهمية عظيمة جدا فى تاريخ الانسانية : فهى تختم تاريخ التحرير ، وتبدأ تاريخ الحرية . ففى الثورة الفرنسية وبالثورة الفرنسية استطاعت الانسانية أو استطاع العقل أن يمتلك زمام نفسه تماما . فمنذ ذلك الحين ، أصبح المرء سيّد نفسه، وسيّد عمله ، وسيّد مستقبله ، سيّد المستقبل الذى يعدّه هو ويقرره هو بمحض إرادته وفكره . ولهذا كان العصر العاشر من تاريخ الانسانية ، وهو العصر الذى ندخل فيه ، عصر تفضيل المستقبل ، أوكما يقول كوندرسيه عصر التقدم الذى ننشده بارادتنا .

تقدم فكرى وخلقى ، وكوندرسيه لايفصل أحدهما عن الآخر ، بل هو وكل معاصريه يعتقدون أن الفصل بينهما مستحيل ، وأن التقدم الفكرى يتضمن التقدم الخلقى ويهيء له . ولهذا تراه يرسم لنا صورة مشوقة لعالم متقدم فى الصناعة والطب والزراعة بفضل تقدم العلوم التى تجدد مناهجها باستمرار لتزداد تعمقا فى معرفة الحقيقة[3] عالم عمم التعليم ووضع للضرائب والتأمينات نظاما عادلا ، فتخلص بذلك مما كان فيه من تفاوت اجتماعى أساسه التفاوت فى

---

(١) وكتلميذ لروسو لا يرى كوندرسيه تقسيم السلطات ولا يوافق على اعجاب مونتسكيو بالدستور الانجليزى .

(٢) نفس المؤلف ص ١٧٢ .

(٣) برهن كوندرسيه على بعد نظر عظيم حينما أعلن أن محصول منهج علمى إنما هو شىء محدود وأن على العلوم أن تغير مناهجها باستمرار .

الثروات . . . عالم ترى فيه رجالا يدفعهم حب العدالة والحقيقة إلى أن يحملوا مشاعل النور إلى الشعوب التى ما زالت غارقة فى ظلمات البربرية [١] . . . عالم يختفى منه الرقّ أولا ، ثم ينعدم فيه استغلال شعوب المستعمرات ؛ لأن الناس سيجدون فى الشعوب الملونة إخوانا لهم ورجالا لهم حقوق مثل حقوقهم . . . وعندئذ ، لن تشرق الشمس فى ذلك العالم الرخىّ المسالم السعيد إلا على رجال أحرار لا يعترفون بسيادة عليهم اللهم إلا سيادة العقل . . . أما المستعبدون والعبيد ، ورجال الدين وآلاتهم من منافقين وأغبياء فلن ، يظهروا بعدئذ إلا فى التاريخ وإلا على خشبات المسارح . . . ولن يهتم أحد بهم إلا ليرثى لضحاياهم وللمخدوعين فيهم ، أو ليتحدث فى روع عن جرمهم ليبقى الناس على حذر وليعلمهم كيف يعرفون ويخمدون بقوة العقل بواكير ما قد يظهر من جراثيم التطير والاستبداد ، ذلك إذا اجترأت على الظهور مرة أخرى [٢] .

[يتبع] الكسندر كواريه

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

---

(١) شعوب المستعمرات وشعوب آسيا وغرب أوربا .
(٢) *Essai* ص ٢١٠ .

من فلسطين إلى السودان

جولة موظف بريطانى

قد لا تكون الكتب التى تبحث فى السياسة أحب الكتب إلىّ ، وقد لا أراها تجتذبنى وهى معروضة لدى بائعى الكتب ، كما تجتذبنى كتب الفنون والتاريخ . ولكن هذا الكتاب الذى أعرض له اليوم استرعى نظرى ، لابعنوانه فعنوانه الذى هو «جولة الواجب»[1] لا أجد فيه جاذباً خاصا ، ولكنه استرعى نظرى باسم مؤلفه سير ستيوارت سيمز . فهذا الاسم قد لا يكون غريباً علىّ وإن كنت نسيت أمره لأول وهلة ، ولكنى مالبثت أن تذكرت أنه حاكم السودان فى عهد قريب . وكلمة السودان فى هذه الأيام تثير شعور كل مصرى ، ولعلها تثير اهتمام غيره من العرب . لذلك لم يكن عجيباً أن أخذت الكتاب فى لهفة وعكفت على قراءته .

ليس للكتاب أهمية خاصة ؛ فهو لا يمتاز بأناقة فى الأسلوب ، ولا هو أخاذ بحسن السرد ، ولا بنظامه فى ترتيب الموضوعات . وإنما خير ما يمتاز به الكتاب صراحة صاحبه ؛ فالرجل ، كما تستبين من كتابه ضيق الأفق فى السياسة ، لا يسائل فيما يؤمر أن ينفذه فى عمله ، ولكنه واسع الحيلة فى تنفيذ هذه السياسة ، يعرف كيف يصل إلى غرضه ، يساعده على ذلك اعتدال فى طبعه ، وصراحته أو مظهر صراحته ؛ فهو يرى فى هذه السياسة واجباً يؤديه ، لذلك أسمى كتابه « جولة الواجب » .

كانت حياة ستيوارت سيمز سلسلة منتظمة من أداء الواجب ، منذ التحق بخدمة حكومته ضابطاً صغيراً بالهند فى أول هذا القرن ، إلى أن ترك هذه الخدمة حاكماً للسودان فى سنة ١٩٤٠ . ويظهر أن حكومته عرفت فيه الاخلاص للواجب ، كما عرفت فيه خير من ينفذ سياسة من السياسات بدون مساءلة أو

(١) *Tour of Duty*, by Sir Stewart Symes. Collins, London, 1946.

تردد ، فصار ينتقل من عمل إلى عمل ويترقى من عمل أصغر إلى عمل أهم ، حتى استطاع أن يشغل عملين نرى أنهما فى المكان الأول من الأهمية : أولها عمله بفلسطين بين سنتى ١٩٢٠ ، ١٩٢٨ ، حين كان حاكماً لإحدى المقاطعات فى السنوات الأربع الأولى ، ثم سكرتيراً عاما بالقدس فى السنوات الأربع الأخيرة . أما العمل الثانى الذى له أهمية كبيرة فهو منصبه حاكماً للسودان بين سنتى ١٩٣٤ ، ١٩٤٠ ، ثم اعتزل العمل ، وظل ست سنوات فى عزلته حتى أخرج لنا كتابه ، الذى أردنا أن نعرض بعض صوره ، ناقلين آراءه فى هذا ، وفى بعض الأحيان عباراته نفسها .

فى هذا الكتاب نجد صوراً عن حياته الأولى فى السودان وفى غير السودان كبلاد الهند ومصر . وفيه نرى ذكراً لكتشنر وأيامه فى السودان ، وكرومر وونجت وسير غورست الذى خلف كرومر ممثلا لبلاده فى مصر . ونجد وصفاً لمصر فى عهد وزارة مصطفى باشا فهمى ، ووصفا لمن فيها من شخصيات بارزة . ولكنه فى ذلك الحين كان أقرب إلى المشاهد منه إلى الرجل الذى يشترك فى تسيير الأمور . أما فى فلسطين ، لا سيما فى الفترة التى شغل فيها منصب السكرتير العام الادارى ، فقد كان مسئولا عن تنفيذ سياسة مرسومة ، وكان هو يعلم ذلك حق العلم ، ويعلم أن حكومة تلك البلاد تمثل فى صورة مصغرة جميع المشاكل التى تعترض بلاد الشرق والغرب معاً . ولقد عهد إليه بين سنتى ١٩٢٠ ، ١٩٢٥ فى إدارة مقاطعة تمتد من الخليل إلى سمره . ولم يكن هذا الاقليم معقد المشاكل مثل إقليمى القدس ويافا ، على أن فيه ميناء كبيراً ، هو حيفا ، وبلدة نامية هى نابلس ، وأهله مزيج يغلب فيه المسلمون ، وقد قامت بينهم الحركة الصهيونية فرأوا فيها نذيراً ، وتغلبت على ما عداها من اختلافات محلية .

وكان الموظفون الاداريون على الغالب غير خبراء بأعمالهم ولكن كانت عند كل منهم الرغبة فى العمل . وكانوا يتلقون تثقيفهم على يد الجمهور ، وعلى يد رؤسائهم .

وكان المندوب السامى عندئذ سير صموئيل هور وهو إسرائيلى ، وصادف أن النائب العام كان إسرائيليا أيضاً ؛ فكان العرب يشكّون فى عدم تحيز الحكومة . وقد حدث فى ذلك الوقت أن أريد عقد اجتماع للغرف التجارية فى حيفا يرأسه المندوب السامى ، ورأى العرب مقاطعة هذا الاجتماع ، فالتجأ المؤلف إلى أحد

أصدقائه من العرب المتحمسين ، وعمل على إقناعه حتى وافق على أن يحمل زملاءه على الحضور ، ولم يفعل ذلك إلا رغبة فى إرضاء صديقه .

وانتهت مدة خدمة سير صموئيل هور ، كما نقل عندئذ ألبرت كليتون الذى كان سكرتيراً عاما لحكومة فلسطين ، فاذا بسيمز يعين فى مكانه ، ولم يكن ينتظر هذا التعيين . وظل ثلاثة أشهر يحكم البلاد ، إلى أن حضر المندوب السامى الجديد ، وهو فيلد مارشال لورد بلومر . وكان يومئذ فى السبعين من عمره ، يدل مظهره على النشاط والعزيمة ، وفى عينيه بريق أشبه ببريق الشباب ، وكان يسأل عن الأمور ، ولكنه على غير عادة الحكام كان يصغى إلى الجواب فى اهتمام .

وقد أراد سيمز أن يتركه وشأنه حتى يصدر حكمه على عمله الجديد . فاذا به بعد أيام شاقة يقول إن هذه البلاد لا تخلو مما يسترعى النظر . وكان سيمز قد انتدب ليحضر اجتماع جمعية الأمم ليتكلم عن الانتداب . وجاءت وفود العرب واليهود يقابلون المندوب السامى ، كل يدلى بآرائه ، فاذا بالمندوب يقول لسيمز بعد مقابلة هذه الوفود إن كلا منهم ينتظر أن تمثل آراؤه المتعارضة فى جنيف .

ولقد ذهب سيمز إلى جنيف ثم لندن ثم عاد إلى فلسطين ، ووثق أن سياسة الحكومة الانجليزية قد رسمت ؛ فالحلم الذى بناه العرب بانشاء إمبراطورية ، والفكرة الكبيرة عن التآلف بين الدول العربية ، بحيث تكون كل منها مستقلة فى ذاتها ولكنها متحدة فى سياستها ، لم تستطع أن تعيش إلى جانب الحقائق الخشنة للسياسة التى تنتهجها الدول العظمى ، وللخلافات بين العرب وعدم التنظيم . وكذلك ذهب مع الفكرة الكبيرة ، ذلك الأمل فى أن يتقدم أمير صهيونى ملىء الجيب بالأموال ليخطب فلسطين عروساً له ، ويدخل فى خدمة مجموعة كبيرة من الدول العربية أو السامية . ولقد عرف الحلفاء وبريطانيا خاصة فى أثناء الحرب ، كيف يتقاضون من اليهود مساعدة مكنتهم من الاستيلاء على فلسطين . وتقدم العالم اليهودى يطلب تحقيق الوعد فى الدولة الجديدة ، ولكن بريطانيا أمة من التجار الحذرين لها آراء ديمقراطية ، ولها إمبراطورية تحتوى على ملايين من المسلمين ، فأخذت تعالج الأمر بالتجارب والمناقشات والمفاوضات دون أن تصل إلى نتيجة ، ولم يبق أمامها إلا الوقوف والانتظار .

وقد ظن سيمز أن شكوى العرب قائمة من مطالبهم وحاجاتهم الاقتصادية ، ولذلك أخذ يدرس نظما للاصلاح ، وتحدث مع زعماء كل من العرب واليهود ، فوصل إلى اتفاق غير مكتوب بينهما بأن يلزم كل فريق جانب السكينة . وقد وفى الفريقان بهذا العهد طوال المدة التى قضاها لورد بلومر حاكماً على فلسطين ، وبهذا الاتفاق استطاع أن يسرح رجال الشرطة من البريطانيين ، وأن يوفر الكثير من النفقات .

وقد روى سيمز حادثاً ذا مغزى عندما كان مديراً لاحدى المقاطعات ، يمكن أن يفهم منه مركز الموظفين البريطانيين ، وما تعهد إليهم السياسة البريطانية من عمل . ذلك أنه دعى إلى اجتماع مع غيره من المديرين لمقابلة سير صموئيل هور المندوب السامى ، وكان موضوع بحث الاجتماع ثورة خواطر العرب من أجل الهجرة اليهودية ، وما أدى إليه ذلك من وقف الهجرة مؤقتاً مراعاة لعواطف العرب من جهة ، وحرصاً على سلامة المهاجرين من جهة أخرى ، وكانت مظاهر السخط فى تلك الأثناء قد هدأت ، ولكن العداوات قائمة فى القلوب . وكانت المسألة التى طرحت للبحث هى : هل من الممكن استئناف قبول المهاجرين بعد وقف الهجرة مؤقتاً ؟ وكان من رأى رجال الاستعلامات الذين حضروا هذا الاجتماع أن يظل المنع قائماً . ولما سئل سيمز عن رأيه ذكر أن هذا الاجراء هو إجراء ضرورة وانتهاز للفرصة ، وأنه بهذا الوضع لا يليق بالحكومة أن تستمر فيه . ووافق المندوب السامى على رأيه ، وسأله بصفته مديراً لمقاطعة يدخل فيها ميناء حيفا الذى هو أحد الميناءين الهامين فى البلاد ، هل هو على استعداد لتحمل مسئولية قبول المهاجرين فى الحال وفتح الميناء لهم ؟ وكانت العيون ترمقه فى شئ من الشك عندما أجاب بالايجاب . ولكنه اشترط شرطين : أن يخبر بمجئ المهاجرين قبل أسبوعين من وصولهم ، وأن تطلق يده فى إخبار أهل المدينة بهذا الأمر قبل وصولهم .

وعاد إلى منصبه فى حيفا . وتناثرت أخبار هذا الاجتماع ، فجاء زعماء العرب وجاء زعماء اليهود يستطلعون الخبر . فلم يتردد فى الافضاء إليهم بالحقيقة ، وطلب إليهم أن يعملوا لهدوء أنصارهم قبل حدوث أية هجرة ، وأنه سيطلعهم على الحقيقة إذا ما جاءته أنباء عن مهاجرين .

ولكن حدث أمر لم يكن يتوقعه ؛ إذ دق بعد ذلك بأيام جرس التليفون

من القدس فى داره فى ساعة متأخرة من الليل ، وأبلغ فى لهجة الاعتذار ، أنه وصلت سفينة تحمل بضع مئات من المهاجرين الذى طافوا البحر الأبيض بأجمعه، وحاولوا أن ينزلوا مرتين فى يافا فرفضوا ، وأن بينهم مرضى وعجزة ، وقد صرح لهم من قبل بدخول فلسطين ، وحال دون دخولهم منع الهجرة المؤقت ، وقيل له إن شروطه معروفة ، ولكن هل يستطيع فى سبيل الانسانية أن يقبلهم إذ أن السفينة ستدخل بهم ميناء حيفا بعد ست وثلاثين ساعة ؟ طلب مهلة نصف ساعة يفكر فيها ، ثم وافق على هذا الطلب على أن يرسل إليه كتيبة من الفرسان البريطانيين .

وفى الصباح التالى أرسل إلى زعماء العرب مسلمين ومسيحيين ، وأطلعهم على الخبر فى صراحة ، ولقد حافظوا على سكينتهم ومجاملتهم ، و إن أخبروه علانية بأن هذا الخبر سيؤدى إلى اضطراب كبير ؛ فالناس ثائرو الخواطر لمجرد الإشاعة ، فاذا علموا بأن حيفا ستقبل مهاجرين رفضهم الوطنيون فى يافا ، فان ذلك مما يبلغ بالأمور درجة الغليان ، وقد يؤدى ذلك إلى الاضطراب و إراقة الدماء ، وأبى الزعماء أن يتعهدوا بأى شئ يتحملون تبعته فى هذا الأمر .

فأفهمهم سيمز أنه يعلم ما يساورهم من قلق ، وقال لهم إن تبعة الاحتفاظ بالأمن هى على كل حال من واجبات الحكومة ، وكل ما يرغب إليهم فيه هو بذل مجهود فى هذا الاتجاه بقدر ما يستطيعون .

وقابل سيمز بعد ذلك وفداً من اليهود ، ومن الطبيعى أنهم وافقوا على غرضه ولكنهم كانوا يرهبون ما قد يتعرضون له من أخطار ، فهل يستطيع أن يضمن السلامة ، لا للمهاجرين وحدهم بل للعدد الكبير من السكان اليهود فى أرواحهم وأموالهم ؟ وأجاب بأنه لايضمن شيئاً ، ولكنه سيبذل كل جهد مستطاع . وطلب إليهم أن يحتفظوا بمظهر السكينة بألايغلقوا حوانيتهم ، وأن يستمروا فى أعمالهم مهما يحدث من الأمور .

كانت مشارب القهوة فى اليوم التالى ، و إلى ساعة متأخرة من الليل ، تطن بالحديث بين غاضب وخائف . وأبدى قائد الشرطة مخاوفه من تجمهر الناس . فأمره المدير بأن يعمل ما فى وسعه لحفظ النظام ، إذ هو لايرغب فى الالتجاء إلى معاونة الجنود البريطانيين إلا عند الضرورة القصوى .

وفى اليوم الموعود امتطى المدير جواداً ، وسار فى شوارع المدينة الضيقة ومعه تابع ، ورأى فيها جماعات من الناس كالعادة ، ورأى الحوانيت تفتح فى شى

من التردد ، ورأى الهدوء مستتبًّا أكثر مما يجب . وقد اخترق بعض شوارع أحياء المسلمين فظهرت على أهلها الدهشة ، وكانوا يردون على تحيته فى شئ من التردد . وفى ساحة صغيرة وجد جماعة من الرجال الأشداء يتناقشون فى عنف ، وفى أيديهم هراوات ثقيلة ، وحدث حينئذ أن تجاوب صوت يشبه عدة طلقات ، فارتعد أصحاب الحوانيت وبدا على وجوههم القلق ، ولم يكن ذلك إلا صوت دراجة ميكانيكية .

عاد المدير إلى مكتبه ، فأخبره كاتم أسراره أن السفينة تقترب من الميناء ، وأنه اتخذت الاحتياطات من رجال الشرطة ، وأن الناس يتجمعون غاضبين حول خطباء يلقون خطباً نارية ، وأنه حدثت بعض حوادث ، وفى الوقت ذاته أعلن بوجود زعيم دينى كبير من المسيحيين جاء لمقابلته ، وهو يرغب أن يراه فى الحال . كان هذا الزعيم ، على وصف المدير ، رجلا مهيب الطلعة ، يقال إن صورته طبعت على بطاقات وبيعت فى فرنسا ، لجمع أموال للأعمال الخيرية ، فلقيت نجاحاً كبيراً ، لما فيها من شبه للمسيح كما يصوره المصورون فى القرون الوسطى ، وكان يلعب دوراً هامًّا فى الأمور المحلية ، وكان سياسيا متحمساً ، وفى بعض الأوقات يبلغ به التحمس أن يصير خطراً .

قابله المدير ، وأخذ الزعيم الدينى يتكلم فى لغة عربية بليغة لم يكن المدير يفهمها حق الفهم ، فأخذ الزعيم يشرح رأيه بلغة فرنسية طلقة ، وكان يطلب إلى المدير حرصاً على مصلحة المدير نفسه ، ومصلحة العرب واليهود وسائر العالم ، أن يعدل عن السماح للمهاجرين بالنزول من السفينة إلى البر ، وأن يردهم من حيث أتوا . وظل يشرح رأيه ويبدى ويعيد فى أقواله دون ملل ، ولم يقطع تدفق الحديث حتى صوت التليفون وهو يدعو المدير ، وحتى حديث المدير فيه . وقد استمر فى بيانه بالرغم من أن المدير كان بين آن وآخر يصغى إلى محادثة تليفونية . وبعد آخر محادثة نظر المدير إلى ساعته ، فاذا الزعيم قد مضى ساعتين فى شرحه . وعندئذ وقف المدير معتذراً لكى ينهى المقابلة ، وقال الزعيم فى رقة إنه يرجو أن لا يذهب توسطه هباء ، وأن أية محاولة لنزول المهاجرين ستكون ذات شأن خطير . فأخبره المدير فى وداعة وصراحة ، أن المهاجرين قد نقلوا من السفينة إلى معسكر يقيمون فيه ، وأن قائد الشرطة حين أبلغه هذا الخبر تليفونيا قال له إن ذلك جرى فى سكينة حتى إنه لم ينبح كلب واحد .

وهكذا نرى صراحة المؤلف فى وصف الدور الذى كان يقوم به فى فلسطين ، ويقوم به مئات من أمثاله من الموظفين البريطانيين حتى اليوم .

عندما عين سير ستيوارت سيمز حاكماً للسودان المصرى الانجليزى فى سنة ١٩٣٤ ، لم يكن السودان غريباً عليه ، فقد عرفه وخدم فيه فى مبدأ حياته العملية ، وعاشر فيه كتشنر وونجت ، وخبر السياسة التى كان يكنها أولئك البريطانيون الذين سلمت إليهم إدارة البلاد بعد أن أعيد فتحها ، ليمثلوا مصر و بريطانيا فى تلك الأرجاء ، على أن يكونوا مخلصين لما أسموه بالحكم الثنائى . وهو رجل ، كما أشرنا من قبل ، يؤمن بالسياسة التى وضعتها حكومته ، وينفذها فى دقة و إخلاص . وهو كذلك رجل صريح ، فهو يتكلم فى بساطة متخذاً وجهة نظر بريطانية صرفة ، لا يناقش شيئاً ولا يجادل شيئاً .

ولقد قابل تعيينه حاكماً بالسودان بالسرور ، لأنه كان يعرف دخائل الادارة فيه ، ويعرف الرجال الذين سيعملون معه ، وهم على قوله رجال من خريجى المدارس العامة مثله ، أى ليسوا من الجامعيين ، ولكنهم قديرون فى الأعمال الادارية ، يرمون إلى الغرض فلا يخطئون إصابته . و يرى أنهم نجحوا فى نقل السودان من حالة التوحش إلى المدنية ، وأنهم أوجدوا فيه الرخاء ، حتى صار الأجنبى يستطيع السياحة فى أرجاء السودان دون أن يحمل سلاحاً ، وينتقل فى البلاد فيقابل من الأهالى المحليين مقابلة الصديق ، وأن الانجليزى بنوع خاص يعتبر ضيفاً كريماً ، وأنه لا توجد فى السودان حوائل اللون ؛ فالسودانيون والانجليز كل يحتفظ بعاداته وعقائده دون أن يقوم بينهم خلاف على حق التقدم .

والسودان مساحة واسعة ضخمة ، يسود فيها جو مرهق ، ويسكنه ستة ملايين من الناس .

وقد يستطيع المرء أن يكوّن فكرة عن مساحته واختلاف سكانه ، إذا قام برحلة جوية فوق الملايين من الأميال المربعة التى تتألف منها مساحته . فالسائح الذى يسافر جنوباً من خط العرض الثانى والعشرين إلى خط العرض الرابع فوق خط الاستواء ، يستطيع أن يرى مجرى النيل وفروعه الكبيرة ، فيرى شريطاً ضيقاً من خضرة ماء النهر تتعرج فيما يبدو صحراء لا نهاية لها ، حتى خط العرض الثالث عشر ، ثم يدخل هذا الشريط إلى أرض تغطيها الأحراش المنتشرة

ثم يمر بعد ذلك على مستنقعات منبسطة ، وهى المنطقة التى تعرف بمنطقة السدود . ثم يدخل المديرية الاستوائية . ويمكن هذا السائح أن يتعرف الأحوال إذا نزل فى عدة أماكن ؛ فيرى أن السكان الذين يعرفون بالجنس البربرى عند وادى حلفا يزداد لون بشرتهم سواداً حيث يرى الزراع فيما يجاور الخرطوم . وإلى جانبها عند أم درمان يرى خليطاً من الأجناس التى تمثل شمال إفريقية ، تعداده مائة ألف رجل وامرأة . وفى الملاكال على بعد خمسمائة ميل إلى الجنوب ، يرى نوعاً من سكان النيل ، نحيلا عارى الجسد . وهؤلاء يحيون حياة بسيطة ، ولهم عادات لا يألفها سكان شمال السودان ، وبعد ذلك تأتى مساحة تسكنها قبائل زراعية لغتها تشبه لغة بعض سكان شرق إفريقية ووسطها .

والسائح الذى يسافر من الشرق إلى الغرب ، أى من البحر الأحمر إلى إفريقية الفرنسية الاستوائية ، وهى سياحة ألف وخمسمائة ميل ، يجد أيضاً مثل هذا التنوع . فهو يبتدئ من ميناء بورسودان الحديث إلى التلال التى تسكنها قبائل البجا منذ آلاف السنين ، ثم يصل إلى كردفان وما فيها من أهل التلال الوثنيين الذين صاروا الآن من زراع القطن . ثم يصل إلى دارفور التى كانت سنة ١٩١٦ ولايةوطنية ، وقد احتفظت إلى الآن ، بعد أن صارت تابعة لحكومة السودان ، بحياتها الخاصة ؛ فتجد الجمالة فى الشمال والبقارة فى الجنوب ، ولايزال لها ملوكها وفرسانها الذين يلبسون الدروع فى الاحتفالات ويمتطون الجياد المسومة .

وهو يقول إنه بالرغم من هذا الاختلاف فى سكان السودان أتيح للسودان فرصة أمن وهدوء بعد القضاء على حكم الدراويش فى سنة ١٨٩٨ ، وكان الفضل فيها للضباط الحربيين من البريطانيين ، يعاونهم زملاء مصريون قديرون . وكان عملهم فى الأيام الأولى ثقيلا جدًّا ، وكان مفتاح هذه السياسة الابتعاد عن المركزية ، واستخدام القوى الأهلية فى إدارة السودان . واعترف فى هذا النظام بالأقسام التاريخية للبلاد ، وبقوة العلاقات التقليدية ، مما مكن من إيجاد هيئات أهلية تتعاون فى النهضة الاقتصادية . وقد أريد قيام فريق من الأهالى بالاشتراك فى الحكم لكى تنمو الهيئات التى تؤدى للحكم الذاتى . ولا ريب أن الحالة كانت تحتاج فى بادئ الأمر إلى أن يحال بين الأهالى الحاكمين وسوء استعمال سلطتهم . ولذلك كان الموظفون السياسيون حذرين كل الحذر ، وهم يراقبون انتقال النظم التى تقوم على تقاليد القبيلة إلى نظم حديثة .

ومما ساعد على الرخاء أنه أنفق مالا يقل على عشرين مليوناً من الجنيهات على الأعمال النافعة . وتقوم مصر بالنفقات الأساسية ، أما القروض السودانية التى تمت أخيراً فكانت بضمان الخزينة البريطانية .

على أن مشاكل السودان ليست بالقليلة ؛ فهو مساحة واسعة يسكنها عدد قليل من السكان موزعون . والبلد زراعى ، ولكن كثيراً من أراضيه غير خصب والأمطار غير موزعة توزيعاً حسناً ، وهى خفيفة فى مناطق عديدة . وتقوم ثروة السودان على التجارة الصادرة فى منتجات أولية تختلف أثمانها اختلافاً بيناً بين سنة وأخرى حسب الانتاج المحلى والأسعار العالمية . أما المنتجات المعدنية فقليلة جداً .

وتختلف الأحوال العامة فى شمال السودان عنها فى الجنوب ؛ ففى الشمال تعتبر اللغة العربية هى اللغة المعروفة من الجميع ، والآراء الاجتماعية والثقافية العربية هى معروفة لدى الجميع . والسكان من مسلمين ومتعربين ، الذين يعيشون إلى شمال خط العرض الثانى عشر ، تطل نوافذهم السياسية على مصر والبحر الأبيض ، وتطل من الشرق على منبع دينهم . ولكن إلى الجنوب من ذلك الخط نجد خليطاً من القبائل لها لغات وعادات مختلفة ، لا يربطها رابط عاطفى غير الحاجة الأولية إلى الطعام والنسل والدفاع .

وقد أخذ فى تنظيم هذه الجماعات الجنوبية ، وهذا هو الغرض مما سمى بسياسة الجنوب ؛ فهى سياسة تعترف بأن الجنوب إفريقى ينتمى كلية إلى الجنس الأسود .

ويقول سير سيمز إن من المشاكل التى تقوم فى السودان مشكلة الطبقة المتعلمة . وقد حرصت الادارة على ألا يزيد عدد المتعلمين تعلما كتابيا عما تحتاج إليه الأعمال العامة . ومع ذلك فان جميع الوظائف الصغيرة يشغلها سودانيون . أما الوظائف الكبيرة التى تحتاج إلى تعليم فنى فان عدد السودانيين فيها قليل جداً ، ولكن ظهر فى ميدان العمل أخيراً عدد من ذوى المؤهلات الطبية والقانونية من السودانيين ، وهذا فأل حسن للمستقبل .

ولم يقترح سير سيمز فى أثناء حكمه إجراء أية تعديلات دستورية . وهو يرى أن الوصاية البريطانية ضرورية للاحتفاظ بمستوى الخدمات العامة ، ولكن قد يمكن السير خطوات نحو الاستقلال الذاتى ، وحتى فى شمال السودان يجب أن يمضى بعض الوقت قبل إيجاد المنشآت النيابية لحكومة مسئولة .

وهنالك فضلا عن العقبات المحلية اعتبار آخر يجب مراعاته ، وهو حقوق

ومصالح شريك ثالث هو مصر. فان هذا الشريان القديم الذى هو نهر النيل ، يؤيد و يربط حظوظ ثلاثة عناصر متباينة من الجنس البشرى ، وهو ذلك الخليط من السكان الذين يعيشون فى جنوب السودان وأغلبهم وثنيون ، ثم العرب المسلمون فى شمال السودان ، ثم فلاحو الصعيد والدلتا . ولكل فريق من هذه العناصر مصلحة قائمة فى النهر . وللفلاحين الأسبقية فى القدم وفى الأهمية المادية والسياسية . وهذا كان الباعث الأساسى الذى أدى إلى التدخل الحربى المصرى فى السودان فى أوائل القرن التاسع عشر ، ثم إعادة فتح السودان بالجيش المصرى البريطانى فى نهاية ذلك القرن . وهذا هو الذى دعا إلى تأليف الحكم الثنائى . ولقد أدى الاضطراب الوطنى فى مصر إلى إخراج الجيش المصرى منه ، وإحلال قوة الدفاع السودانية محله ، وعزل طائفة من الموظفين والضباط المصريين . ولكن هذه الحوادث أثارت فى نفوس المصريين ناراً مشبوبة . وظلت المسألة السودانية جرحاً لا يندمل بين مصر و بريطانيا ، وظل النفوذ المصرى مبعداً عن السودان مدة عشر سنوات أو أكثر .

ثم حدث الاعتداء الايطالى على الحبشة ، وهدد المحور سلامة البحر الأبيض والعالم ، فخلق ذلك موقفاً جديداً أرغم أشد الوطنيين المصريين تحمساً ، بزعامة النحاس باشا الرشيدة ، أن يعيدوا النظر فى موقفهم .

ومع ذلك فمشكلة العلاقات بين مصر والسودان ، لا سيما المسلمين من سكانه فى الشمال ، لا تزال وستبقى مشكلة شائكة . ولا يمكن الوطنى المصرى فى اهتمامه بمسائل مياه النيل والعلاقات الدينية مع السودان أن يقلع عن اهتمامه بمستقبل تلك البلاد ، ولا يمكن فى أى ظرف أن تقبل حكومة فى السودان تكون غير صديقة أو غير بادية الكفاية .

ولعل الخطر فى السير بسفينة الادارة فى السودان فى رأى مؤلف الكتاب ، هو ألا يقدر البريطانيون الطبيعة المعقدة للمشاكل السياسية فى السودان ، وألا يقدروا روح الوطنية المصرية ، وألا يقدروا الروح الوطنية فى شمال السودان ، فبين هذه الصخور المعترضة يجب أن تسير السفينة . وفى رأيه أن خير حكمة تنطبق على حالة السودان ، هو العمل بقول القائل : العجلة من الشيطان .

حسن محمود

على قيثارة الحياة

اللحن الأخير

[هأنا أعزف لحنى وهو اللحن الأخير]
الشاعر الحائر

لست أدرى أيها القلب أأبكى أم أغنّى
فأنا أقضى حياتى بين يأس وتمنّ
تملأ الأفراحُ كأسى ويُريق الكأسَ حزنى
عجَبٌ حالى مع الدنيا وما أغربَ شأنى

أشتهى الموت على رغمى وأشتاق الحياه
ويهز الشك قلبى ثم أفنى فى الصلاه
إنه اليأس الذى يغمر أيامى دُجاه
إنه الحرمان مما تفتن القلب رؤاه

آه لو مرت حياتى نسمة تسرى رُخاءَ
آه لو عشت بقلبى كيفما شئتُ وشاء
لملأتُ الكون شدواً وهتافاً وغناء
وملأت العمر أفراحاً وأحلاماً وِضاء

اه لكنى شريد وغريب فى حياتى
ماتت الأفراح فى قلبى ، فماتت أغنياتى
وطغى اليأس على عمرى فغشّى أمنياتى
فتعلت من الدنيا بطيف الذكريات

يا حياتى إننى وحدى على الدنيا شريدُ
عذب الحرمان أيامى ولكنى أريد
وأذلّ السجن قلبى وطوت روحى القيود
من أنا يأيها الدهر ويا هذا الوجود

أنا طيف يقطع الأيام حيران شقيّا
أستر الحزن وأخفى دمع عينى بيديّا
وشعاع الشمس يؤذينى ويغشى مقلتيّا
ليتنى ما كنت طيفا ! ليتنى ما كنت حيا

أنا قيثارة أنغام فمالى لا أغنى
عبث اليأس بأوتارى وأنغامى وفنّى
أيها اليأس ألا تذهب بالأحزان عنى
إننى ألقيتُ آمالى فخذها . . . ثم دعنى

أنا لحن والهُ الأنّات مشبوب البكاء
جاء من قيثارة الله إلى هذا الفضاء
هو فى الفجر حنين وأنين فى المساء
ليتنى عدت لقيثارك يا رب السماء

أنا قلبٌ حائر الأشواق فى دنيا الغوانى
يشتهى قلباً عميق الحب فيَّاض الحنان
يصطفيه بهجة العمر وأفراح الزمان
ويناجيه بسر الحب فى ظل التدانى

أنا روحٌ هائم بين عيون ونهود
حالم بالنشوة الكبرى من الحب الفريد
إنها إشراقة العمر وإشعاع الوجود
ليتها تحرق روحى ثم أحيا من جديد

فى دمى شوق إلى الحب وفى قلبى حنين
وبأيامى صَبابات وفى عمرى فتون
جُنَّ قلبى بالهوى العذرى والحبُّ جنون
وأنا المحروم أيامى شكاة وأنين

أيها الروح الذى أبحث عنه فى زمانى
أيها الروح الذى يدعوه روحى وكيانى
ليت شعرى يا حبيبى أنت فى أى مكان
أقريب من حياتى أم بعيد كالأمانى

أنت لا تعلم ما بى من شجون وعذاب
أنت لا تصغى لأنَّاتى من القلب المذاب
أنت لا تدرك أنى حائر فوق اليباب
أنت لا تعرف أنى ظامئ بين السراب

إننى أصبحت أحيــا فى زمانى مســتطارا
ثائر الأحزان ليــلا حائر القــلب نهارا
ذاهل اللب اصطبارا ذاهب الفكر انتظارا
لا أرى إلا خيــالاتى وأوهامى حيــارى

أنا قد طوّفت فى الدنيا وفى كفّىَّ كأسى
أطلب الرّىّ لروحى—وهى ظمأى—ولنفسى
وأغنى لحن أشــواق وتغــريدة حسى
ثم ماذا ؟ . . . هأنا عدت لأحـزانى و يأسى

أنت يا قلبى أما يكفيك شـجوى وانتحابى
أنت يا قلبى أما يكفيك يأسى واغــترابى
هأنا أدفن أحــلامىَ فى هــذا التراب
فعـزاء يا حيــاتى وعزاء يا شــبابى

يا فؤادى إنما الحب سراب فى حيــاتى
يتراءى دافق الأمـواج رَحب الجنبات
فاذا سرت إليــه راح يسرى فى الفــلاة
واللظى يُحرق روحى والضنى يقتل ذاتى

خلّنى وابحث عن الحب إذا رمت المحــالا
واطلب الظلّ من الرمضاء واستسق الرمالا
فأنا ودّعت أوهامى وشيعت الخَيــالا
وأنا جافيت آمــالىَ نوراً وظــلالا

لن ترانى أشتهى الغيد وأشتاق العذارى
لن ترانى أقطع العمر حنيناً وادكارا
سوف أحيا مثلما يحيا غدير فى الصحارى
رفرف الطير عليه ساعة . . . ثم توارى

لا تحدثنى عن الماضى الذى ولّى وضاعا
ذهب الماضى وما نملك للماضى ارتجاعا
فدع الأيام يذهبن من العمر سراعا
وكفانا أيها القلب حنيناً والتياعا

نحن ضيعنا الليالى فى الأمانى والخيال
وتركنا النور يا قلبى وهِمْنا فى الظلال
وغفَوْنا فرأينا الكون فى أبهى مثال
ثم لمّا أن صحونا لم نجد غير الرمال

أيها اللائم فى يأسى وشجوى وانتحابى
لا تلمنى حين أبكى . . . إننى أبكى شبابى
لا تلمنى حين أشكو . . . إننى أشكو لمابى
أنت لا تعرف أسرارى ولا تدرى مصابى

محنتى أنى تغرّبت عن الدنيا بقلبى
محنتى أنىَ ظمآن ولا ماء بقربى
محنتى أنى أريد الحب . . . لكنْ أىّ حب
محنتى أنى نداء لم يجد سمعاً يلبّى

لو قضيتُ العمر أبكى ما شفى نفسى البكاءْ
إنمـــا عمرى فضـاء فيه أيامى هبـــاء
لم يعـد يخـدعنى الوهم و يُغـوينى الرجاء
وهمومى ليس يجـــدى الصـبر عنها والعزاء

هأنا أُمســـك قيثارى ولى قلبٌ كسيرُ
هأنا أعزف لحنى وهو اللحـــن الأخـــير
إنه رعشـة غصن ســوف تطويه الدّبــور
إنه أنّات محزون ســتخفيه القبـــور

ابراهيم محمد نجا

LES ORIGINES DE L'EXISTENTIALISME

ROGER ARNALDEZ

أصول الوجودية

الوجودية بالمعنى الخاص لهذا اللفظ تدل على فلسفة للوجود . و إذا كان هذا التعريف المشتق من اللفظ بعيداً عن توضيح ما تنطوى عليه ، فان له على الأقل مزية ، وهى أنه يذكر بتمييز أساس يعتمد عليه كل تاريخ الحركة الفكرية فى الغرب ، وهو التمييز بين الماهية والوجود . ونرجو أن نتمكن على ضوئه من أن نرسم حدوداً للحركة الفكرية موضوع دراستنا .

والوجودية منتهى ما بلغته الحكمة المعاصرة . على أن التفكير فى الوجود ليس حديث العهد ، ولا يرجع إلى أيامنا هذه . فمنذ أفلاطون أخذت هذه الفكرة تظهر و إن كانظهوراً مضطرباً غامضاً لأنها ما زالت ممتزجة بفكرة الماهية. فما الماهية ؟ هى ما يجعل كل كائن هو ما هو ولا شىء سواه ، أو هى لولاها لأصبح أى شىء لا قوام له خاضعاً لجميع الأحداث ولأشد أوضاع الوجود تناقضاً. والماهية لا تقتصر على تعيين الكائنات ، ولكنها تحدد أيضاً الميدان الذى يجوز أن تلحق الفرد فى داخله ألوان من التحول دون أن يفقد ذاتيته . فقد يكون الرجل أبيض اللون أو أسوده أو أصفره ، وقد يكونموسيقيًّا أو طبيباً ، أصلع أو غزير الشعر الخ ... ولكن لا يجوز أن يكون له ريش الطير أو زعانف السمك. وعلى أى وجه ينبغى أن ننظر إلى تلك الماهيات ؟ هل يجوز أن نرفض لها الوجود فى حينهى مبدأ الوجود فىالكائنات ؟ يجيبأفلاطون : لا ، بلا شك . فالماهية هى بالذات الوجود . وهذا المذهب الذى يزداد قوة فى الأفلاطونية الحديثة التى ذهب إليها بلوتان Plotin سيسود طبقة واسعة من المفكرين أشهرهم سبينوزا وهجل . فهؤلاء المفكرون يرون أن التمييز بين الممكن والواقع ليس حقيقيا ، فاذا كانت جميع الماهيات موجودة فكل ممكن واقع . والممكن يفقد النفس الانسانية أحد أبعادها فى الحيز الفكرى الذى تجول فيه . فانها لا تستطيع أن تجدد أو أن تنشىء ، ولا تستطيع أن توجد فى العالم آثاراً مبتكرة حقا . وقواها

الحية تكتظ من فرط الامتلاء . وكل شئ يأتى فى حينه ، وكل شئ يتلقى اتجاهاً معيناً ويشارك فى تكوين الواقع العظيم الضخم . فأيسر آهة وأضأل ابتسامة يندرجان فيما قرر لهما من مكان فى نسيج العالم .

على أن لوناً آخر من ألوان التفكير أخذ يظهر بظهور أرسطو . فما كان عند أفلاطون عالماً حقيقيًّا أو مجموعة من الماهيات المتدرجة فى المراتب المؤسسة على حظها من الوجود ، أصبح عند تلميذه سلماً منطقيًّا بحتاً للأجناس والأنواع . ولم يعد يتبوأ قمة هذا الجدول الكائن أو الحيز أو المبدأ المشترك لكل واقع مهما كان اسمه . فما زالت هذه تصورات منطقية ، وهى الأجناس الأولى : المادة والكم والكيف الخ . . . ولا يمكن أن يجمع بينها أى جامع مشترك . فالماهيات التى تشملها مسميات الأجناس والأنواع هذه تؤلف إذن عالماً مجرداً على هامش العالم الموجود . وليس لها وجود بذاتها ؛ فانها لا توجد إلا فى الكائنات الواقعة أو فى الأذهان التى تفكر فيها . فالرجل بمعناه العام ، أى ماهية الرجل لا توجد إلا فى كالياس أو فى سقراط أو غيرهما وهم رجال ، أو فى ذهن الفيلسوف الذى يفكر فى الطبيعة الانسانية .

وسنلاحظ بهذا الصدد ملاحظات أربعاً :

أولا — أن هذا الهامش بين الواقع والماهية يحدد ميدان الممكن . فجائز أن ماهية لا توجد إلا فى ذهنى . أما فى ذاتها فهى إذ ذاك ممكن بحت . فالأثر الفنى الذى يفكر فيه الفنان ، والدستور الذى يحلم به المشرع ، ومشروع المهندس واقتراحات الاقتصادى، هى كلها ممكنات بحتة قبل أن تتحقق . ويجوز أن تطرأ أحداث غير متوقعة تمنع تحقيقها ، ولكن ينبغى المخاطرة ، ينبغى الارادة والمجازفة ، ينبغى أن نثق بالانسان وبالحياة وبالله . هذا أساس فكرة الالتزام التى تتميز بها الوجودية .

ثانياً — غير أنه من ناحية الفكر لا يوجد أى فارق بين الممكن وبين الواقع . كان كانت يقول : لا فرق بين مائة ريال ممكنة ومائة ريال واقعة . صحيح أن المائة الواقعة لا تزيد بواقعيتها ريالا أكثر ، والفرق بين المائتين ليس فكريًّا ، بل هو من نوع آخر ، فانا أوثر مائة ريال واقعة على مائة ريال ممكنة على الرغم من أن المقدار واحد ؛ فعصفور فى اليد خير من عصفورين على الشجرة ، ولكن القيمة التى تظهر هنا مخالفة قطعاً للقيمة المالية لهذه المائة .

والموضوع الهام الذى يعرض أمامنا هو أن نعرف أتدخل هذه القيمة فى النطاق الشخصى البحت لمجرد أنها تختلف عن القيمة المحددة موضوعيا على قطع العملة . ومع ذلك فمن ذا الذى لا يلمس فرقاً واضحاً بين إيثار الحقيقة الواقعة ، وبين ألوان الايثار الشخصية البحتة ، كأن أوثر لحم البقر على الضأن ، أو الجبل على البحر ، أو اللون الأزرق على اللون الرمادى . . . و إيثار الواقع ينطوى على شئ من الموضوعية بسبب تعدد وقوعه واتساع مداه ، بل أكثر من ذلك فانه يبدو قرينة لتركيب بشرى معين ، قرينة لنوع بشرى خاص . وهذا يظهر جلياً إذا سلمنا إلى جانب ذلك الايثار للواقع بايثار للأحلام ولغير الواقع. هل يوجد إذن ميدان خاص للقيم يحتل لنفسه مكاناً بين القيم الموضوعية البحتة التى يستطيع الفكر أن يزنها ، وبين القيمة الشخصية البحتة التى تقاس بشعورنا وميولنا ؟

وفى الحق أن اشتمال الضمير البشرى على مشاعر لا ترد إلى لون من ألوان الايثار العاطفى ، ولا تفقد ما تتسم به إلى حد ما من طابع شخصى ، ولكنها مع ذلك تبدو أمامنا بحيث تنتظم فى الموجود ، ولها إذن كيان وجودى ، ذلك ما أوضحه مذهب هوسرل Husserl . فان مشاعر مثل التعاطف والوفاء والايمان والهلع ، على الرغم من الاحساس بها فى أعماق النفس ، فانها تفترض و إلى حد ما تضع ، لا مجرد أفكار تنشئها ، بل حقائق واقعة تتصل بها ؛ فاننا لا نؤمن بمجرد شئ ممكن ، ولا نحتفظ بهذا الايمان لكائن لم تبق منه إلا الذكرى . واستمرار الوفاء لصديق بعد وفاته يكفل امتداد حياته ويدل عليها. وعلى ذلك فمثل هذه المشاعر يستطيع الانسان أن يدعى لنفسه مقدرة على استكشاف الموجودات و إظهارها . فالبخل أو أى لون آخر من ألوان التعلق العاطفى هو الذى يدلنا على وجود مائة ريال ، على حين يغيب وجودها من الفكر وهو متجه نحو الماهية مركز فيها .

ثالثاً — والوجود يختلف اختلافاً تاماً عن الماهية . فالماهيات تبدو إذن بالقياس إلى الوجود إما على أنها عنصر شكلى يكيف الوجود بهذه الكيفية أو تلك ، و إما على أنها عنصر مثالى يحاول إخراجه إلى الواقع على أكمل وجه مستطاع . وبعبارة أخرى فان الماهية تستعمل لغرضين : أولها المعرفة ، وهى بذلك تعرف طبيعة ما هو موجود . والثانى العمل ، وهى بذلك تلهم بما يجب إخراجه إلى

الوجود . على أن العمل نفسه يعرض مشكلة : أليس من شأن الاخراج إلى الوجود أن يغير حتى من طبيعة الماهيات ؟ ألا يخيب أمل الكاتب بالمؤلف الذى كتبه؟ أليست الصورة التى فى الخيال أروع بكثير من تلك التى تمثل أمام أعيننا؟ وإذا كان هذا الأمر صحيحاً ، أفلا نستطيع أن نعمم الحكم على الماهية بصفة إجمالية ، حتى باعتبارها وسيلة من وسائل المعرفة ، فلا فارق بين ماهية الدائرة والدائرة الحقيقية الواقعية المرسومة على اللوحة! نعم لافارق بينهما إذا كانت هذه الدائرة تامة وبالقدر الذى يمكن أن تكون الدائرة فيه تامة . ولكن ليس فى الطبيعة دائرة يبلغ إتقان رسمها حد الكمال حتى إذا رسمت بالبركار . أليس ذلك حال ماهياتنا دائماً؟ فهى تبدو كاملة ، ولكنه كمال غير واقعى ، كما يتضح ذلك فى نظرية الغازات الكاملة ، بل فى تسميتها نفسها ، تلك النظرية التى يؤدى إليها قانون ماريوت جاى لوساك **Mariotte-Gay Lussac** . ولكن لاتوجد غازات كاملة . وحتى بالقياس إلى الريالات المائة ، فالفكرة المجردة وحدها هى التى تقرر أن هناك توافقاً تاماً بين ماهيتها البحتة وماهيتها المحققة . ولكنى أستطيع بمائة ريال ممكنة أن أتخيل شراء أشياء عجيبة ، فى حين إذا كانت هذه الريالات المائة واقعية فانها تتبخر فى شراء أشياء عادية .

ونستطيع أن نستخلص من ذلك أنه حتى فى ميدان المعرفة فان الماهيات لا تعطينا إلا علماً مقارباً يبتعد عن الواقع بمقدار ما يقترب من الكمال . فالمعرفة الدقيقة المحددة ، والتفكير الهندسى الرياضى الذى يتغذى بالماهيات ، تقابلهما معرفة أخرى أشد اتصالا بمنعرجات الواقع والوجود ، وهى المعرفة التى يحكمها التفكير الحاذق اللبق . يبدو إذن باسكال على أنه المفكر الذى استخلص فى وضوح النتائج الناشئة عن فلسفة للوجود . والركن الأساسى فيها هو تعارضها الجوهرى لنوع من الفكر المفكر الذى يمتد على هامش ظروف الحياة . وعلى ذلك فالوجودية تتجه مضادة للعقلية .

رابعاً — والغرض من الملاحظة الأخيرة لفت النظر إلى مقابل حتمى للوجود حين ننظر إلى ميدان الممكن ، وهذا المقابل هو العدم . فالممكن هو الذى يجوز أن يوجد كما يجوز ألا يوجد . والوجود يكتنفه العدم وينجم من اللاوجود . وال « من لا شئ » *ex nihilo* الذى تقوم عليه عقيدة الخلق يكتسب معناه ومغزاه هنا . وقد اتخذت هذه الفكرة أوضح تعبير لها فى كتاب القديس

توما الاكويني « عن الخلق » . فهذا كائن أمامى ، وأنا أستطيع أن أرد كل خاصة من خواصه إلى سبب : فعيناه الزرقاوان ورثهما عن أمه ، وأنفه الأقنى عن جده ، وبشرته النضرة ناشئة عن صحته التامة . وعلى ذلك فقوانين الوراثة والانتقال تفسر لى ما هو هذا الرجل . ولكن لا شيء يفسر لى وجوده . وبعبارة أخرى فالخواص الأساسية المميزة لكائن هى نتائج لأسباب ثانوية يمكن البحث عنها والافاضة فيها . ولكننا لن نجد فى هذه الأسباب كلها السبب فى وجوده . ومن ناحية فلسفة الماهية ، يبدو الوجود على أنه مركز التقاء لمجموعة لا حصر لها من الأسباب ، حتى إن حظنا من فرصة الوجود يساوى فى الواقع صفراً . وليس وجودنا إلا مصادفة وحدثاً عارضاً وأمراً تافهاً لا خطر له خليقاً بالاهمال . فمن أراد أن يكسب ذلك الوجود الاحتمالى معنى — وهذا هو غرض القديس توما — فسبيله إلى ذلك أن يرده إلى السبب الأساسى الأول وهو الله الذى يخلق من العدم ، على أن بروزنا من اللاشيء يبقى دائماً معرضاً للفناء . وعلى ذلك نستطيع أن نلمس فى كل أوضاع الحياة البشرية هذا القرب الفاجع بيننا وبين الفناء .

كما أنه من الممكن إنكار الله ووجوده المحتوم . وهنالك نستطيع أن نمعن النظر فى الوجود فلن نرى فيه إلا السلطان المطلق للاحتمال واللاعقلية والعبث . بذلك يبدو الاتجاهان الأساسيان فى الوجودية : من ناحية الوجودية الدينية ، ومن أنصارها : كيركجارد **Kierkegaard** ، وجاسبرس **Jaspers** ، وجابرييل مارسل **Gabriel Marcel** ، ومن ناحية أخرى الوجودية الملحدة ، ومن أنصارها نيتشه **Nietzsche** ، وهايدجر **Heidegger** ، وسارتر **Sartre** .

والملاحظات الأربع التى ذكرناها عن نتائج التفرقة بين الماهية والوجود ، تدلنا على أن للوجودية المعاصرة أصولا بعيدة ترجع إلى عصر الفكر الكلاسيكى . على أن هذه ليست وحدها أصولها . فان الوجودية (وهذا مدعاة الغرابة) تستمد أصولها أيضاً من الماهية فى مظهر من مظاهرها ، ولا سيما من مذهب ديكارت الذى لا تقبله كما هو ، ولكنها تستوحيه وتغيره فى نفس الوقت تغييراً عميقاً .

ومعلوم أن الحجة الكونية التى تقوم على استمداد الوجود من الماهية هى

من صميم فلسفة ديكارت فى الميتافيزيقا . فلا يقتصر ديكارت على أن يثبت وجود الله مستمداً هذا الاثبات من ذات الله ، بل هو يذهب إلى أبعد من ذلك ، فيصل عن طريق عبارة : « أنا أفكر و إذن فأنا موجود » Cogito ergo sum إلى أن يثبت فى حدس عقلى وجود أل « أنا » باعتباره متصلا بالفكرة ومشمولا بها . فالواقع أن الأولية فى هذا المذهب للماهية . ولكن إذا لم نقتصر على الوقوف على عبارة « أفكر فأنا موجود » وعلى الحدس الأكثر عموماً الذى قوامه : « أفكر وإذن فالله موجود » Cogito ergo Deus est وهما من حدود دراسة الميتافيزيقا ، بل استقرينا الحركة الفكرية كلها ، خرجنا من هذا الاستقراء بشئ آخر .

فما الذى يؤدى إلى عبارة « أفكر فأنا موجود ؟ » أليس هو الشك ؟ فقيمة هذه العبارة هى إذن نتيجة لما للشك من قوة . ولكن كوننا نشك معناه أننا نريد الشك ، أى أننا أحرار . فمذهب ديكارت العقلى معتمد فى أساسه على إرادية تخرج الحرية عن نطاق العقل ، كما حاول أن يثبت ذلك الأستاذ جان لابورت Jean Laporte من ناحية تاريخية بحتة . ولنقل إذن إن الوجود لا يبرز من الماهيات ومن الفكر والآراء إلا بالاضافة لكائن يستعمل وجوده استعمالا حرًّا ، أى لكائن يريد ويشعر ويؤمن ويشك ، لكائن يتخذ لنفسه مركزاً أمام نفسه وأمام المشكلات التى تقلقه وتثقل عليه .

كذلك الحال إزاء المذهب الذى كثيراً مايردّد والذى قوامه أن حدس الحقائق فجائى فى رأى ديكارت . فان جان لابورت كثيراً ما يورد نصوصاً من الأحاديث التى جرت مع بورمان Burman ، ومن بينها ملاحظته أن الفكرة نفسها تمتد فى الزمن . كما أن كثيراً ما يورد جميع النصوص المتعلقة بوظيفة الذاكرة . ينتج من كل ذلك أن مجهودنا الفكرى له تاريخيته الذاتية ، بل له تاريخه الخاص ، فما عسى أن يكون المحرك الفكرى الذى يجعلنا نتمسك بسلسلة معينة من الحقائق دون غيرها ؟ هذه هى المشكلة التى نضعها موضع البحث . ولكن كل مشكلة حقيقية ، أى تلك التى تكسب الفكر صحة ، هى فى ذاتها مشكلة شخصية راسخة فى كياننا الخاص . وهذا ما يقرره النص الرائع للقاعدة الثالثة عشر :

« لست أدرج فى عداد المشكلات الأسئلة التى تصدر عن الآخرين فحسب ،

فمشكلة سقراط كانت متصلة بجهله الخاص أو ، بالضبط ، بشكه . وما دام قد أخذ ، أثناء اجتهاده فى حل هذه المشكلة ، يبحث أهو يشك حقيقة فى كل شئ .

وهذا التفسير لمذهب ديكارت ينتهى بنا إلى الفكرة الآتية : إذا أردنا أن نظفر بموجودات وراء الماهيات ينبغى أن نواجه هذه الماهيات على أساس موقف حقيقى نتخذه فى الحياة إزاء صعوبات نشعر بها نحن أنفسنا . فالفيلسوف هنا الرجل الذى يواجه قبل كل شئ مشكلته الخاصة لا أحجية مسلية من تلك الأحاجى التى تعرضها صحيفة أو مجلة ، الذى يواجه مشكلة حقيقية داخلية تعطى معنى للتصرفات الفكرية فتكسبها قيمة ووجوداً ، ويعتبر كل شئ عداها لغواً بالألفاظ .

على أن الفلسفة السابقة على الوجودية حتى حين تعترف للوجود بالطابع الخاص ، وحين تفسح مكاناً للممكن ومجالا للحرية ، فهى مع ذلك مدينة للماهية لسبب بسيط جدًّا ، وهو أنها تبحث عن « معرفة » الحقيقة باعتبارها غاية العقل وأثراً من آثار هذا العقل . إلا أن الوجود فى جوهره أعسر من أن يدركه العقل ، وعلى ذلك أصبح حتما أن يبقى على الهامش . وقد بقى على الهامش بفضل الحيلة التى قوامها أن كل حقيقة الوجود ترد إلى الماهية ، وبأن ما يتجاوز ذلك عارض يمكن وصفه بأنه مجرد وسيلة من الوسائل التى تظهر بها الماهية .

ولم يكن بد من قيام ثورة فى الفلسفة حتى تنشأ الوجودية التى أخذت على نفسها — على عكس المذاهب الفلسفية السابقة — أن تتمسك بهذه التفاصيل الزائدة المميزة للوجود ، وأن تحاصر الماهية ابتداء من الوجود . وقد قامت هذه الثورة ، وهى ثورة مذهب كانت . وإذا لم يكن كانت وجوديًّا فقد مهد لنشأة الوجودية وجعل ظهورها ممكناً .

وقوام فلسفة تحديد المعرفة النظرية المجردة . فقد حصرها فى نطاق التجربة المحسوسة والعلم ، لذلك حين يسائل الانسان : من أنا ؟ يمكن أن يرد إليه بجوابين : فمن حيث هو كائن موجود فى الزمان والمكان قابل لأن يكون موضوعاً للتجربة ، أى بالقياس إلى الوجود النوعى الذى يكون المعرفة التجريبية ، يجب أن يتجه بسؤاله إلى علم الحياة وعلم النفس . ولكن هذا الجواب مهما يكن علميا ، بل لأنه علمى ، لا يمكن أن يرضى الانسان ؛ لأن هذا الانسان يلحظ نفسه من عل من حيث هو كائن معنوى حر تميزه حريته على أساس فكرة مطلقة

للخير ، لهذا الخير الذى لا نجد له أى تحقيق فى العالم الحسى . وهو بهذا الاعتبار يشعر بوجود خارج من عالم الظواهر ، أى بوجود لا يبدو كغرض مسلم به فى التجربة الموضوعية ، ولا يكشف عنه إلا الفعل الخلقى ، ولا يبرز إلا عن طريق الحرية ، وفى داخل حدودها .

وعلى الرغم من الخطوة الواسعة التى تمت فما زلنا بعيدين عن الوجودية ؛ لأن قانون الحرية لا يزال كانت يؤديه عن طريق أصول عقلية عامة . ولكن الأمر الخطير هو أنه خارج نطاق « الطبيعة » تحدد نطاق « الحرية » ، أى نطاق للوجود الأعلى ، وهذا الميدان الأخير لا يمكن الوصول إليه عن طريق العقل بل عن طريق الايمان الخلقى . ولنلاحظ أن هذا الايمان ليس ولا يمكن أن يكون من نوع هذه العقائد التى تنشأ من ميل إلى الاعتقاد وهو شكل من أشكال الرغبة ، ولا هو من نوع التعلق العاطفى ببعض القيم . فما هو إذن على وجه التحقيق ؟ هنا تعرض مشكلة ينبغى للوجودية حلها . وهى مشكلة أوضاع وجودنا ، تلك الأوضاع التى تقع فى ميدان ضميرنا والتى لا تصل إلى أن تكون علماً ولكنها مع ذلك تزيد على أن تكون مجرد تعلقات عاطفية شخصية . أما علم الظواهر **phénoménologie** فيحل هذه المشكلة عن طريق نظرية الشعور القصدى **la théorie des sentiments intentionnels** التى أشرنا إليها حين تحدثنا عن الوفاء .

أما وقد مهد كانت السبيل ، فلم يبق على الوجودية إلا أن تنشأ . ومؤسساها ، على حد قول الفيلسوف الوجودى كارل جاسبرس **Karl Jaspers** هما كير كرجارد ونيتشه .

وقد ألقى جاسبرس محاضرة فى جامعة جرونتج الملكية بين فيها أوجه الشبه الانسانية العميقة التى تجمع بين هذين المفكرين . فكل منهما يشرع فى تفكيره على أساس حالة هذا القرن التاسع عشر الذى يعيش فيه .

لذلك كان تفكيرهما معاصرا جدًّا لقرنهما بسبب الحكم الذى أوحاه إليهما هذا القرن وكان فى الوقت نفسه غير معاصر على الاطلاق لهذا القرن لما امتازت به وجهة نظرهما من جدة مستحدثة تتعارض كل التعارض مع وجهة نظر معاصريهما . فكير كجارد يعيش فى وسط يعتبر نفسه مسيحيا ، ولكنه ليس مسيحيا إلا بالقول . فكيف يستطيع ذلك الأسقف الذى يتحدث عن تضحية إبراهيم

أن يعرض هذا النبي على أنه شخصية ينبغي الاقتداء بها ؟ هل يجترئ على أن ينصح جميع الآباء الذى يستمعون إليه بالقيام بعمل مماثل لعمل إبراهيم ؟ لا يوجد مسيحيون . ولكن إذا لم يكن للمسيحية معنى فلن يكون لشيء معنى ؛ لأنه ليس فى علم الأخلاق ولا فى علم الجمال فى هذا العصر الرومانتيكى ما يرضى الانسان . وقوانين الجمال والخير تتجه إلى مجموعة الأفراد ، وهى تحث على التقليد ، بل تنصح به . وهى لا تزال فى ميدان الأحكام العامة . وقواعد العصر الكلاسيكى من باب أولى محصورة فى هذا الميدان بما تدعيه لنفسها من العموم والاطلاق . ولكن الانسان كائن فردى . ولكل إنسان سره الداخلى الذى لا يمكن البوح به ، والذى لا يخضع للعقل ولا للمنطق ، ولا معنى له إلا فى صميم حياة واقعة . وهذا المصير الشخصى توليه المسيحية الاعتبار الذى يستحقه ، تلك المسيحية التى تنطوى على الايمان بالله بغض النظر عن كل حساب أو تدبير ، عن كل قاعدة أو تفكير ، تلك التى تقول بعلاقة غير قابلة للوصف تصل الانسان بالله ، والتى تجعل من الحياة الانسانية شيئاً آخر غير الوجود الحيوانى أو النباتى العديم الذاتية . ولكن أين المسيحى الصحيح فى عصرنا ؟

يميل الانسان إلى ضرب من السبات ، و إلى اطمئنان ناعس إلى الأحكام العامة المقررة ، ويأبى إعادة النظر فيها ، والمسيحية وحدها تستطيع أن توقظه فتجعله يوجد حقًّا لأنها دين اليقظة . ويتجه الذهن إلى كلام باسكال عن سر المسيح : « قام المسيح بانقاذ تلاميذه وهم نيام ، قام بذلك نحو كل من الرجال الصالحين فى العدم قبل أن يولدوا ، وبالقياس إلى خطاياهم منذ ميلادهم . » وفى فقرة أخرى : « سيبقى المسيح يعانى سكرات الموت إلى آخر الدهر ، فلا يجوز لأحد أن ينام فى هذه الأثناء . »

ونيتشه بدوره يثور على هذه المسيحية اللينة الطرية، وعلى الاشتراكية الناشئة التى صدرت عن الدين المسيحى ، والتى تقصر همها على أن تنزل على الأرض مثلا أعلى تافهاً للجنة وللسعادة المصنوعة المقررة . ولكنه يبحث فى الدين المسيحى نفسه عن مصدر هذا الانحلال الذى تعانيه الجماعة الحديثة . ويسائل ما مصير الانسان ، وبصفة خاصة ما مصير الأوربى ؟ هل ترضى الارادة الأوربية هلاككه ؟ ويضيف نيتشه إلى ذلك : « حذار من التدابير الوسطى . خير من ذلك الهلاك ! »

والواقع أن نيتشه ، مثل كير كجارد ، يهاجم القيمة المقررة ، يهاجم الايمان بكائنات مستقرة مكونة تكويناً نهائيا يعتمد الانسان عليها كأنه أدرك هو نهاية نموه وبلغ منتهى ما فى إمكانه . يجب هدم هذا العالم الصناعى المنطوى على حقائق مزيفة والتى يظن القرن أن يعيش على أساسها . وهذا الهدم يقوم به كير كجارد باسم مسيحية لا يمكن أن تمثل فينا إلا عن طريق أعمال سلبية منها تعليل النفس بالنفس ، والاستشهاد . أما عن نيتشه فالهدم على أساس مبدأ الرجعة الأبدية .

على أنه إذا أردنا أن نفهم الأساس الفلسفى لضرورة الهدم هذه وجب قبل كل شئ أن نعرف النقد الأساسى الذى يوجهه كل من كير كجارد ونيتشه إلى الفكر الانسانى . عيب هذا الفكر هو وضع أنظمة محددة . يجب أن نقرر ، خلافاً لما يذهب إليه هجل ، إن العقل لا يستطيع أن ينشئ أنظمة يحصر فيها الانسان . فمجموع الواقع البشرى ، أى مجموع العالم الذى يضطرب فيه الانسان ، لا يمكن حصره على وجه التحديد ؛ لأنه ليس مكتملا فى أية ناحية من نواحيه .

والفيلسوف ذو الأنظمة المحددة يبنى قصراً لا يسكن فيه ، إنما يعيش فى كوخ ، على حين يجب على الانسان أن يعيش فكره . لكن الفكر الانسانى تروية غير محدودة فى وجوده وفى حالته . يجب إذن أن يتعمق فكره إلى غايته ، ولا يترك هذا الفكر يمضى وحده . فان ذهبنا بأنفسنا إلى النهاية فان كياننا الوجودى سيبطل ما ينشئه الفكر البحت من قيم زائفة ومن أشباح وأصنام . والنظريات التقليدية عن الحق والخير والشر ستهوى على اعتبارها أبنية فاسدة للفكر المجرد .

إلى هذا الحد يحدث الانقلاب فى القيمة سواء عند كير كجارد أو عند نيتشه . فتهدم قيم العموم وتقوم مكانها القيمة الخاصة التى تتصل بالفرد . وانهزام الأخلاق عند كير كجارد يقابله تجاوز الخير والشر عند نيتشه . وما وراء الأخلاق عند كير كجارد هو النطاق الدينى الذى يشيع فيه الوجود الشخصى . وما وراء الخير والشر عند نيتشه هو عالم إرادة القوة . ولكن هذين الوراءين يشبه كل منهما الآخر ؛ إذ يشتركان فى نفى القيم العامة المقررة النهائية .

والآن نستطيع أن نفهم ما هو « العبث » **l'absurde** باعتباره المميز

للسلوك الديني عند كيركجارد . وما هي « الرجعة الأبدية » **l'éternel retour** باعتبارها أساس إرادة القوة عند نيتشه .

ليس العبث هو الانكار البحت لكل ما هو منطقي عقلي ، وليس هو عكس المنطق والعقل . بل هو ما لا يستطيع العقل التعبير عنه ، هو ما يقرر وجوده الخاص الذي لا يندمج بحال في كل ما هو عام شامل . وليس العبث أساس قانون خلقي جديد ، بل هو يقاوم وضع كل قانون جديد .

وكذلك الرجعة الأبدية ليست فكرة تكفل الانتظام لأحداث العالم ، وإنما هي الفكرة الباهظة المضنية التي قوامها أنه لايوجد هدف على الانسان أن يدركه ، ولا عالم مثالي ينفذ إليه ، وأنه لا يوجد استقرار في أي من الأمور ولا أجل له . بل هناك موج الحياة غير المنقطع الذي يجب أن يقبله كل إنسان لنفسه ، وفي معيشته الخاصة ، ويستجيب لهذه القوة الهائمة العاصفة وهي قوة الحياة .

هذه هي الأصول البعيدة والقريبة للوجودية . وحتى تشعر هذه الفلسفة بنفسها شعوراً كاملا ، وتعتبر وسيلة من وسائل التفكير التي لا يمكن مجال الملاءمة بينها وبين فكرة الماهية ، لم يكن بد من قيام الثورة التي أتى بها مذهب كانت ، هذا المذهب الذي استعان بملكات عقلية أساسها الخوف من الواقع .

هذا ما يفسر لنا الحالة الراهنة للوجودية . ولكن إذا طرحنا جانباً القيمة العامة الدائمة ، فان البحث الفلسفي ينتهي إلى دراسة « حالات » فردية على حدود الحالات المرضية ، لأن الحالة الفردية تتكشف بصفة خاصة في الأمراض النفسية لا سيما إذا تمسكنا بمحتوياتها أكثر من تمسكنا بشكلها العلاجي ، كما فعل ذلك الدكتور منكوفسكي مثلا الذي انطبع تفكيره انطباعاً عميقاً بالمذهب الوجودي . ومهما يكن من شيء فان تصور الفلسفة على هذا الأساس كان لا بد من أن يزدهر في الأدب . وهذا ما يبدو فعلا في آثار جابرييل مارسيل وسارتر .

على أنه في هذه المرحلة من مراحل التطور لا يمكن أن نمنح مثل هذه الآثار من القيمة أكثر مما هي تدعيه لنفسها ، فهي ليست إلا تحليلا لحالات خاصة . وعلى أقصى تقدير ترفع هذه الحالات إلى مرتبة الصنف والنموذج . حقاً أنه يستطيع كل إنسان أن يرى نفسه في كل شخص من أشخاص القصص . ولكن ما فائدته من ذلك ؟ إذا كان كل إنسان يسلك طريقه الخاص فما يضيرنا أن نقول إنه إذ يلتزم

هذه الطريقة يلزم بها جميع الرجال ؟ ما القيمة التى تبقى لفكرة أن كلا منا يعتبر نسخة من نسخ البشرية ، إذا لم يوجد بيننا جميعاً اشتراك فى الانسانية ؟ ولكننا إذ نذكر الاشتراك نذكر بذلك العموم .

و إذا لم تكن فكرة الانسانية قوة محركة شديدة الدفع ، و إذا كان المذهب الانسانى البحت يعتبر مذهباً خلقيًّا ضعيفاً معسراً ، أفلا نجد فى التعرف على الطبيعة الانسانية قوة عظيمة ، قوة تولد الحب ؟ لأنه إذا كان الحب لا يخضع للعقل ، و إذا كان يتعلق بأشخاص فردية تحيا حياة كاملة فى فرديتها ، أفلا نتبين أن هذه المعرفة التى تصحبها بمثابة المكبر للصوت الذى يزيد من رنينه ؟

ومن مزايا الوجودية الحديثة أنها تظهر ما فى المذهب الفكرى البحت من مغالاة و إسراف . ولكنها تترك مشكلة الانسان الأساسية كما هى دون أن تمسها . فاذا امتاز الانسان بعقله وبعلمه الناشئ عن هذا العقل ، فما مكانة العقل والعلم فى حياته ؟

وهذه أيضاً مشكلة من مشاكل الوجودية لم يصل الوجوديون الحديثون إلى حلها ، لأنهم يمتنعون عن التعرض لها .

روجيه أرنالديز

نقلها عن الفرنسية توفيق شحاته

الشاعر رابندرانات طاغور

يجد الناقد مشقة ، عندما يحاول أن يشرك غيره فى تذوق أدب غريب ؛ فالأمزجة الفنية تختلف باختلاف الشخصيات والميول ، ولا تتفق إلا فى نطاق ضيق جدا على عناصر ضئيلة لا اختلاف فيها . ومن هنا كانت الاحتجاجات المرة والتذمر الملح والآراء القاسية التى نصادفها فى بعض ما نقرأ لكتاب الغرب أمثال بلزاك ، وفلوبير ، وأندريه جيد ، وبول فاليرى ، وأوسكار وايلد ، والشاعر الألمانى رلكيه ، إذا أتيح لهم أن يعرضوا لمسألة النقد الأدبى .

وقد ذهب بعض هؤلاء الكتاب إلى القول بأن النقد شئ يؤسف له ينمو على أنقاض آراء عتيقة بالية ، لا صحة لها ولا طائل تحتها ، كمشكلة الفكرة والصورة . وكان فلوبير من أشد الساخطين على النقد والنقاد ، وقد هاجمهم بشتى الوسائل منددا تارة بتأثيرهم السئ فى عقول القراء ، ومترحماً تارة على الأدب الذى ذهب مع الريح لكثرة ما تعرض له النقاد بأساليبهم الفاسدة .

ونحن نفهم هذا كله ونسلم به ، ولكن هناك نوعاً من النقد سمته الأجيال بأسماء مختلفة ، فوصفته مثلا بالنقد الموضوعى ، وبالنقد العرضى ، الذى لا يخرج عن إطار الأثر الأدبى الذى يعالجه ، فيقدمه الناقد للقارئ ليشجعه على مطالعته ، تاركا له الحرية الكاملة فى استحسان ما يقرأ ، أو الاعراض عنه . فالناقد فى هذا الوضع يكون مرشداً لا حاكماً ، ومشيداً لا هادماً . غير أنه من الحمق ألا نعترف للناقد بالحق فى أن يبسط رأيه فى صراحة تامة ، يميز بين الجميل والقبيح ويشير إلى مواضع الضعف والقوة ، ويشرك القارئ فى الفائدة التى جناها من مطالعته ، والعبرة التى خلص بها من تلك الرواية أو ذلك الديوان ، وهو فيما يقدم للقراء يعالج الأثر الفنى من « الداخل » كما يقول الشاعر رلكيه ، ويذهب إلى صميم ما أراد الشاعر أو الكاتب من قصيدته أو قصته ، لا إلى صميم ما يريد أن يجد فى الكتب التى ينقدها من إذعان للمذاهب السائدة ، والقواعد المتبعة .

ونحن نريد أن يكون بحثنا عن رابندرانات طاغور شاعر الهند الخالد ، حديثاً موجزاً بسيطاً عن أغراض الشاعر ، وعما دفعه إلى هذا اللون من الفن ، أو إلى هذا المذهب فى الكتابة والتفكير .

لا بد لنا قبل الوصول إلى صميم شعر طاغور واعتبار خصائص هذا الشعر والرسالة البشرية التى يحملها إلينا ، من أن نعطى القارئ فكرة عابرة عن حياة الشاعر وبعض مؤلفاته . ويرجع الفضل الأكبر فى هذه البيانات إلى المقالات التى نشرها الأستاذ محمود المنجورى على صفحات « المقتطف » سنة ١٩٤٢ ، وإلى بعض ما عثرنا عليه فى المراجع الانجليزية والفرنسية . وقد دهشنا فى بادئ الأمر لنقص هذه العناصر الأولية فى مقدمات أندريه جيد سنة ١٩١٤ ، وييتس سنة ١٩٤٢ ، « للقربان الشعرى » ، ومقدمات وديع البستانى ، وكامل محمود حبيب ، لديوان طاغور وعنوانه « البستانى » ، والمذكرة التى ذيل بها كاليداس ناج وبيير جان جوف ترجمتهما إلى الفرنسية لديوان « البجعة » ، والبحث الذى صدر به الكاتب الفرنسى رومان رولان ترجمة مادلين رولان لكتاب عنوانه بالبنغالى « كاتورنجا » .

وإذا أمعنا النظر فيما أسميناه نقصاً وجدنا أن الحق بجانب هؤلاء الكتاب جهوالمترين ؛ فانهم أهملوا ، لا شك فى ذلك ، ناحية ربما كان لها شأن فى تاريخ الأدب الذى نقرؤه فى الكتب والبحوث العلمية التى لا تذكر اسما أو عنواناً حتى تزوده بالتواريخ والمذكرات المختلقة ، ولكنهم فطنوا إلى حقيقة أرفع من التعلق بالتواريخ الدقيقة ، وهى أن شاعراً مثل طاغور لا تحده السنة التى ولد أو مات فيها ، ولا بلاد عاش بها ، لأنه يجاوز زمنه ، ولا يجوز لوطن أن ينفرد به ، فهو شاعراً ومفكراً أكثر منه فيلسوفاً عالمياً ، وهو معاصر لكل فرد يطلب الجمال ويسعى للوصول إليه ، ليستمد من رسالته قوة وأملا .

ومهما يكن من الحاجة إلى التواريخ والبيانات الخاصة بحياة طاغور ، فقد وفقنا لبعضها ، ومنها أن رابندرانات طاغور - وبعض الناس يكتب اسمه بالتاء «تاغور» ، ويقول أندريه جيد إنه يجب أن يلفظ « روبندرونات طوغور » - ولد فى مدينة كلكتا سنة ١٨٦١ ، وكان أبوه فيلسوفاً يعيش متقشفاً ، وتوفيت أمه فى حداثته ، فنشأ طفلا محروماً عطف الأم وحنانها . أرسله أبوه إلى المدرسة ، ولكنه

لم يتردد إليها طويلا ، فاضطر والده إلى أن يحضر له الأساتذة فى البيت . وعهد التلمذة هو من الأمور التى تترك عادة أثراً عميقاً فى نفسية الفرد ، ومن هنا كانت أهمية ما نقرؤه لطاغور إذ يقول : « كنت أتألم مدة طفولتى من شعورى أن نظم التربية فى المدرسة لا صلة لها بالعالم . » وفى سنة ١٨٧٧ رحل طاغور إلى بريطانيا العظمى حيث أتقن اللغة الانجليزية وآدابها ، حتى استطاع فيما بعد أن ينقل بعض مؤلفاته من البنغالية إلى الانجليزية . ثم عاد إلى بلاده وتزوج سنة ١٨٨٣ وبعد عامين ذهب إلى الريف ليشرف بنفسه على ممتلكات والده ، وقد كتب فى الريف أكبر قسط من مؤلفاته ، وبقى هكذا إلى سن الأربعين إذ فجع فى غضون بضعة شهور بوفاة زوجه وابنته الكبرى وأصغر أبنائه . تلقى شاعرنا هذه التجارب القاسية المتلاحقة بصبر وشجاعة و إيمان وهو يقول : « إن عاصفة الموت كانت علىّ نعمة ورحمة » .

وقد أنشأ فى سنة ١٩٠١ فى مدينة بلبور على مقربة من كلكتا مدرسة للاطفال أطلق عليها اسم «شانتى نكتال» أى «دار السلام» . وقد استبدل باسمها فى سنة ١٩٣١ اسم «صفا بهاراتى» ووسع نطاقها فأصبحت معهداً للتقارب والتعارف بين الشعوب.

وقد بدأ من سنة ١٩١٢ سلسلة رحلات ، استأنفها فى سنة ١٩٢١ ثم فى سنة ١٩٢٦ ، فزار انجلترا وفرنسا وألمانيا واليابان وأميركا وروسيا السوفيتية والصين وجنوب إفريقية والعراق وكندا وتركيا و إيطاليا ومصر ، وكان دائماً موضع حفاوة وتقدير و إعجاب .

وفى سنة ١٩١٣ منحه مجمع ستوكهلم جائزة نوبل فى الآداب ، وفى سنة ١٩١٥ أنعم عليه ملك الانجليز بلقب « سير » وفى سنة ١٩١٩ لأسباب سياسية اعتذر طاغور من الاحتفاظ بهذا اللقب ، وفى سنة ١٩٣٠ عهدت إليه جامعة أكسفورد ببعض المحاضرات يلقيها على طلبتها ، وفى سنة ١٩٤١ منحته الدكتوراة الفخرية فى الآداب .

ولما بلغ طاغور الثامنة والستين ، عكف على الرسم ، وقد عرضت آثاره فى لندن ، ثم فى برمنجهام وموسكو و برلين وميونيخ وباريس ونيويورك ، وتوفى فى ٧ أغسطس سنة ١٩٤١ .

ليس من شك أن للآثار الفنية لشاعرنا الفذ شأناً عظيما إذا نظرنا إلى ضخامتها و إلى الموضوعات التى عالجتها .

وإذا استثنينا آلاف الأناشيد التى تركها طاغور كان عدد مؤلفاته الشعرية يبلغ الستين ، وله فى النثر ، قصص وروايات وبحوث ومقالات وعظات وذكريات لا تحصى ، نقل معظمها من البنغالية إلى سائر اللغات ، غير أننا لم نقرأ فى العربية سوى « البيت والعالم » ترجمة طانيوس عبده (مطبعة الهلال سنة ١٩٢٥) ، ومختارات عن « البستانى » مترجمة نظماً ونثراً ، بقلم وديع بستانى (مطبعة المعارف) ؛ وترجمة للديوان نفسه من محمد كامل محمود حبيب (مطبعة المقتطف سنة ١٩٤٠) . ومن أهم ما قرأنا له شعر مترجم إلى الفرنسية ، نخص بالذكر « القربان الشعرى » و « قطف الثمار » و « البستانى » و « الهلال » و « البجعة » .

إن الشئ الرائع الذى نجده فى شعر طاغور هو محاولته تصوير الانسان أمام ربه ، والفرق الشاسع بين الخالق والمخلوق من جهة ، والتقارب الغريب وعدم الكلفة بينهما من جهة أخرى . ولتلك الفكرة أهميتها الكبرى فى فلسفة الهند .

يذكر طاغور الانسان فى شعره ، فيشبهه بكأس دقيقة قابلة للكسر السريع ، وبناى صغير من القصب فى يد الخالق . ولكن الشاعر يرى أن هذه الكأس وذلك الناى ، يكبر شأنهما إذا أراد الله أن يملأهما حياة متجددة ، وموسيقى أبدية ، فى ذلك الحين يتسع قلب الانسان ويبتهج ، ويكاد يذوب فرحاً ، وتصبح يداه قادرتين على أن تتلقيا أكثر مما أتحفهما به الخالق .

ويرى طاغور أن السبب الذى يصل الانسان بربه ، هو قدرة الانسان على الغناء ، فما الحياة وما بها من شدة ورخاء أو حزن وفرح ، إلا هذا النشيد الذى يصعد من الطبيعة ومن الكائنات ومن الجمال ، والطرب الذى يختلج له قلب المغنى فينسيه نفسه ومقامه الحقيقى ، فيدرك حينئذ أن صداقة تربطه بربه . والشعر الذى ينشده ويقربه شيئاً ما إلى الموسيقى الفياضة التى تتدفق من السماء ، وتشيع النور فى العالم .

ويدور عدد وافر من قصائد طاغور ، حول أفكار محدودة ، حتى ليصيب القارئ شئ من الملل ، إن لم يترك وقتاً كافياً بين قراءة وأخرى . وقد يندر أن تقرأ صفحة من « القربان الشعرى » مثلا ، دون أن تصادفك عبارة من الموسيقى ، أو إشارة إليها . فالشاعر يحس تارة بسرور ، لأنه تمكن أن يجرد غناءه من كل

ما يثقله من زينة أو بلاغة أو إطناب . وهو يعترف تارة أخرى ، فى حسرة ويأس ، أنه حاول عبثاً الاهتداء إلى اللحن الموسيقى الذى يقصده ، فنجده ساخطاً على صوته السجين ، البعيد كل البعد عن الكلمات التى يدعوها فلا تجيب ، وينتظرها فتخيب أمله .

وإذا تركنا الموسيقى وما إليها من تشبيهات واستعارات ورموز شعرية فى مؤلفات طاغور ، وبحثنا عن ألوان أخرى من التفكير ، وجدنا الشاعر عاكفاً على تحليل شخصيته وما تشمله من أمزجة وميول ، وانفعالات وطموح إلى الجمال وافتقار إلى الخير ، وسخط وإشراق ، وعبوس وأمل ، وهو فى كل لحظة ، وعند كل محط لفكرة ، يتوجه إلى الخالق ليسمع له وليساعده على تحقيق مساعيه ؛ وليرشده إلى الجمال والكمال فى الشعر وفى الحياة .

وفى موضع آخر من شعره يعلن الشاعر أن حاجته ماسة إلى عفة الجسم ، وطيبة القلب ، وازدهار الحب والأعمال ، وأن هناك ساعات عصيبة تمر به ، من حين إلى آخر ، فيشقى لها ويشكو منها ، فتزيد رغبته فى الراحة التامة ، وفى أن ينعم نظره فى محاسن الطبيعة وجمالها .

والطبيعة كما يبدو للقارئ من أول وهلة ، تزهو وتفوح فى قصائد طاغور ، وصفحة الطبيعة كما يقول : « إنما هى لوحة متجددة الجمال ، يرقبها الشاعر بمنظار إلهامه ، ثم يفصح عنها بترنيم وتلحين وموسيقى ، دون استعمال أصباغ وألوان » . وللقارئ أن يطوّف بشعر طاغور ما طاب له التطويف ، فانه سيخرج من هذه الجولة وقد امتلأ بصره بألوان الزهر وازدحمت ذاكرته بأسماء السوسن واللوتس والصندل والزعفران وحقول الخردل وغابات المانجو ، ويصور القمر وهو يغازل الزنبق والاقحوان تارة ، ويحبو متكاسلا فى دلال بين الشجر تارة أخرى ، والسحب التى تنعقد فى السماء ، أو تتكاثف مثقلة بالمطر فوق هامات الشجر ، أو تسحب ذيولها على الكواكب ، وبرقة النسيم يعبث بأفنان شجرة الخيزران .

وقد أثرت فى نفس الشاعر وحواسه فصول السنة ، بل شهورها ، وحركات الضوء والظل والريح والماء . وهو يدين للطبيعة بتشبيهات رائعة ، مما نجدها فى أحسن الشعر الفرنسى الرومانتيكى . ولا يسعنا إلا أن نذكر بعضها : « إنما يداك زهرتان ناضرتان من زهرات اللوتس » و « دعج عينيك أشد حلوكة من سواد

السحابة المثقلة بالمطر » و « ستشع خواطرك من عينيك السوداوين كما يطل طائر من عشه » و « إنك تختفين كأنك نجم توارى خلف التلال » و « أنت سحابة السماء التى تسبح فى سماء أحلامى » الخ . . .

والطبيعة تحدث الشاعر وتناجيه ، وتصرفه عن الأمور الخارجة ، والمصالح المادية . فيفطن لأهمية ما يقع عليه نظره ، ويهيئ نفسه لتلقى درسها ، والانتفاع به . وربما دفعه إعجابه بالكائنات الطبيعية ، التى لم تعبث بها بعد يد الانسان ، إلى شئ من الغلو والتطرف ، فيهجر العالم ومن فيه ، ويصبو إلى حياة هادئة بريئة ، لينصت إلى همس دفين فى قلبه ، عندما تغيب الشمس ويشعر الانسان بجمال الطبيعة ، وجلال الحياة .

وهنا تبدو للشاعر عناصر من الفكر ، لم يكن له بها من قبل ذلك عهد ، وتتجلى له معان للحياة تزيد من معرفته وطاقته على إدراك أسرار الكون والمخلوقات ، وتساعده على التأمل فى الأسباب الوثيقة التى تصله بالطبيعة وبالانسانية ، وتجعل منه حلقة ضرورية من حلقات البشر ، وعاملا أساسيًّا لانسجام العالم . ومن هنا كانت الناحية البشرية ، فى شعر طاغور . وهو يثق كل الثقة أن الأفكار التى تجول بنفسه ، والألفاظ التى يرددها لسانه ، والموسيقى التى تجمع بين الكلمات وتكسبها بهجة وتزيد من تأثيرها فى العقول ، كل هذا وليد السكينة ، وغاية كل تأمل أو تفكير صادق .

ولكن الشاعر لا يعيش لربه ولنفسه فحسب ، فهناك قوم يترقبون حركة شفتيه ليتلقوا رسالته ، ويستقوا منها ما يرد عنهم شبح اليأس والقنوط ، ويعاونهم على الاقدام والصبر والشجاعة . ولا يجد طاغور فى بعض الأحيان ، متسعاً من الوقت ، ليتأمل فى الحياة ، وليقف فى خلوة عند الأفكار التى تجول بخاطره ؛ لأن هناك أصواتاً ترتفع فى الليل وقلوباً شابة ، ونظرات كلها حب ، تنطلق وتطلب الموسيقى ، فيسأل الشاعر : « من ذا يستطيع أن ينسج أغانيها إن انزويت أنا على شاطئ الحياة ؟ لا أستشعر فى نفسى سوى الموت والحياة الأخرى » . ونحن نلمس هنا ناحية للنضال والخصومة بين مظهرين من مظاهر الحياة ، نرى الشاعر الذى يسعد بقدرته على التفكير فى أمور تهمه من جهة ، ومن جهة أخرى نرى الشاعر الذى لا بد له أن يشغل نفسه بالذين يغدون ويروحون أمامه وهو « لا يستطيع لهم دفعاً » .

هذا وليس فى نيتى ، ولا فى استطاعتى ، أن ألم بأطراف المعانى المختلفة المبثوثة فى دواوين طاغور التى حصلت عليها مترجمة إلى العربية والفرنسية والانجليزية . وما الآراء التى بسطتها ، إلا الجزء الضئيل مما ينبغى أن يقال فى شاعر ، لم يترك فكرة إلا وذكرها وشعوراً إلا وعبر عنه ، فى أسلوب أخاذ موسيقى .

ومن المسائل التى اهتم بها طاغور ، والتى ربما أتيح لنا أن نعرضها فى مقال آخر ، مشكلات الحب والحرية والموت .

ونريد أن نشير ، فى نهاية هذا البحث الوجيز ، إلى حقيقة لا ريب فيها ، وهى أن طاغور نال هذا الكمال فى آثاره الفنية ، لأنه سما بالفن إلى مرتبة العقيدة ، وله مؤلف قائم بذاته عنوانه « دين الشاعر » . وقد لمسنا فى بعض فصوله سر جمال شعر طاغور . وما ينتظره من هذا الدين ، هو أن « يساعد الضمير على التخلص من نير المادية » ، وأن يذكر الشاعر ومن يتلقى رسالته ، فى ساعات الجهد والاضطراب ، بأن هناك « ترنيم البلبل » وجمال الزهر . ويقول طاغور : « ليس هذا الدين جواباً على سؤال بل هو موسيقى تسلينا عن أفكارنا كلما امتلأت بها نفوسنا » .

وجاء شعر طاغور دليلا قاطعاً ، وبرهاناً صادقاً ، على ما يقوله فى كتابه ، ورسالةً فكرية وخلقية من أعظم ما جاد به الشعراء على الانسانية .

محمود فرنسيس

ROGER CAILLOIS
THEORICIEN D'UN CLASSICISME NEUF
ETIEMBLE

روجيه كايوا يضع نظرية مذهب كلاسيكى جديد

كان هذا الكاتب نصيراً قديماً من أنصار مذهب السريالزم ، ثم فارق بريتون زعيم هذا المذهب بعد أن جهز قضية العقل فى الفن ، وكان عضواً بمدرسة باريس لعلم الاجتماع (مع جورج بتاى ، المدير الحالى لمجلة « كريتيك » وميشيل ليريس مؤلف كتابى « أفريقيا الشبح » و « عصر الانسان » وغيرهما . . .) قد فتن هذا الكاتب وقتاً ما بنزعات الفوضى والطغيان . كان العصر يقتضى ذلك . وما يزال بين الناس من يتهمه بأنه شديد الميل إلى هؤلاء الأقوياء الذين تجمعهم و إياه وحدة الآراء ، وأنه ينظر إلى الجماعات السرية وأعمالها فى كثير من التسامح والعطف . ولو قد خير بين الفوضى والطغيان ، لكان من الجائز أن يختار كايوا الأمر الثانى مستجيباً للأخلاق وعلم الاجتماع . ولكن كايوا لا يريد أن يتورط فى هذا الاختيار ؛ فحرصه على الدقة لا يعدله إلا حبه للحرية . ومن مفارقات الحرية أن نعمتها القيمة لا تنال إلا ممزوجة بالضغط ومخالفة له . ولا سبيل إلى ضمان نصيب قيم من الحرية الكريمة إلا إذا ضحينا منها بهذا الجزء اليسير الذى يوشك أن يكون اختلاطاًواضطراباً . «فهذه التضحية تثبتها وترفع قدرها ، على حين يهدمها الضغط الخارجى ويغض من قدرها الاسراف فى الميل إلى السهولة . » يظهر من هذا النص وعشرة من أمثاله أن سوء النية وحده هو الذى يستطيع أن يتهم كايوا بحب الطغيان . ومن الحق أن عصراً يمتاز بسياسة عامة تقوم على الاهمال والتراخى وترك الأشياء تمضى كما تشاء ، يتعرض فيه كل من يحاول أن يكون ذا ضمير وذا خلق وذا إرادة للاتهام والريبة أكثر مما يتعرض للاحترام ، وللبغض أكثر مما يتعرض لعرفان الجميل . فالكسالى والجبناء يبغضون كايوا لأنه يعرض عليهم صورة سيسفوس وهو يدفع صخرته أمامه .

فمنذ عاد من الأرجنتين حيث كان يدير أثناء الحرب «الآداب الفرنسية» ، نشر كايوا طائفة من الكتب : « تصافى الأقوياء » و « أكاذيب الشعر »

و «مناسبات» و«صخرة سيسفوس» ، وكلها كتب رائعة اللغة ، يقول فيها جايتون بيكون : إنها تدل على امتلاك للفن لا يطمع فيه الآن إلا أمثال أندريه جيد وجان بولون . وقد أضاف إلى آثاره هذه أخيراً كتاباً جميلا وهو « لغة الجمال » : «قرأت نقد الكتب التى كانت تظهر ، أو ناقشت فى قيمتها الهواة الذين أقدر أحكامهم ، فلاحظت أنى كثيراً ما كنت أوافق على الصفات التى كانوا يختصونها بها ؛ ولكنى كنت اخالف غالباً فى القيم التى تضاف إلى هذه الصفات . فاذا وصف أثر بأنه صادق أو طريف، كنت أوافق على هذا الوصف،وكان النقاد يرون هذا مدحاً على حين كنت أراه أنا عيباً . وكذلك لم ألبث أن لاحظت أن لى آراء تناقض أشد المناقضة ما شاع الاتفاق عليه حين يذكر الفن للفن ، والأدب المهذب ، والقواعد ، والصورة والمادة ، والتحديد ، واستعمال الصور فى الشعر ، وقيمة مالا سبيل إلى وصفه ، وتصور التاريخ الأدبى . »

وفى إطار من نوعين من التأمل فى الطبيعة وفى الفن عرض كايوا لغة للجمال حلل فيها القاعدة والحرية ، والنظام والصدق ، والفن للفن والأخلاق ، تحليلا يقوم به عقل من أعظم العقول صفاء فى هذه الأيام . فالطبيعة عدو للعدل والأسلوب . ولايستطيع أحد أن يجادل فى هذا الغرض الذى هو أساس من أسس الحضارة . وكايوا يعرف ذلك كأحسن ما تكون المعرفة ؛ لأنه فكر فيه على ساحل باتاجونيا : « إن الانسان الذى يأخذ أثناء الحياة بحظه من غفلة الحيوان ، ويعجز عن أن يفكر فى الأشياء وقتاً أطول مما تسمح له به الأقدار ليكسب قوته ، مضطر إلى أن يعود إلى الطبيعة فى غير مشقة ولامهل ، ويصبح نهباً مقسما بين الشمس والموج . وهيكله المهمل فى غير عناية والذى لا يلقى من الرعاية أكثر مما يلقى الحيوان ، يذبل كما يذبل الحيوان ويفنى فى نفس السرعة التى تفنى فيها هذه الأحياء التى تشاركنا فى الحياة والتى تستأنف حياتها فى غير انقطاع وهى لم تحتفل بموتاها .

« إن الانسان حين يحتفر قبراً لجثته يضع الأساس لطمعه فى المستقبل . . . ويثبت كذلك أنه يعرف كيف يذكر وكيف يعدّ . ينشىء استمراراً . ومن حيث إنه يضيف جهوده إلى جهود معاصريه،فهو يوحد على غير شعور منه بين هؤلاء المعاصرين وبين جماعات كثيرة مضت وجماعات كثيرة أخرى لا تزال فى ضمير الغيب . وهو بذلك يشارك فى إقامة بناء خفى لا يعرف رسمه ولاأبعاده...

وكذلك يضع الخزّاف والشاعر شيئاً فشيئاً قواعد فنيهما . . . وعلى هذا النحو تظهر الحضارة . »

وقد استطاع الانسان وحده أن يفرض الأسلوب والعدل . ولو قد أعرض عنهما لكان لنفسه منكراً . وكل واحد منا مدين لنفسه (وللذين سبقوه والذين سيلحقونه من أمثاله) بأن يدفع أمامه صخرته المشبهة بصخرة سيسفوس ، وبأن يضيف إلى الكنز المشترك « بفضل مايبذل من جهد وما يتاح له من توفيق، نصيباً ضئيلا ليدخر فيه » . وبدلا من هذه الآثار الحاكية للطبيعة التى تموت وتحيا « فى شئ من الاختلاط البشع الذى لا يعرف نظاماً ولا غاية ، هذه الآثار التى تقلدها الرومانتيكية اللاواقعية والتى يحاول الاختلاط تنظيمها ، ينشئ الفن آثاراً تأتيها قيمتها مما تهدف إليه من غاية وما تعتمد عليه من نظام . « وفى أعماق هذا العالم البشع الذى يأتلف من اللحم والمهل والصديد ، وفى أثناء هذا التعفن الكدر المنتشر ، يجرى دم حار يبعث الحياة فى قوة إلهية نشيطة، طامحة إلى ما هو فوق الفناء متعجلة براءتها من كل ما هو بشع قبيح » ومن كل ما هو مشترك بينها وبين القوى الطبيعية .

فكايوا لا ينكر إذن حظنا من هذه المادة الطبيعية التى تجنح إلى الفوضى ، وهو يعلم أن لا سبيل إلى البناء المتين إلا على الطين ، وأن مدينة مكسيكو التى تقوم على مستنقع تستطيع من أجل هذا أن تثبت للزلزال . ومع ذلك ألم يكن بد من تجفيف الوحل و إقامة البناء ؟ ومن هنا يريد فرويد أن الآيات التى ينتجها العقل لا تسمو إلا إلى أن ترتفع بحاجاتنا العضوية . ومع ذلك فقد يجب أن ترتفع بها ، أى أن تفرض على هذه الشهوات وعلى هذه القوى الغامضة « مقاومة وحواجز » ، وأن ترسم لها « قواعد دقيقة» ، وتستكشف لها « قيوداً محددة » ، تذلل بذلك إسرافها فى الاضطراب «حتى يصبح الجموح نظاماً ومعرفة . »° هنالك يكوّن الوعى والحرية ما يسمى أسلوباً يختص بمزية توشك أن تكون مكافئة له ، وخلاصتها قدرته على أن ينتج آثاراً «لايمكن أن تختلط ولا أن تشوه » كما تختلط وتشوه الآثار التى تفرزها الطبيعة فى غير وعى ولا شعور .

حرية ، ولكننا قد قلنا إن الحرية يجب أن تفهم على وجهها ، وهى التى تعرف كيف تخلق لنفسها « قيوداً جديدة » ؛ فان « فى النص الذى يلاحظه الكاتب ملاحظة دقيقة شاملة ، و يخضع كل لفظ من ألفاظه للنقد والتدقيق، حرية

أ كثر مما فى النص الذى يفلت من الكاتب إفلاتاً » . ومن هنا كان أشد أنصار الفوضى اندفاعاً إلى الفوضى سراعاً إلى نسيان مذهبهم كله حين يقبلون على الأثر الفنى . وانظر إلى فكتور هوجو الذى هو ، إذا صدقناه ، قلنسوة حمراء وضعت على معجم قديم . كأنه لم يتخير الألفاظ فى شعره تخيراً دقيقاً فيؤثر منها النقى الممتاز و يهجر الشائع المبتذل . وزعيم السريالزم ،ذلك الذى كان يريد أن يقلب كل شئ رأساً على عقب ، تستطيع أن تهمل قليلا من شعره — وهو أقله حظا من الجودة — فسترى بعد ذلك أن كتب أندريه بروتون ، ولا سيما « الحب المجنون » ، تمثل الآن أجمل النثر الفرنسى ، نثر بوسويه ، والرائع من نثر شاتوبريان . ولم يزد كايوا فى حقيقة الأمر على أن قال جهرة ما يقوله كثير من الآثار التى تنكر مذاهب أصحابها ، وهو أن قواعد الشعر لها أسبابها وقيمتها ، وأن الشعر المطلق لا يوجد إلا بالقياس إلى الشعر المقيد ، وأن نظام المأساة لا ينبغى أن يتأثر بما يغض من قدر السياسيين الذين يحرصون على أن يحتفظوا بما يلائم أهواءهم من الاضطراب ، وأن الحرص على الطرافة مهما يكن ثمنها يدل على شئ من الهمجية ، و« أن المهم ليس هو أن تبتدئ جديداً ، و إنما هو أن تتقن ما تحدث من الآثار » ، وأن الشعر ، كما كان يقول مالرميه ، يأتلف من الألفاظ لا مما لاسبيل إلى التعبير عنه ، وأنه لايكفى لجمال الصورة أن تكون مفاجئة ، وأن الخير فى ذلك أن يلائم الكاتب بين البداهة والفجاءة ، وأن الفن للفن وهو نوع من لهو الفنانين « لا يستطيع أن يرضى إلا هذه الجماعة الضئيلة التى تراها غاية الغايات » ، وأن الفن خليق بتقدير أوسع وأشمل بحيث يستطيع أن يمس كثرة الناس وأن يبلغ من الانسان « أيسر مشاعره وأ كثرها إلفاً » ، وأن الكتاب إذا حسن أسلوبه ، وهذا هو الشرط الأساسى لكل أدب مثقف ، فليس ما يمنعه بعد ذلك من أن يكون شديد الملاءمة للخلق ، معيناً على إصلاح القيم .

وعلى الجملة « لا بد من التعليم فى الآداب وفى الحياة كما فى العمارة ، ولا سبيل إلى إيجاد الأسلوب إلا من طريق البناء والتأليف » . ونحن نعرف هنا هذه المقتضيات التى تفرضها اللحظات السعيدة حين يعمل العقل فى مادة مصهورة مرنة ، فينشئ منها آثاراً نادرة يقيمها التوازن فى مكان مقسوم بين الصور الهندسية الجافة والانتاج الطبيعى المختلط ، وهى لحظات الانتاج الكلاسيكى .

اتيامبل

فى صحراء الأقدار

الأقدار العاتية ، هائجة مائجة ، تهبّ على رجل فى الحلقة السادسة يحمل حياته على كتفين هزيلتين ، قد برت الأيام ما كساهما من قوة الاحتمال . والحياة على كتفيه قلقة متفززة ، يخب بها تارة ويضع تارة ، ويترجح من وقرها إلى أمام ووراء . والأقدار تطوح به ذات اليمين وذات الشمال ، وتميل به فى صحرائها كل مميل ، وتهيله على حسكها كل مهيل ، وتلطمه اللطمة تلو اللطمة وتكيل . حتى إذا لاحت فى تلك الصحراء الهائلة واحة — والأقدار تترفق بالواحات ، وتدفع إليها فى الشدائد والملمات — كان الرجل قد تخاذلت قدماه ، فبدا له أن يضع العبء على الأرض ويتأمل الحياة .

إنه يجدها شوهاء نكراء ، لا منفذ فيها لرجاء ، اللهم إلا تانك العينان اللتان تكران فيها إلى الوراء ، وتانك العدستان التى تقربان منها البعيد .

ويقبل عليها يطل من عينيها على الماضى ، ومن عدستيها على الذكرى ، وهى من ورائهما فسيحة الأرجاء ، طليقة الرحاب ، قد أسدل فيها ستار على كل باب ، وعهد الزمن إلى أبنائه بتلك الأبواب . و يزيح له الصبا ستاراً من تلك الأستار ، فإذا طفل على صورته فى الثالثة من عمره ، تحمله امرأة ليست بأمه ، وحولها مأتم قائم ، وعويل صاخب دائم . ويكتنف الطفل الغموض فلا يدرى على التحقيق ما يداخل الطفل من مأتم أبيه ؛ فقد تركه فى الثانية من عمره ، وكان اليوم تمام العام على موته .

و يرى الطفل بعد ذلك فى كنف أمه ترعاه ، وتحت سلطان الأكبر من إخوته يهمله ؛ الأم تضربه لتؤدبه ، والأخ يضربه ليعذبه . الأم تدخر له لتعلمه ، والأخ يبدد ما تدخره له . والطفل فى تلك الأثناء ينمو على صورة ما ؛ إذا جاء أمه باكياً من عبث الصغار انتهرته ، فتعلم ألا يبكى من العبث ؛ و إذا

قصد إلى أخيه ليقضى له أمراً ، منعه إياه ، وألحق به أذاه ، فتعلّم كبت الشهوات ورياضة النفس على الحرمان .

ويتأمل الرجل من عدستى الحياة ويطيل التأمل وقد أهمته سيرة الصبى ، فيجده يخدم أخاه الأكبر على المائدة ولا يؤاكله ، وأخوه الأكبر يتزود من الأطايب بالنصيب الأوفر ، ويدع لأخويه الصغيرين والأم النصيب الأصغر . وتقطع الأم ولديها نصيبها القليل ، فيعتاد الطفل الرضا بالقليل ، وألا يطمع فى غير عطف الأم وهو جد كثير .

ويرى الطفل ذاهباً إلى المدرسة خالى الجيب ، ليس فيه مما يشتهى الأطفال قليل أو كثير . ويعود الطفل من المدرسة فيلزمه أخوه البيت بحجة المذاكرة ، فينشأ قعيد البيت ، أليف ما يتردد عليه ، قريباً من بنات الجيران ، حبيبات إليه .

ويروع المتأمل أن يرى طفله يعرج فى ساحة الذكرى على منعطف الأوزار ، فيقف بالغريزة وهو بعد صبى فى العاشرة ، وهى امرأة قوية شديدة البأس . ويراها تداعبه وتحتضنه ، وتلقى به إلى بناتها يتلقفنه وهن بعد غرار ، فيعبثن به ويعبث بهن وهن وراء الأستار . وتدعوه إحداهن فيستجيب لها ، وتغريه كبراهن فيسىء الاختيار ، وينصرف عن المذاكرة إلى المعابثة ، ويحسن من الدرس علم الكلام ، ويرهف من الحس عاطفة الهيام .

ويتابعه المتأمل فى الثانية عشرة إلى المدرسة ، فيلفيه المختار بين الصغار ، والمتحدث الذى لا يشق له غبار . ويقدم إلى الشخصيات العظيمة ليلقى كلمة الترحاب ، ويقف فى مواقف الكلام ملء الإهاب .

فيغتبط المتأمل بمرأى طفله ومشهد ماضيه ، ويرتد عن عدسة الحياة إلى تأمل الحياة ، فيجدها هذه المرة باسمة ، ويجد ما كان تشوه منها قد برئ من العيوب والأسقام ، ويجد الرجاء يطل من عينيها وفى يده خيط يربط ماضى الغلام فى الثانية عشرة بحاضر الرجل فى الخمسين ؛ فيحتملها عن الأرض يكاد لا يحس لها وزناً ، ويضعها على كتفيه لا تحسان لها وقراً . ويسير منتصب القامة والحياة أمامه ووراءه ، وعن يمينه وعن شماله ، مرحة ضاحكة ، لاهية لاعبة . ويبلغ الواحة والأقدار ساهية ، ويدخلها والآمال فيها حوض من زهر يسقى من كوثر ، فيطيب له الجلوس على حافة الحوض الأزهر ، وتنقلب حياته فراشاً زاهياً يتنقل بين هذه الأزهار ، ويتغذى بآمالها الكبار والصغار . ويفيض الشعر من حوله

جدولا منساباً ، وغديراً وثاباً ؛ وتنسجم مشاعره فهي رائحة غادية ، مختالة متهادية . وينفسح خياله ليتلقى العرائس الهابطة السابحة ، والحياة تضم هذا كله ولا تفلته، وتلمه ولا تشتته .

ويتعب الخيال من كثرة ما جاب في واحته فينام ، ويرى الحقيقة في منامه فيحاول اللياذ بالفرار ، فهي عدوته من قديم الزمان ، ولها عليه سلطان ، يغمره آناً وينحسر في أكثر الأحيان . فتعاجله الحقيقة بوخزة من إبرتها فتهبط فقاعته ، وتركد حركته ، ويزول سلطان الخيال عن الرجل الجوال ، الساكن إلى نعمى الآمال . وتقص الحقيقة ذلك الخيط الذي ربط به الرجاء ماضي الغلام بحاضر الرجل ، ويتحول الفراش الخفيف إلى هولة ثقيلة ينوء بها كاهله ، ويحس نشوب أظفارها في تينك الكتفين اللتين عاودهما الهزال ، وعاودت عليهما الحياة الربوض والإثقال .

ويرتد الرجل إلى صحراء الأقدار تتنكر له من جديد ، وتصطف أمامه الهموم للهجوم ، وتضرب حوله نطاقاً من نار وحديد . إنه يعود إلى دنيا الحقيقة : دنيا الحنظل والأشواك ، ويحس حياته فوق كتفيه مرهِقة مرهَقة . ويتمثل له العمل الذي يزاوله يصطدم فيه بعقد النفس ومركبات النقص ، وينغص عليه العيش . وعمله بين هذه الهموم يزامله فيه أصدقاء شر من الخصوم ، همهم الكيد له في الصميم ؛ كلهم يبسم له ، وكلهم يسقيه في ابتسامته شراباً من حميم . يعلم سبلهم ويعفّ عن انتهاجها ، ويرى مكرهم ويأبى أن يمكر بهم .

ويتبين بين الهموم همًّا يحاول أن يخرج عن الصف ويشب عن الطوق ليخنقه : هو تلك الطفلة التي رباها صغيرة ورعاها كبيرة ، وكانت أنسه وغبطته . تلك التي أبقت عليه شبابه ، فلما فارقته أحس دبيب الكهولة يسري في عظامه ، والأرق يقتحم عليه كل ليلة منامه ، والذكرى تطغى عليه فتثير آلامه . يراها بعين القلب حين يأوي إلى فراشه ، فتشتد لوعته ، ويفيض حنينه ، ويظل الساعات يتقلب على جنبيه والنار تلهب جوانحه ، وتكوى ضلوعه . وقد يظل الليل بطوله على هذه الحال ، فاذا نهض من نومه تمثلها بعين الخيال ، فتظل الساعات في البيت وفي الطريق وفي المكتب ، ثم في البيت ثانية نصب عينه ، ومرمى فكره ، وشغله الشاغل . فهي سهومه ووجومه ، وهي يأسه القاتل ، بعد أن باتت أمله الزائل .

وبين الهموم هم يحاول ألا ينخرط فى هذا السلك ، وأن يشيع فى الظلماء النور ، وفى الدهماء الحبور . إنها امرأته التى تزوجها صغيرة دون العشرين ، غريرة لم تبلغ الرشد ، نحيلة عليلة ، هادئة قانعة ، لا تكلفه مالا يطيق ، وتحتمله وقت الضيق .

كانت دون ما يطلب وفوق ما يستحق . لم يدر حين تزوجها أيحبها أم لا يكترث بها ، أتسعده أم يشقى بها . وما يزال بعد عمر طويل يسأل نفسه هذا السؤال ، ولا يدرى ما المآل .

تخلص له ، وتتعهد حاجاته ، وتماشى رغباته ، وتضحى فى ذلك بالكثير من راحتها ، وتذلل العصىّ من مشيئتها ، وتهيئ له من أسباب الهناء ما هو خليق أن يهنئه ، فلا يهنئه .

رزقها الله منه بنت شد ما اشتاقت أن تعززها بولد ، فشاءت الأقدار أن تحرمها البنت ، وتحبس عنها الولد . ولم يعزّها أنه يذكر من ماتت ويبكيها ، ويعزف عن كل من لعله يعوضه منها فينساها .

ترفع فى بيته مشعلا من الإخلاص تعصف به الأيام بين الحين والحين ، فتذبذب شعلته فلا تستقيم . لكن شيئاً لم يستطع أن يطفئه رغم ما عمل على إطفائه ، ولم ينفع هبوب الأقدار عليه إلا فى اتساع شعلته وانتشار ضيائه .

وبين الهموم ما يخطف على خاطره كالبرق فلا يضيئه ، بل يسدد سهمه إلى فكره فيدميه ويشيع الاضطراب فيه . فهذه حاشية تعرض له فى حاضره كما يعرض الشريط : هذا أخ ينهش فى لحمه فيجرّحه ، وهذا صديق يأخذ من ماله ووفائه فينكر كليهما : المال والصديق . وهذه أخت حنا عليها ، وصان أصغريها ، ولم يدع مناسبة إلا سعى إليها ، وتذكر أعيادها فأهدى إليها الهدايا ، وأعرست وأنجبت فأجزل لها العطايا ، وأساء وأساءت فما أسر لها حفيظة ؛ حتى رآها تتغير ، وبدا عليه أنه تغير وما تغيَّر ، فما هى إلا أن تصطدم مصلحة لها حقيرة ، بمصلحة له جليلة ، حتى تنقلب أفعى تلدغ ، ونمرة تنهش ، وحتى يمتد لسانها عليه ، فلا ينقطع من الخجل قبل وصوله إليه ، فيبهت كالذى كفر وما كفر ، ولكن كفرت وما بُهتت .

ونفسه التى بين جنبيه أشد همومه ، فهو محبوب مكروه : يحبه من يحبه فيسرف فى حبه ، ويكرهه من يكرهه فيسرف فى كرهه . لا يعرف مبغضوه ألاّ

يكترثوا له ، ويعرف هو دائماً ألا يكترث لهم . لا يمس إحساس أحد ، ويغضى عن كثير ، ولا يتعهد علاقة ، ولا يقطعها بيده ؛ ويحيط نفسه بسياج من التحفظ لا يقرِّب أحداً منه ، ويرفع أحياناً ستار التحفظ فيعلقه من يقربه ، ثم لا يلبث حين يسدل الستار أن يفلته . يعيش مع نفسه لغيره أكثر مما يعيش لنفسه ، ويحفظ غيبة الناس ، والناس لا تحفظ غيبته . يتكدر ويصفو ، فلا يحتفظ بعد الصفو براسب الكدر ، ويبدو له الغل والسخيمة فلا تفوزان منه بغير الهذر ، ويفطن إلى السيئة الخفية فيثور ثورة القدر . رقيق الحاشية ، شديد التهذيب ، لا يلقى مع ذلك إقبالا ، دقيق شديد التدقيق ، لا يشجع اتصالا .

مايزال الرجل فى صحراء الأقدار يخب فيها ويضع ، ويترجح إلى أمام ووراء . وما تزال تلك الهولة المهولة المسماة بالحياة رابضة فوق كتفيه ، يهولها تربص الهموم فتزداد تشبثاً بالكاهل ، ويزداد ضغطها عليه . لكن الرجل يسمع من بعيد وقع عكاز ، فيلتفت فيرى عجوزاً تدب . إن بينه وبينها شقة ما تزال بعيدة ، وهذه العجوز من دأبها أن تسير ببطء ، لكنها هذه المرة تغذ السير وتحجل كالغراب . إنها تحاول أن تدركه لتزامل الحياة على كتفيه ، وقد تنتظر الحياة حتى تدركها الشيخوخة ، وقد تخطفها الهموم قبل الأوان .

لقد زهدت الإقامة فوق كتفى الرجل على كل حال ، وقد لا يطول المقام بها فوق ما طال ، فالحياة لا بد مفارقة .

محمود ا. الدسوقى

الأثر الأخير لزعماء الفن

إن تعاقب الأساليب — بحيث يدل كل منها على فكر فني خاص بل على موقف مختلف من الحياة — ظاهرة يمتاز بها العالم الغربي . فالاتجاه الفلسفي والفني في الأسلوب الغوطي gothique يناقض كل المناقضة اتجاه عصر النهضة، ومن جهة أخرى لا يقل هذا اختلافاً عن اتجاه العصر التالي أي نحو الشذوذ le baroque . فليس هنالك نمو منطقي أو نضج لفكرة واحدة قد يمكننا تتبعها في مختلف مراحلها . ذلك أن تلك الأساليب تخلو في الواقع من أي رباط داخلي ولم يستقر كل منها إلا بضعة أجيال .

هذه التقلبات — وكثيراً ما تكون فجائية تتناقض في معظم الأحيان تناقضاً حاداً — تحملنا على الاعتقاد أنه في ميدان الفكر كما هو الأمر في العالم الطبيعي يلعب قانون الفعل ورد الفعل دوره . ومع ذلك فالحضارة الصينية لا تعرف إلا أسلوباً واحداً وهو الأسلوب الصيني ، وتتجه في تنقلاتها البطيئة المطردة نحو غاية واحدة دون غيرها ، مظهرة بذلك القانون الدفين في كل كائن عضوي وهو قانون الحياة . ومثل ذلك يحدث في الفنين الفرعوني والعربي . فكل انقلاب فجائي يفسر هنالك بتدخل عناصر خارجية كطروء جنس جديد من الناس أو تغير في الموقع الجغرافي .

غير أنه فيما وراء هذه الأساليب المتنوعة المتباينة التي يخضع لها منشئو هذا العصر، بل فيما وراء ما يمكن أن يوجد من أسلوب شخصي قد يستطيع الانسان ، سواء كان سابقاً لعصره أو متنبئاً ، أن يبتكره معارضاً للأسلوب المقرر ، ومستقلا عن التيارات والنماذج الفنية المتوارثة ، فيما وراء هذا كله نلقى من حين إلى حين أسلوباً يتجاوز كل هذه المقتضيات . في هذه الظاهرة تصطدم عوامل بيولوجية باتجاهات معنوية بحتة . وتحملنا هذه الظاهرة على الاعتقاد أن كل فنان ، سواء كان غوطياً أو شاذاً ، شاعراً أو موسيقياً ، يتخذ في بعض أطوار حياته أسلوباً خاصاً وثيق الارتباط بسنه . وكذلك يظهر التناقض بين التوقيت الذي يعرضه المؤرخ ،

والتوقيت الذى تعرضه الحياة ، وتصبح دقات القلب مقياساً لا يستطيع علم التاريخ إنكاره .

تبدو القرون للمؤرخ مغمورة بضوء متساوٍ ، خالية من الأيام والليالى والفصول ، ويوضع فيها الناس وبينهم المنشئون وضعاً متشابهاً دون أى اعتبار لظروفهم الانسانية . غير أن مقاييس الزمان هذه ، وهى حدود ضرورية بالرغم من جمودها ، ليست إلا نتيجة الخيال . فليس لنا بد من الاعتراف بأنه إذا كان عصر من العصور مجرد زمن محدد نميل إلى اعتباره واقعة ثابتة ، فانما يكونه أناس ذوو حيوية متنوعة وأسنان مختلفة . و إذا كان الوجه الذى يضيفه إلى عصر من العصور ينعكس على المبتكرين من أهله — ولكل من الأجيال لونه وملامحه — و إذا كان توقيت الميلاد والوفاة يطوق فى آن واحد نظاماً من النظم السياسية و يحدد لحظة تاريخية بعينها ، فان معرفة سن المبتكر عند ابتكاره يعين كثيراً على تفهم الأثر وسره . وفى الحق أننا بهذا نعرض للجبر تأثيراً لا يخلو من الغلو ونغض فى الظاهر من حرية الفنان . ولكن إذا قبلنا أن الفن متأثر بنظام يأتلف فيه الجنس والعصر والموقع الجغرافى والظروف الاجتماعية فى توازن لا يكفله إلا تضامن تلك العناصر جميعاً ، فان إضافة المؤثر البيولوجى عند الفرد لن يزيد من قوة هذا الجبر كثيراً . فالفنان يتأثر بسنه وبتجربته فى هذه السن ، كما يتأثر بجماعته الروحية و بجنسه وعصره . وهكذا يظهر عامل جديد يجدر بنا أن نتعمقه كل التعمق .

فاذا عرضنا على هذا النحو لآثار رانبرانت **Rembrandt** أو ميكيل أنجلو **Michel-Ange** أو بيتهوفن **Beethoven** أو تولستوى **Tolstoï** أو جوته **Gœthe** أو سيزان **Cézanne** ، تلك الآثار التى ابتكروها فى الثلاثين من أعمارهم ، فسنجد عناصر متشابهة لا تظهر فى الآثار التى ابتكروها حين تقدمت بهم السن . فهذه العناصر نتيجة مباشرة لسن الفنان ولتصور حياته وإلى ما له فى هذه السن من تجارب . و إذا أتيح للفنان أن يبلغ بحياته السن التى قدرتها الطبيعة عادة للانسان ، هنالك يظهر فى الآثار التى أنشأها فى الستين من عمره أسلوب ترتسم فيه خصائص متشابهة معينة بحيث يمكننا أن نتحدث عن أسلوب للشيخوخة . إذا أنشأ الفنانون آثاراً فى أواخر حياتهم ، مهما تباعدوا فى الزمان والمكان ، فان هذه الآثار تتشابه تشابهاً غريباً فى حرصها على الأشكال القررة وفى تناول الموضوع . ومن الواضح أن هذه الظاهرة لا ترى عند هؤلاء الفنانين ،

الكثيرين ، الذين فارقوا الحياة وهم شبان سواء كان ذلك عن مرض أو موت عنيف .

إن التحليل المنطقى الذى نحاوله لنعرف أسلوب الشيخوخة أمر يسير جدًّا فى الفنون التشكيلية Arts Plastiques كالنحت والتصوير ، ولكنه عسير فى الموسيقى . ذلك أن طابع هذه الفنون نفسه مادى ، وأن الفنون نفسها أقرب إلى المادة من سائر فروع الفن ، ولأننا كثيراً ما نرى الفنان يتناول الموضوع نفسه مراراً أثناء حياته . ففى هذه الحال تكون المقارنة منتجة . فان اتحاد الموضوع يبرز بوضوح مظاهر لتعديل الآثار التى تتأثر بها القيم المختلفة للأثر .

ويقدم لنا ميكيل أنجلو جميع عناصر المقارنة . فقد تناول الفنان موضوع التقوى *La Pietà* والأم الثكلى *Mater Dolorosa* مرات ثلاثاً : الأولى فى سن العشرين والثانية فى سن الخمسين والثالثة فى العام الثامن والثمانين من عمره . ثلاثة مراحل سلكها الفنان وثلاث محاولات لموضوع واحد تقوم فى هذه المراحل مقام الأعلام ، وفى كل منها ملامح لمظهر نفسى عند رجل ذى نضج خاص .

والمحاولة الأولى (سنة ١٤٩٩) وهى الآن فى كاتدرائية القديس بطرس بروما ، من آثاره الأولى . وقد صنعها بناء على طلب خاص . وهذا مهم إذ يحق لنا أن نتساءل أكان ميكيل أنجلو فى عمره هذا قد يختار عمداً مثل هذا الموضوع . فى الواقع أن ذلك الموضوع ، أى الأم الباكية على جثة ابنها الذى أنزل من على الصليب والذى يرقد للمرة الأخيرة على حجر أمه قبل أن يودع القبر ، نادراً ما يرى فى إيطاليا لطابعه المؤثر . فقديكون بطبيعته هذه أعظم حظًّا من ملاءمة طبع الشعوب الجرمانية التى تميل إلى المأساة . ولم يتأثر ميكيل أنجلو إطلاقاً بالتقاليد . فحله للموضوع حر شخصى وملائم لمزاجه . إن أهم الأمور للفنان شأناً ، وهو الذى يوجه إليه كل جهده الفنى ، هو إنشاء مجموعة يجب أن تضم شخصين . وهذا أمر قاس من ناحية النحت وشاق فى نفس الوقت إذ أنه يجب أن يوازن حركتين متناقضتين وهما : حركة العذراء الجالسة فى وضع عمودى ، وحركة الجثة الراقدة على حجرها فى وضع أفقى . وقد حل ميكيل أنجلو هذه المشكلة بعبقرية فذة . فبواسطة الملابس وانحناء خفيف فى جذع العذراء والتواء فى جسم المسيح تنسجم هاتان الحركتان فى قالب واحد ، يسوده توازن تام وانسجام بديع ، بحيث يمكن أن يطوق هرم متساوى الأضلاع هذا الهيكل النقى للمجموعة ، وتصبغ عليه

القاعدة الواسعة من الاستقرار الهادئ والاتزان الكامل ما لا يمكن أن ينال منه أى تعبير متألم أو معذب . أما الأشخاص فقد سما ميكيل أنجلو بها،ولكنه راعى فى أشد الدقة الحقيقة الطبيعية . فتناسب الأعضاء ونظام الطيات والملابس التى تستجيب فى حركاتها لقانون الثقل وخصائص النسيج ،كل ذلك أنجز بعناية ودقة رائعة . فلم يبتعد الفنان مطلقاً عن النموذج بل على العكس أطنب فى التفاصيل مثل العروق الناتئة على يدى المسيح اللتين تتدليان هامدتين ، والأثناء الدقاق على قرطق العذراء ، كل ذلك أنجز بشغف بالغ لعله أن يعرض الناحية الروحية لبعض الخطر .

إن ثروة العالم الطبيعى وتنوع ما فيه من صور يجتذبان الفنان الشاب اجتذاباً عظيما ، فمذهبه الطبيعى الواقعى بما فيه من مراعاة لجميع التفاصيل ناتج عن ذلك . ألم تعنه القيم الروحية والدينية ومظهر الحزن على وجه العذراء فى هذه اللحظة المؤثرة ؟ ألم تؤهله بعد تجاربه الشخصية على فهم ذلك ؟ مهما يكن من شئ ، فوجه العذراء التقليدى (الكلاسيكى) الهادئ لا تغير فيه أى علامة من علائم الحزن .

وقد لوحظ دائماً أن هذا الحزن أياًّ لا يعبر عنه إلا باشارة اليد ، هذه التى تبسط لتدل على إعياء قد بلغ أقصاه .

وبعد سبعين عاماً تناول ميكيل أنجلو نفس الموضوع ،ولكنه فى هذه المرة قد قاده إليه الاختيار،بل كان الفنان قد خصص ذلك الأثر بضريحه هو ، وهو آخر ما نحتته يده . ولنلاحظ أن ميكيل أنجلو تناول هذا الموضوع قبل ذلك بعشر سنين ولكنه لم يتم هذه البييتا ، وهى الآن فى كنيسة سانتا ماريا نوفللا Santa Maria Novella بفلورانس . وكثرت الأساطير حول هذا الأثر ولكننا لم نعرف ما هو الباعث الحقيقى الذى حمل الفنان على ترك هذا العمل . ولعله لم يجد نفسه بعد قادراً على ذلك ، فكان كل عذر كرداءة المادة مثلا كافياً لصرفه عنه . غير أن كثيرا من تخطيطاته تدل على أن هذا الموضوع كان يشغله منذ عهد بعيد . و إذا نظرنا إلى المراحل المختلفة نراها تعبر عن تحول فى موقف الفنان من تصوير الموضوع . فهو يترك الوصف التقليدى للأم التى تبكى ابنها ، وشيئاً فشيئاً يظهر تعبير جديد يصور الألم فى نفسه ، بل اليأس المطلق .

وكذلك يظهر الاختلاف بين المحاولة الأولى والمحاولة الأخيرة فى كل عنصر

من عناصر الأثر . فالمظهر الغريب من مظاهر التمثال يترجم عن أسلوب جديد ويحدثنا بلغة فنية تخالف كل المخالفة لغة التمثال الذى أنشئ سنة ١٤٩٩ . وقد استبدل الفنان بالهرم القديم ، وهو رمز توازن ورصانة لا شخصية لها ، صورة طويلة نحيفة متداعية كأنها عمود مثير للحزن لا حركة فيه إلا إلى أعلى كما يتحرك اللهب فى ارتفاع مطلق . ومثل هذا ما يرى فى التماثيل الغوطية حيث تتحد جميع عناصر الانشاء فى اتجاه واحد ، أى اتجاه واحد نحو الارتفاع ، وهو رمز السمو الفكرى .

وفى إثر سنة ١٤٩٩ تبدو العذراء شابة جميلة ، أما فى إثر ١٥٧٠ فوجهها ذابل وجسمها نحيل وحركاتها منقبضة . ولم يعنى الفنان باظهار معالمها ، فالأسلوب فى غاية الايجاز ، فهو يبسط ويوحى ، وهو ليس فى حاجة إلى أن يفسر أو يعلل وصفاً قد يكون فى الواقع محالا . وليست هناك فائدة من الوقوف عند تفصيل الوجه والملابس والأوضاع .

وقد اكتفى فى النحت رسم الخطوط الكبرى ، فأصبح الأثر وكأنه تجرد من كل المظاهر التى تصل بينه وبين العالم الواقعى . بناء رقيق بحيث لا توجد الصورة إلا لتكون وسيلة إلى التعبير ، وقد سمت المادة حتى برئت من كل كثافة وصلابة . وقد أهمل ميكيل أنجلو القيم الحسية إن لم يكن قد ألغاها ، وسلط على أعصابنا سحراً خلاباً فأثبت فى هذا الأثر مظهره الجديد . كل شئ فيه يعين على وصف الألم و إعلان اليأس . وهنا كذلك يرتفع ميكيل أنجلو بموضوعه إلى عالم آخر . فاذا كان كل ثنى وكل ظل وكل انحناء فى الحجر يصور الألم ، فليس المراد هنا ألم العذراء ولا تصوير مأساة بعينها ، و إنما البيتا التقليدية تعلة يتوسل بها إلى إنشاء صورة للألم فى أبعد أعماقه . وكذلك يرفع الفنان الشيخ ، وهو على حافة القبر ، يرفع قصة بعينها إلى حيث تصبح رمزاً إنسانياً ، فقد فهم المعنى الدقيق لحادثة بعينها . أعانته على هذا الفهم حياته بما ملأها من التجارب القاسية . ونحن نعلم أن هذا الوثنى الملحد قد صار فى آخر حياته إلى التصوف ، تدل على ذلك المقطوعة التى يهديها إلى صديقته الكبيرة فتوريا كوللونا Vittoria Collona التى تصور الايمان وتصور معه الأذعان للألم .

فاعراضه عن العناية بالتفصيل وازدراؤه لكل مذهب طبيعى ، ليس إلا نتيجة لتغير دقيق داخلى يلتمس لنفسه تعبيراً جديداً . وكذلك يتحقق الافتراق

بين مادة العالم الواقعي وطبيعة العالم الروحي ، ويصبح من غير المفيد تصوير الغلاف الخارجي . وللتعبير عن الفكرة يجب الاعراض عن كل اتجاه طبيعي والاتجاه إلى اختراع أسلوب جديد مجرد . ومن ناحية أخرى يجب أن يمتنع الفنان عن كل تعبير شخصي إذا أراد أن يصور فكرة عامة ، هنالك تظهر هذه الصورة المجردة العارية كأنما كشفت عن عمد لتشمل الفكرة البحتة ،والخلاصة الأخيرة لكل حياة إنسانية .

ونلاحظ الظاهرة نفسها عند رامبرانت . ولنختر بين آثاره التي استحدثها في الشباب عودة الابن الضال . فقد أنشئت سنة ١٦٣٦ إذ كان الفنان في الخامسة والعشرين من عمره . وإذ كان قد خلق الأثر خلقاً جديداً في السنة التي مات فيها ، فقد نستطيع أن نقارن بين هذين الأثرين كما قارنا بين أثري ميكيل أنجلو . فالصورة الأولى تطابق نص الكتاب المقدس مطابقة توشك أن تكون حرفية . وقد عرض المنظر في أمانة وهو ممتلئ حياة ومرحا ودهشة . لقد حدث حدث خطير . أتعرفه ؟ لقد عاد الفتى . ونحن نسمع الجيران والخدم يتساءلون ، ونراهم يستبقون إلى النوافذ والأبواب لينظروا إلى هذا الذي كان يظن أن غيبته كانت منقطعة . وهو يصعد السلم ويدخل البيت القديم ، وعليه أسماله وفي يده عصاه المعقدة التي اعتمد عليها في سفره الطويل . وهو يرى منزل الأسرة وجدرانه المتصدعة . وأبوه أمام الباب قائماً لاستقباله . يقص علينا رامبرانت هذا كله ويشركنا فيما يثير من الفرح والدهش واضطراب الأشخاص . لم يترك من ذلك شيئاً . وهو يعكف على كل تفصيل من كثير في الحب حريصاً على ألا يفوته شيء ونحن نقرأ في ملامح الوجوه وفي الثياب وفي الضوء ، ونمس الصدوع في جدران الدار . وثروة من الأقاصيص تمد النظر الذي نريد أن نحيط به المنظر . ولهذه الثروة بيئتها المحدودة ، فنحن نرى سعتها وحدودها بحيث نجد في الصورة وصفاً أميناً كاملا .

ويعود رامبرانت إلى هذا الموضوع حين يبلغ الستين ، وهو شيخ فقير وحيد . يعود إلى هذا الموضوع في آخر حياته التي أنفقها كلها في إخلاص مطلق وفياً لنفسه ، يعود إليه بعد أن تناوله حين كان نشيطاً في عنفوان الشباب . واللوحة التي تصور عودة الابن الضال ، والمحفوظة في متحف الارميتاج بسان بطرسبرج ، مع صورته الأخيرة المحفوظة في متحف ميونيخ ، تعد من أروع الآثار

الفنية التى أهداها إلينا النبوغ . وقد بقى الموضوع كما كان ، ولكن طريقة التعبير وسعت المنظر الذى رواه الكتاب المقدس فجعلته صورة للعفو والفهم وما يضطر الانسان إليه من الوحدة والانفراد . وقد تغيرت البيئة تغيراً تاماً ، وتغير معها الجو . فلسنا أمام الدهش الأول والابتهاج بالعودة . و إنما اختار رامبرانت هذه اللحظة الرائعة التى يلتقى فيها الأب وابنه والتى تنتهى فيها المغامرة إلى غايتها . والمكان غامض غير واضح الأعلام فليس له خطر . إنما هى حجرة نتوهمها ويلمح لنا بجدرانها ومعالمها تلميحاً خفيفاً . كل شئ يغمره ظل كثيف مذهب ولكن الوجوه والأيدى التى تشرق بنور داخلى تنشئ فى هذا الليل الشفاف من الظلال سمات واضحة . ليس فى المنظر حركة عنيفة ولا اضطراب ملحوظ . والأشخاص قائمون صامتون فى شئ من المهابة ، والأب قائم يرى مواجهة فى الجانب الأيسر من اللوحة وابنه جاث بين يديه . وفى الجانب الأيمن رفاق شيوخ يشهدون فى صمت رهيب وقوع حدث لانظير له . لايدار بينهم حديث ما ، فكل حديث فى هذا الظرف لغو ، لأن الشيوخ يتفاهمون بغير اللفظ . وهذا الفهم يتجاوز تبادل المعانى بين الناس ويبلغ أعمق دخائل الضمير . وهو يؤدى بالحركة التى تصدر عن الأب وحده حين يضع يديه على كتفى ابنه معبراً بذلك عن عفو لا تحفظ فيه ، هذه الحركة التى توشك أن تقول : إنى لأعلم أنك لم تكن تستطيع شيئاً ، فكلنا مضطر إلى هذه الحال . وهؤلاء الرجال الخمسة الصامتون الذين تلوح أشباحهم أكثر مما تظهر قد امتزجوا بالفضاء وقد غمرهم ظله المذهب حتى أنهم ليكونون معه شيئاً واحداً . لا يعملون شيئاً و إنما يخضعون كما يخضع الفضاء لقانون غامض لا سبيل إلى مخالفته ؛ فهم مذعنون لقضاء محتوم .

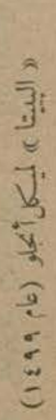
وكذلك يذهب رمبرانت فى آخر حياته مذهب ميكل أنجلو فيعرض عن المذهب الطبيعى الدقيق فى أسلوب شبابه ، ويترك ناحية الأقاصيص كما يترك كل استمتاع بالفن . كان فى أول أمره قاصاً أميناً لحادث بعينه ، يعرضه فى أدق تفصيل وفى طريقة موضوعية . كان فى ذلك الوقت ثنائى الشخصية : يأتلف من الفنان والعالم الواقعى الذى لايشارك هو فيه ، و إنما هو يترجم عنه فى صدق ، ويتحدث عنه حديث الغائب كما يتحدث القصاص عن أشخاص القصص . ويستطيع أن يدعونا كما يدعو القصاص قراءهم ليشعرنا بأنه يتحدث إلينا حديث المؤرخ . ولكن النابغتين حين يتناولان الموضوع نفسه فى آخر حياتهما ، نلاحظ

أن طريقتهما فى الانشاء تتغير تغيراً تاماً . وعلى ما بينهما من اختلاف فى الزمن يوشك أن يبلغ القرن ، ومن اختلاف فى الجنس ، فان هذا التغير يشعر بتحول واحد داخلى فى نفسيهما جميعاً . فليس واحد منهما يحاول أن يصور أو يقص نصاً من نصوص الكتاب المقدس . وهذا النص نفسه أليس رمزاً ؟ ولكن النابغتين فى طور الشباب لم يكونا ناضجين فى أكثر الظن ، أو لعلهما لم يحفلا بالرمز ، وإنما الذى كان يعنيهما هو الامكان التصويرى الذى كان النص المقدس يشتمل عليه . ولكن الزمن يمر ويتيح لهما الفهم . وقد فقدت ظواهر الأشياء جاذبيتها ، وخلت حوادث المنظر نفسها من قيمها الأولى . وأصبح المهم الآن شيئاً آخر هو الفكرة العامة التى توحى بها الحوادث ، والذين تجرى الحوادث على أيديهم مهما تتابع القرون . فلسنا بازاء عودة الابن الضال كما أننا لسنا بازاء حزن العذراء . كل ذلك رمز ، وترجمته الموضوعية ترتفع إلى حيث تصبح حقيقة خالدة . أكان الذين سطروا الكتاب المقدس شيوخاً كهؤلاء الذين يعطون الرمز معناه الحقيقى ؟

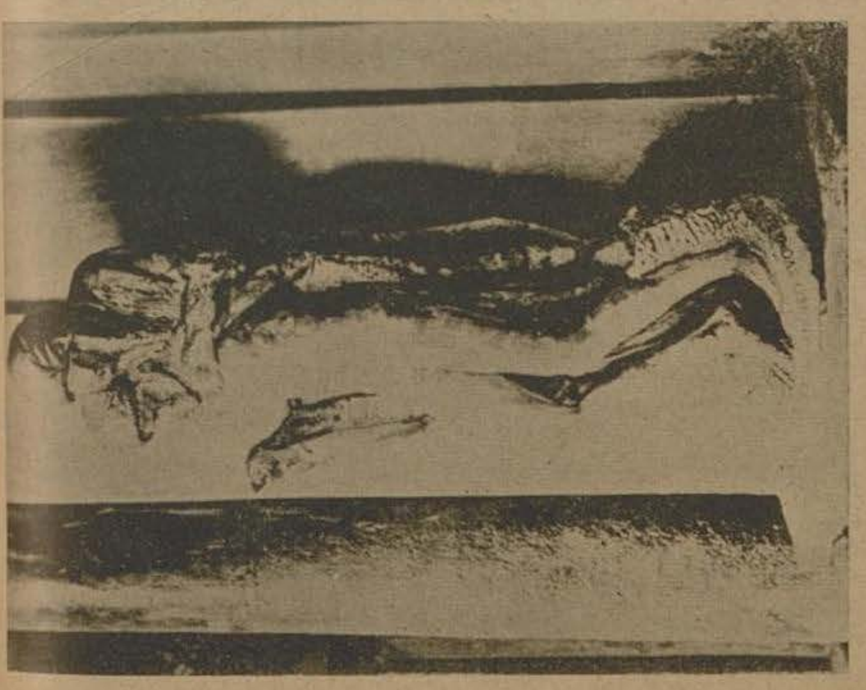
ونحن نجد عند رامبرانت فى شيخوخته ، كما وجدنا عند ميكل أنجلو ، هذه الآثار العارية التى لم يترك فيها مكان للمذهب الطبيعى ولا للتفصيل . ذلك أن الترجمة عن فكرة عامة وعن المأساة التى تصل بحياة الانسان تحتاج إلى أسلوب مجرد . وكذلك نلاحظ التعارض بين الشباب والشيخوخة ، كما نلاحظ التعارض بين التركيب والتجريد .

ونستطيع أن نمضى فى هذا البحث ، وأن نمد السلسلة ، ونتبع هذه الآثار لنرى الحياة تعمل بنفسها ، فتنشئ الصلة الدقيقة بين الأثر والدم الذى يجرى فى عروق منشئه . ولسنا نريد أن نضع قانوناً دقيقاً ، ولكن الشئ الذى لا شك فيه أن هذا النجم الفريد الذى هو الفنان يبقى حتى فى آخر الآثار التى يتركها لنا . ولكن لا يوجد الفنان الذى يستطيع أن يفلت من هذا السيل الجارف الذى يكتسح كل شئ ويغمر كل شئ ، وهو الزمن . وأى تحول دقيق لا يظهره لنا تيزيانو Le Titien فى إحدى لوحاته الأخيرة ، وهى تصور موضوعاً محبباً إليه إمرأة عارية مستلقية ومعها عشيقها . وهو موضوع من موضوعات الأساطير تناوله الفنان غير مرة فى حياته الفنية الطويلة . أى سلم من سلالم الشعور





« البيتا » لميكل أنجلو (عام ١٤٩٩)



«الأم الثكلى» لميكل أنجلو (عام ١٥٧٥)

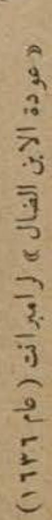
لم يعرض فى هذا الموضوع ؟ ولكن حين تقارن بين لوحة من أسلوبه فى أثناء الشباب ، وهى لوحة دنابيه(١) تحت الغيث الذهبى المحفوظة فى متحف فيين ، مع لوحة من أسلوب الشيخوخة محفوظة فى المتحف نفسه « النامف (٢) والراعى » نلاحظ نفس التحول : فجسم المرأة واحد تقريباً فى اللوحتين اللتين تشتركان شيئاً ما فى لون مذهب ، ولكن دنابيه تستقبل الغيث الذهبى فى سرير العرس . فيخيل إلينا أننا نسمع هفيف الحرير اللامع ورنين القطع الذهبية وصيحة الدهش تدفعها الخادم المروعة . وكأننا نحس حرارة الجسم النقى ، وبرد الذهب ، وكل هذه الجماعة من الاحساسات التى تتصل بالأذن واللمس والعين ، هذا النعيم النقى الذى تنقله إلينا هذه الأجسام الملساء الناعمة المعدنية التى تتكون من مواد متباينة ، حتى إن السحر ليداعب كل حواس الناظر إلى اللوحة . فاذا عاد تيزيانو بعد خمسين عاماً إلى هذا الموضوع الذى يؤثره احتفظ بمواده . فهى امرأة متجردة مستلقية وإلى جانبها عشيقها ، ولكن الجو يتغير تغيراً تاماً . فلسنا أمام الغرفة المترفة قد قام فيها السرير الواسع عليه كلة من القطيفة ، وإنما يقوم مقامها منظر من مناظر الأحلام : مغرب الشمس التى تلهب أشعتها الأخيرة السماء بحمرة قانية حيث ينشر الليل أستاره ، وشجرة جرداء ترفع عودها الملتوى ، وشئ حزين مروع كأنه الانتظار يضطرب فى الجو . والنامف ترى مستديرة وهى تلتفت إلى الراعى وقد جلس عند قدميها . لقد لعب بالمزمار وأتم اللعب وهو يمسك المزمار فى يده . واللحن ما زال يضطرب فى الهواء . وفى هذا الصمت الكثيف تسمع المرأة ويسمع الرجل ، اللذين لم يبقيا عاشقين ، لشئ قد مضى .

أيجب أن نعيد ما قدمنا ؟ فان تيزيانو فى شيخوخته كغيره من الفنانين قد ترك إغراقه فى الاحساس ذلك الذى ينطق به كل مادة أثناء الشباب ، وترك كما ترك غيره كل القيم التى كانت تروق العين وتتملق الحواس . أين تألق الألوان ؟ أين المواد الغنية المتموجة ؟ لقد ابتكر جواً جديداً عارياً شديد الكثافة ، فأضفى عليه واقعية مخالفة تلك التى كانت تتجه إلى الحواس .

وفى عصرنا هذا تعرض سيزان للتجربة التى تعرض لها سابقوه . فنحن نعرف أسلوبه الشاذ العنيف فى آثار الشباب ، والألوان الحارة والحركات الملتوية ، وكل

(١) فتاة من فتيات الأساطير أحبها كبير الآلهة فصور لها غيثا ذهبيا .
(٢) جيل من الالهات العذارى كان يعيش فى الماء والريف حسب الاساطير اليونانية .





« عودة الابن الضال » لرامبرانت (عام ١٦٣٦)



«عودة الابن الضال» لرامبرانت (نحو عام ١٦٦٨)

هذا الجو الحسى المثير الذى يصور الفنان يصارع شيطانه . ولكننا إذا قارنا آثاره الأولى مع آثاره التى ابتكرها بعد ذلك ، لاحظنا اختلافاً عظيما يضطرنا أن نسأل أنفسنا أصدرت هذه الآثار المختلفة عن فنان واحد . وقد يصل سيزان أكثر من غيره بتخفيف الخصائص الطبيعية فى تصويره إلى درجة من التعرية والتجريد توشك أن تتجاوز طبيعة الانسان تجاوزاً تاماً . ومع أنه يحتفظ بالموضوع فان التصور لم يصل قط عند غيره إلى هذا الحد من التجريد . ولعل مصدر ذلك أن تصوره للواقع الطبيعى فى الطور الأول من حياته كان قوياً عنيفاً .

فاذا حاولنا أن نعرف أتنطبق هذه الملاحظة على فنون أخرى غير النحت والتصوير ، فقد نرى أن أسلوب جوته يمتاز فى شيخوخته بصفاء خاص . هذا النابغة الممتاز الذى تمتزج حياته وآثاره امتزاجاً تاماً دقيقاً قد وعى على التقريب مراحل حياته كلها . كان نموذجاً لطبيعة قوية متصلة أدق الاتصال بدور الحياة العالمية ، فكان نموه كأنما يعكس الأحوال والفصول التى تأتلف منها حياة الانسان . هذه الحياة الرائعة الصافية المتوازنة تعبر كل المشكلات وكل التجارب ملائمة فى ذلك بينها وبين ما يختلف عليها من الأطوار . وهى بحدتها وقوتها البالغة توشك أن تكون تصويراً دقيقاً لهذه الحال .

فحركة تفكير جوته تصدر عن حرارة دمه ونحن نرى الأطوار الثلاثة التى تأتلف منها حياة الانسان ، وهى الشباب والكهولة والشيخوخة ، ترتسم فى آثاره كما ترتسم فى تفكيره الفلسفى واضحة خلابة . وأكثر من هذا أن جوته قدفصل بين هذه الأطوار . وكما أنه أنشأ آثاره الفنية ، فهو قد أنشأ قصة حياته الرائعة نفسها . فهو فى شبابه متأثر بأناكريون فى اندفاعه واضطراب عواطفه . وهو يختم هذا الطور بالذهاب إلى قصر ويمار . هنالك يصبح محافظاً بعد أن كان ثائراً متصوفاً ، وقد هدأت حياته واتخذت لنفسها غاية هى تنظيم دولة على نحو السياسة التى رسمها أفلاطون . وجوته فى هذا الطور وزير قبل كل شئ . فهو ينظر إلى الحياة من نواحيه المادية المركبة ، ونشاطه مقصور على مسائل عملية ، فهو معنى بتنظيم العلاقات بين الناس . ولكن هذا الطور الذى يحياه جوته فى قوة وعنف ينتهى إلى غايته ، ويدخل الكاتب فى الطور الأخير من أطواره . وفى هذا التنظيم الذى يهئ نوعاً جديداً من الحياة ، ولكنه يبدأ بهدم الحياة الأولى ، نشهد أزمة خطيرة ، فكل شئ ينهار قبل أن يستقر توازن جديد . ونفس أعظم

الناس تصبح فريسة لزوبعة عاصفة تهدم كل القيم والآراء التى كانت مقررة إلى الآن . وهذه الأزمة التى تفصل بين هذين الطورين من حياة جوته هى أعنف الأزمات التى نعرف أنها عرضت له . ولأجل أن يحرر جوته نفسه،ينزع نفسه من كل شئ ومن كل إنسان . يتخلص من كل الصلات التى كانت تربطه بويمار ، صلات الصداقة وصلات الحب،ويلغى كل ما كان ادخر ، حتى إذا وجد الحرية سافر كأنه هارب يمضى أمامه حتى يعبر الألب . وكما أن سفره إلى ويمار قد بدأ طوراً جديداً من حياته ، فسفره إلى إيطاليا قد بدأ طوراً آخر . وفى الحق أنه فى ظل الطبيعة الايطالية الصافية قد أخذ يجمع بين استقصاء كل القيم . وبعد امتحانها وتعديلها يصل إلى توازن جديد،ويقف من مشكلات الحياة موقفاً جديداً، ويستحيل من وزير إلى عالم . وأصبحت المشكلة التى تشغل هذا الطور من حياته هى مشكلة المعرفة ، معرفة القوانين المستقرة فى الصور المختلفة وقوانين التناسق التى يقوم عليها العالم . وهو يعنى بعلم النبات ، وبالتشريح ، ويصل إلى نتائج تجعله ممهداً لأصحاب التطور ، وهذا النشاط هو الذى يميز طور هذه الأزمة فى حياته . وهو يعود إلى ويمار ولكن مظهره بعد هذه العودة يكسب شيئاً من الجلال الذى يمتاز به هذا الكلاسيكى الفذ . ثم هو يرقى بقوة نشاطه العجيب إلى قمة من العظمة والكمال حتى يصبح جوته الشيخ رمزاً كما كان جوته الشاب .

ومع ذلك فهو كغيره من النابغين الذين انتهوا إلى الشيخوخة يترك الاتجاه الطبيعى الحاد والأوصاف الدقيقة المضطربة التى تتجه إلى الحواس كلها — وقد كان جوته مصوراً — كما يترك استقصاء العالم الطبيعى وسرعة الحركة ، ويعنى مكان هذا كله بالتفسير والتعليل . وتتغير لغته التى كانت غنية بالصفات والأفعال،فتصبح كلفة بالأسماء المجردة.ويدل ذلك على تحول يشبه التحول الذى لاحظناه عند غيره من الفنانين . ومنذ ذلك الوقت يصبح المعنى الخالص أعظم خطراً عند جوته من الظواهر ، وتقل فى آثاره الأوصاف التى كانت أثناء الشباب تملأ إنتاجه تشويقاً . يقوم مقامها تأمل الحكيم . وهناك تغيير فى نظره إلى نفسه . فألمه ولذته لم يبقيا إحساساً حياً ناشئاً عن حادث معين ، وإنما تتسع الأحداث وتعظم حتى تصبح فكرة عامة تحدث آثارها فى أعماق نفسه . وقد تستحيل الصور إلى شئ من الروحية يقوى من يوم إلى يوم حتى يصبح فى هذا الطور من أطواره رمزاً عقلياً لا حقيقة واقعة .

وهاتان المقطوعتان اللتان نريد أن نوازن بينهما قد صورتا عن حادث واحد محزن . فهما مرثيتان يبكي فيهما شخصاً عزيزاً . والموازنة بينهما تظهر التحول الذى كنا نترقبه . فأما الأول فيرثى فيها ممثلة شابة ، وأما الثانية فيرثى فيها صديقه شيلر . ففى المقطوعة الأولى يستحضر جوته صورة الفقيدة العزيزة : سحرها وجمالها وتفوقها . وهو يبكى فقدها ، و يرثى للذين لن يجدوا عنها عزاء . وأما مقطوعة شيلر فتبتدئ باستحضار نبوغ الفقيد . وبينما رثاء الممثلة يصور شخصية الشاعر والذكرى التى استبقاها ، نرى رثاء شيلر ، وهو أبلغ أثراً ، يرتفع إلى أسلوب مثير ولكنه لا شخصية فيه . وهو لا يشيد بملامح شيلر ولا بخصائصه المميزة له ، و إنما يشيد بالخصال التى جعلت منه مثالياً ممتازاً . فيصبح شيلر مشخصاً للرجل الكامل النبيل ، ففقده يسوء الانسانية كلها لأنها تفقد فيه رمزاً للنقاء . ثم يمضى الرثاء إلى لون آخر من الحزن ، فيندب قصر الحياة وسوء مصير الانسان ، ويصبح موت شيلر رمزاً للمأساة الانسانية كلها .

أنضيف كذلك قبل أن نختم هذا الحديث شيئاً عن الأسلوبين المختلفين على تخصصهما اللذين يعرف بهما بتهوفن ؟ أنقابل بين هذه الموضوعات الانسانية الحادة الحارة مع خصائصها الشكلية وتناسقها الفنى فى اعتدال ونقاء ، وبين هـذا التفوق الممتاز الذى يتصف به أسلوبه المجرد فى شيخوخته ؟ وأسلوبا تولستوى ؟ أنوازن بين قصة « القوزاق » هذا الأثر القوى العنيف وبين قصة « البعث » حيث يظهر الايمان المسيحى للتائب العظيم حتى فى عنوان القصة ؟ لقد كنا نريد بعض الأمثلة ونظن أن ما قدمناه يسمح لنا بالانتهاء إلى النتيجة : وهى أن هناك مؤثراً حيوياً يتصل بطبيعة المنشئ نفسه ، و يجب أن يضاف إلى قوانين الانتاج الفنى على ما فيها من التواء وتعقيد . ونحن نعلم أن مزاج الفنان وطبيعته قد لا يلائمان الأساليبَ المقررة ، بل قد يكون بينها وبينهما تعارض وتناقض ، وهنالك يمتنع الذوق العام على أثر الفنان ويقاومه حتى يتم لهذا الذوق العام نضجه . ولكن إلى جانب هذه الظاهرة التى تصور لنا حركة الزمان توجد ظاهرة أخرى تتحقق فى كل حال وفى كل فرد على حدة . فمهما يكن مكان الفنان وزمانه ، فهو إنسان من لحم ودم له قلقه ومطامعه . فاذا تقدم الانسان إلى آخرته وهم أن يصور مأساته فى صورها الأخيرة ، تضاءل تأثير الزمان والمكان والبيئة الاجتماعية . كان عالم شبابه مفعما بما كانت حواسه تحمل إليه من اللذات

والآلام ، كان صاخباً مندفعاً وكان حبه للاستطلاع يدفعه إلى التحليل . فأسلوبه كله يصور هذه الخصائص . ولكن وقتاً يأتى يفلت فيه الفنان من كل هذه الحدود بحيث تصبح آثاره الأخيرة ، على احتفاظها بنفس الخصائص التى امتازت بها آثار الشباب ، صورة لهذا الطور الذى يفرغ فيه الفنان بعد حياة العناء والجد والاستمتاع ، للتفكير والتأمل والتجريد . فيستكشف وراء الظواهر حقائق المأساة الانسانية التى لا مخرج منها إلا الايمان .

وكذلك يسيطر توقيت الحياة ويصبح الأثر الأخير من آثار الفنان معبرا فى هدوء وأناة عن هذه الشهادة الفنية الانسانية التى يسجلها المبتكرون .

هيلدبرنالوشر

الدكتور على ابراهيم باشا

كان أول عهدى به منذ أكثر من ربع قرن حين جلست منه مجلس الطالب المبتدئ من أستاذه الضخم ، حيث يباح للطالب أن يسرف فى الاعجاب باستاذه ؛ وآخر عهدى به قبيل وفاته بساعات حين جلست منه مجلس الصديق أشير عليه بما يخفف عنه بعض ألمه . فما كان حبى له وتقديرى إياه فى العهد الأول بأكثر منه فى العهد الأخير ، ولم يزدنى طول خبرتى به إلا إعجاباً . ومن الناس من تراه أعظم مايكون عن بعد، تتضاءل معه هفوات الرجال، ومنهم من لاتتبين طيب معدنه إلا عن قرب . وكان على ابراهيم فى كلتا الحالين موضع إجلال أقرب الناس إليه وأبعد الناس عنه .

ولعلى لا أجد وصفاً له أكثر دلالة عليه من أنه كان بناء ، فقد شيد كثيراً وكأنما عاهد على أن لا يترك شيئاً مما تفخر به البلاد الحديثة إلا أنشأ له شبيهاً فى مصر . وكان يرى أن ينشئ أولا وأن يترك للتطور الطبيعى أن يتم ما أنشأ . وقد عيب عليه ذلك ، ولكنه لم يكن يؤمن بالطفرة . وكان يرى أن الأمور يجب أن تبدأ صغيرة ، وأن علينا أن نبدأوعلى الزمن أن يستكمل النقص . وكانت فيه صفات تدق على غير البنائين ، فكان يضع نصب عينيه غايته لا يحيد عنها لأى أمر من الأمور ، وكان يرى أن الانشاء أهم كثيراً من المبادئ والنظريات . وكان أقدر الناس على التدبير الممتد لا تزعجه العقبات ؛ فان لم يستطع تذليلها احتال لها حتى لا تقف دون غايته ، وإن بعدت . فهو مثل حىّ لنوع من العقليات العملية التى لم ينتج الشرق منها الكثيرين إلا أخيراً ، وأنموذجاً للتفكير الموضوعى البحت الذى اعتاد الناس أن يروه أكثر ما يكون فى الأمم الشمالية ، حتى كاد يعدّ صفتهم الأولى .

وأكبر ماشيد على ابراهيم فى مصر الطب الحديث؛ فكلنا مدينون له بما هيأ لنا من وسائل إتقان ذلك العلم . ولكننا اهتدينا بهديه واحتذينا طريقته ، ولم يكن

له هو مثال يحتذيه ، بل اختط لنفسه سبيلا مبتكراً وحملنا عليه ، فلم يشذ أحد منا عنه حتى الآن . ثم أحكم صلتنا بالعلماء الغربيين ومهد السبيل للكثير من منا حتى لا نقل عن هؤلاء علماً وعملا ، وحبانا بكل ما أوتى من وسائل التشجيع ، وضرب لنا مثلا حياً لما يجب أن تكون عليه صلاتنا بهؤلاء العلماء . فقد كان أحب الناس إلى كبار الجراحين العالميين لما شاهدوه من علمه وفنه وحدبه على رقى الطب والأطباء . وله الفضل الأول أن أصبح الطب فى مصر مصرياً .

وهو عندنا جراح قبل كل شئ ، وجراحته صورة من نفسه . فكانت طريقته فى الجراحة طريقة الفنان : كل عملية له عملا فنياً جميلا . وكان يكره أن تلهيه صغار الأمور عن كبارها ، وكان لا يريد السرعة و إن كان سريعاً ، ولا يريد أن يدل على المهارة و إن كان ماهراً ، ولا يتوخى إلا الوصول إلى غايته من أسهل الطرق . وعنى عناية خاصة بجراحة البلاد الحارة ، وله فيها مبتكرات لم تزل عندنا المرجع الأكبر لهذه الأمراض .

وكلية الطب كلها من إنشائه . وعهدى بها وهى صغيرة مبانيها ، ضئيلة معاملها ، فقيرة فى الرجال والمال . وهى اليوم من أكبر المؤسسات ، ومعاملها ضخمة ، ورجال العلم فيها عديدون ، وإنتاجها كثير . ثم أنشأ الجمعية الطبية ورأسها طول حياته . وبنى دار الحكمة وأنشأ مجلتها وجعلها ندوة الأطباء ، ثم أحكم الصلة بينها وبين البلاد العربية ، فأصبحت مؤتمراتها حدثاً علمياً لا يعدله حدث آخر فى الشرق الأدنى كله . ثم أنشأ نقابة الأطباء وبذل فى ذلك جهداً مضنياً . وقامت دونه عقبات كبرى مدى عشرات السنين ، فلم يهن له عزم ، وساوم الهيئات المناوئة له كثيراً حتى تم له ما أراد من تنظيم طائفته ، وكانت من أعز أمانيه عليه .

ثم وجه همه إلى النواحى العلمية الأخرى ، وانتخب عضواً فى أكثر المجامع العلمية فى مصر . وكان له النصيب الأكبر فى تكوين الجامعة ، وكان يعدها عمله الأول . وكان حريصاً على أن لا يقف دون رقيها شئ ، ولم يبخل عليها يوماً بجهد أو مال ، وما زال بها حتى أصبحت ما هى عليه الآن . وكان فخوراً بها غاية الفخر . وله النصيب الأكبر فى الدعوة إلى إنشاء جامعة فاروق وتكوينها ، ولو امتدت به الحياة لدعى إلى جامعة أسيوط .

ثم شغل بالحياة الاجتماعية ، ورأس عدة مشروعات غايتها الاصلاح

الاجتماعى . وكان رأيه فى ذلك أن أى عمل ، وإن قل ، فهو كسب لبلاد لم تعهد من قبل عناية بالأمور الاجتماعية ، وإن إحياء الوعى الاجتماعى أمر يجب أن نعنى به جميعاً . فهذه المؤسسات الصغيرة لها دلالة كبرى ، وأثر يفوق كثيراً ما تؤديه من خدمات .

أما المؤسسات الكبرى التى رأسها فأهمها جمعية الهلال الأحمر . وأول صلته بها حين كان جراحاً موفداً من قبلها مع بعثة كبيرة إلى تركيا فى حرب البلقان ، ولم تنقطع صلته بها حتى أصبح لها رئيساً ، فأحياها وأصبحت من مؤسسات القطر الناجحة نجاحاً تاماً . ولم تكن هناك مؤسسة اجتماعية لها صلة بالطب إلا وهو رأسها المدبر : فقد حمل عبء مستشفى الجمعية الخيرية الاسلامية إلى أن قامت الحرب ، وساهم فى إدارة جمعية الاسعاف .

هذا ماخدم به الطب والعلم والاجتماع ، أما مانحن مدينون له به شخصياً فكثير جداً . وليس فى مصر طبيب لم يجد فيه الصديق الأوفى والأب الناصح ، وليس منا من لم يلجأ إليه فى شدة ، فوجد منه العطف والنصح السديد . وكنا جميعاً نعلم حين يجد الجد أن عنده الرأى الأسدّ .

وكان فوق ذلك الصديق المرح الذى تتلقفه المجالس لظرف حديثه وسرعة بديهته ، حاضر النكتة ، وكان أسرع الناس تفكيراً وأخصبهم ذهناً فى غير عنف ، تواتيه الآراء الصائبة فى غير جلد ولاعناء . وكانت نفسه كريمة صافية من كل ما يشوب صغار الناس ، خالية مما اصطلح الناس على تسميته العقد النفسية . وكان همه أن ينتج وأن يقوم بما يستطيع من خير ما دام له إليه سبيل.

أما الناحية الأخرى من حياته فهى حبه للفنون الاسلامية ، فقد جمع من السجاجيد القديمة والخزف القديم مايعد من خير المجموعات التى لدى الأفراد ، وكانت مصدر سرور له فى حياته وموضع شكواه فى مرضه الطويل ، ولم يكن فى مصر معرض فنى إلا وله فيه نصيب كبير .

وليس ذلك كل ما يقال عن أعماله ، فهى كثيرة يقصر دونها الحصر ، وفى بعضها ما يكفى أن يضعه فى الطبقة الأولى ممن خدموا بلادهم خدمات ستبقى على الزمن عنوان نهضتها وأساساً ثابتاً لرقيها .

محمد كامل حسين
أستاذ الجراحة بكلية الطب

مصطفى عبد الرازق

كان أحب شئ إليه المهل ، وأبغض شئ إليه السرع . كان مستأنياً إذا قال ، مستأنياً إذا فكر ، مستأنياً إذا عمل ، مستأنياً إذا سعى . وكان يؤثر بيتين من شعر أبى العلاء فى رثاء أبيه ويكثر إنشادهما ، ولعله كان يفضلهما على شعر أبى العلاء كله ، وهما قوله :

فيا ليت شعرى هل يخفّ وقاره إذا صار أحْدٌ فى القيامة كالعهن
وهل يرد الحوض الروىّ مبادراً مع الناس أم يخشى الزحام فيستأنى

ذلك إلى أنه كان وقور العقل والقلب والجسم ، وكنا نعرف منه ذلك ونداعبه به ونتندر بوصوله متأخراً فى كل موعد . وكنا إذا ارتبطنا معه بموعد أواجتماع قدرنا دائماً أنه سيصل متأخراً دقائق تكثر أوتقل . ليس لهذا كله مصدر إلا أنه كان مستأنى الطبع لا يحب العجلة فى شئ . وقد كان لهذه الأناة أثر بعيد فى حياته كلها ، فكان أقل الناس تورطاً فى خطأ لفظى أو عملى ؛ لأنه لم يكن يتكلم إلا عن تفكير ، ولم يكن يعمل إلا عن روية ، ولم يكن يحكم إلا عن بصيرة .

ويمكن أن نلاحظ أثر هذه الأناة فى صلاته بالناس . فما أعرف أن أحداً شكا منه أو أضمر له شرًّا أو احتفظ له فى نفسه بموجدة أو ضغينة ؛ لأنه كان مكفوف الأذى عن الناس جميعاً ، مبسوط الخير للناس جميعاً . وأكثر ما يسئ بعض الناس إلى بعض حين يعجلون فى الرأى والقول والعمل . ولم يكن يعجل فى شئ من هذا ؛ فلم يكن يسئ إلى أحد . وقد كان الناس يعجلون عليه فيلقونه بالكلمة النابية أحياناً ، ولكنه كان يعرف كيف يستأنى بهم ويحلم عليهم ويردهم إلى الحياء منه بل إلى الحياء من أنفسهم قبل أن يستحوا منه . وفى الطبيعة الانسانية شر كثير ؛ فقد كان بعض الناس يكيدون لهذا الرجل الذى برئت نفسه من الكيد ، ولكنه كان من طهارة القلب وصفاء النفس ونقاء

الضمير بحيث لا يؤذيه كيد الكائدين ، أو قل بحيث لا يبلغه كيد الكائدين . كان يرتفع عن الصغائر كلها ، وأى شئ أصغر من الكيد ! كانت صلاته بالناس كلها صفواً . وكان هذا الصفو يأتى منه أكثر مما يأتى من الناس ؛ وكان هذا الصفو يأتى منه لأنه كان يستأنى بالناس دائماً ولا يعجل عليهم فى شئ .

وأذكر أنه فى ذات عام من الأعوام تعرض لبعض الشر فى منصبه الذى كان يشغله بوزارة العدل ، فلم يعجل ولم يسرف على نفسه ولا على أحد بقول أو عمل ، وإنما ابتسم للمكروه حين أقبل عليه ، وابتسم للمكروه حين أدبر عنه ، ولم يصرفه هذا المكروه لحظة عن حياته النقية الصافية ، وصلاته الأبية الكريمة بالناس .

كان ثروت باشا رئيساً للحكومة، وكان الخلاف عنيفاً بين الحكومة والوفد ، وكان سعد بعيداً عن مصر فى منفاه فى أقصى الشرق أو فى أقصى الغرب، لا أذكر، وكانت أسرة مصطفى عبد الرازق مؤيدة للحكومة مخاصمة للوفد ، ولكن صلات قديمة كانت تصل بين سعد وبين أسرة عبد الرازق ، فلم تستطع الخصومة على عنفها أن تبلغ هذه الصلات فى قلب هذا الصديق الكريم . وقرأ الناس فى الصحف ذات يوم أن مصطفى عبد الرازق مر بدار سعد وترك بطاقته لمناسبة عيد من الأعياد ، فلم ينكر أصدقاء مصطفى من ذلك شيئاً . ولكن أيام العيد تنقضى ويستأنف مصطفى عمله فى وزارة العدل . وإنه لفى ذلك وإذا الوزير يدعوه فيسأله : أفى الحق أنك ذهبت إلى دار سعد ؟ قال مصطفى : نعم . قال الوزير : أتعلم أنك موظف ، وأن الموظفين لا ينبغى أن يسعوا إلى الدار التى تخاصم فيها الحكومة ؟ قال مصطفى : لا أعلم إلا أن بينى وبين سعد صلات مودة قديمة ، وأن أيسر الوفاء لهذا الود يفرض علىّ أن أمر بداره أيام العيد . قال الوزير : فانك منقول إلى أسيوط . فلم يزد مصطفى على أن ابتسم وانصرف .

وكان ثروت باشا غائباً عن القاهرة ، فلما عاد وصل إليه النبأ، فتقدم إلى وزير العدل فى أن يلغى هذا الأمر السخيف ؛ لأن ثروت باشا كان كمصطفى عبد الرازق يقدر صلات المودة بين الناس ، ويعلم أن لهذه الصلات حقوقاً لا يقصر فيها الرجل الكريم .

وأشهد لقد سمعت ثروت باشا يقول متضاحكا: سامح الله وزير العدل ! يريد أن يعاقب رجلا على مروءته .

وقد مضى مصطفى على هذه السيرة حياته كلها ، لم تعجله السياسة ولم تعجله

المنافع الخاصة ، ولم تعجله الظروف مهما تكن عن رعاية الحقوق كما ينبغى أن ترعى ، وعن الوفاء للناس كما ينبغى أن يكون الوفاء .

كان خلقه يرفعه عن الصغائر حتى ينزله منازل النجوم . وكان خلقه يهبط به إلى حيث حاجات الناس وآلامهم ومصالحهم ذات الخطر وغير ذات الخطر . فلم أر رجلا كان أرفع منه نفساً وأشد منه تواضعاً فى وقت واحد . وهل يكون التواضع إلا لأصحاب النفوس الرفيعة !

إن الذين يألمون لفقد مصطفى من أهله وذوى خاصته ومودته من الأصدقاء الأقربين ومن الذين وصلت بينه وبينهم شؤون الحياة الاجتماعية لقليلون جداً بالقياس إلى هؤلاء الناس الكثير من الذين لا يعرفهم أحد أو لا يكاد يعرفهم أحد ، والذين كان مصطفى يتلقاهم كما كان يتلقى أرفع الناس قدراً ، ويسعى إليهم كما كان يسعى إلى أرفع الناس قدراً ، ويرفق بهم كما كان يرفق بأقرب الناس إليه وآثرهم عنده ؛ لا يتكلف ذلك ولا يشق على نفسه به ، وإنما يراه شيئاً طبيعيا لا يحتاج إلى جهد أو عناء . كان يصنع ذلك حين كان طالباً فى الأزهر ، يسمر إذا أقبل الليل مع أرفع المصريين مكاناً فى داره ، ويسعى إذا أقبل النهار مع الطلاب من جميع الطبقات ، يسعى بينهم كواحد منهم لا يجدون منه كبراً ولا شيئاً يشبه الكبر . وكان يصنع ذلك بعد أن أصبح عالماً من العلماء وأستاذاً فى مدرسة القضاء . وكان يصنع ذلك طالباً فى أوربا مع رفاقه من المصريين والفرنسيين جميعاً قبل أن تثار الحرب الأولى وبعد أن أثيرت . وكان يصنع ذلك بعد أن عاد من أوربا وقد شغل المناصب المختلفة فى الأزهر ووزارة العدل وفى الجامعة بنوع خاص ، فى الجامعة حيث يسعى الفقر والغنى مصطحبين ، يظهر الغنى نفسه فى كثير من القحة ، ويخفى الفقر نفسه فى كثير من الحياء . فى الجامعة حيث يذهب بعض الطلاب فى السيارات وإن قربت الدار ، وحيث يذهب بعضهم سعياً على الأقدام وإن بعدت الدار . فى الجامعة حيث تؤدى قلة قليلة أجور الدرس عن سعة ، وحيث تشقى كثرة كثيرة بالعجز عن أداء هذه الأجور . فى الجامعة لا يكون الأستاذ الصالح أستاذاً صالحاً لأنه يلقى الدرس على وجهه ويعلم الشباب كما ينبغى أن يتعلموا فحسب ، وإنما يكون الأستاذ الصالح أستاذاً صالحاً حين يتفقد شؤون هؤلاء الشباب فى أناة وخفة ورفق ، وحين يعلم من خفى أمرهم ما يعلم ، فيصلحه بالحب والعطف والعون الذى لا يصدر عن تفضل ولا عن

تطول ، وإنما يصدر عن محبة ومودة ، لا يكاد يشعر به من يبذله ، ولا يكاد يشعر به من يتلقاه .

وأشهد لقد كان مصطفى أصلح الأساتذة جميعاً فى كلية الآداب من هذه الناحية التى لا يكون الأستاذ أستاذاً إلا بها .

هذا بعض آثار الأناة فى الصلات بين مصطفى وبين الناس . ولكن للأناة آثاراً أخرى فى حياته الخاصة ، فى حياة مصطفى الأديب الذى لم يكن يحب التعجل بما يكتب ولا بما يقول ، وإنما كان يختار اللفظ ويلائم بينه وبين المعنى ، يبذل فى ذلك أعنف الجهد وأقساه ، يخلو إلى ذلك حين يتفرق عنه الناس أى حين يتقدم الليل . يقتطع لذلك من وقت راحته ومن الوقت الذى كان ينبغى أن يختص به نفسه وأهله . يحكم المعنى ، ويحكم اختيار اللفظ لهذا المعنى ، ولا يكفيه ذلك حتى يلائم بين اللفظ واللفظ وبين المعنى والمعنى ، وحتى يخرج القطعة الأدبية كأنها قطعة الحلى قد صيغت كأحسن ما يصاغ الحلى على أدق أصول الفن وقواعده . وما أعرف أن أديباً معاصراً أتيحت له الاجادة الفنية كما أتيحت لمصطفى ، ومصدر ذلك أنه كان يستأنى بانتاجه ، ولا يعجل به .

وللأناة أثرها البالغ فى حياة مصطفى الأستاذ ، وفى حياة مصطفى الباحث ؛ فلم يكن يحب أن يتعجل بالدرس قبل أن يتقن إعداده كأحسن مايكون الاتقان ، ولم يكن يحب أن يتعجل تلاميذه بالفهم عنه ، وإنما كان يأخذهم بالأناة فى القراءة وفى الفهم وفى التفسير كما كان يأخذ نفسه بها . ومن أجل هذا كان له تلاميذ بأدق معانى هذه الكلمة بين الشباب الجامعيين . وكان يستأنى ببحثه عن أى مسألة من مسائل العلم ، يستقصى ما وسعه الاستقصاء ، ويحلل ما وجد إلى التحليل سبيلا ، ويقلب النص على كل وجه من وجوه التقليب ، ولا يتعجل بعد ذلك باصدار الحكم ، وإنما يضع أمامك النصوص ويعينك على فهمها واستخراج الحقائق منها .

ومن أجل هذه الأناة كان مصطفى أديباً مقلا ، وعالماً مقلا . ورب قليل خير من كثير .

لست أدرى أفرغ الناس من هذا الحزن العنيف الذى يصدم النفوس فيمنعها من التفكير والتأمل . وأكبر الظن أنهم لن يفرغوا من هذا الحزن العنيف على فقد مصطفى قبل وقت طويل جداً . ولكن الشىء الذى أحققه هو أن الحزن

العنيف على فقده يمنعهم الآن من تقدير النكبة فيه . إنها نكبة فى الخلق ؛ فقد كان مصطفى آية فى الخلق الكريم . وما أقل الآيات فى الأخلاق ! إنها نكبة فى الأدب ؛ وقد كان مصطفى مؤمنا بكرامة الانتاج الأدبى . وما أقل المؤمنين بكرامة الأدب ! إنها نكبة فى العلم ، فقد كان مصطفى أعرف الناس بحقوق العلم على العلماء . وما أقل العلماء الذين يعرفون ما للعلم عليهم من حقوق ! إنها نكبة فى الاصلاح بأوسع معانى الاصلاح ؛ فقد كان مصطفى أحسن خليفة ممكن للأستاذ الإمام ، ورث عنه علمه وطموحه إلى الخير ، وأضاف إلى هذا التراث من العلم بالحضارة الحديثة شيئاً كثيراً . وأتيح له منذ تولى أمر الأزهر مالم يتح لأستاذه من السلطان . فكان خليقاً أن يمضى بالاصلاح الدينى والعلمى والخلقى فى البيئة الأزهرية إلى أبعد الغايات . وأشهد لقد كان يعمل لذلك جاداً ، ولكن فى أناة ورفق .

رحم الله مصطفى ! وأعزز علىّ بأن أملى هذا الدعاء . رحم الله مصطفى ! لقد كانت الأناة أخص صفاته ، ولكن الأناة ليست من صفات الموت . ليت الموت استأنى بمصطفى ليتم ما يسر له من الخير . ولكن الموت لايستأنى بأحد . وربما كان أبغض شئ إلى الموت أن يستأنى بالأخيار من الناس .

طه حسين

من هنا وهناك

كلمة عن آدم بيد وقطعة مختارة منها

جورج إليوت هو اسم القلم الذى أطلقته مارى آن إيفانس على نفسها . وقد ولدت الكاتبة فى أكسبورى عام ١٨١٩ وعاشت فى تلك الناحية ثلاثين عاماً .

ويقول هربرت سبنسر — فى سذاجة العلماء — إنه فكر فى الزواج من جورج إليوت ، ولكنه لم يفعل ذلك لأنه يرى أن المرأة يجب أن تكون على شئ من الملاحة والوسامة .

واتصلت حياتها بحياة فيلسوف آخر من أصحاب المزاج البوهيمى ، هو جورج هنرى لويس ، وعاشت معه إلى أن مات . ثم تزوجت بعد ذلك رجلا آخر .

وقد تكون قصة « آدم بيد » أو إن شئت فقل قصة هيتى سوريل أحسن ما خطه يراعها . وهى قصة تمت إلى الواقع فى بعض أجزائها . وهى تذكر القارئ بقصة مرجريت فى رواية « فاوست » وهى فتاة ساذجة خلبت لبها المظاهر وخدعتها ، فأودت بها وأسلمتها إلى اليأس وإلى العيش المرير وإلى العذاب .

وإن آدم ذلك الرجل الشريف الصعب القيادة ، والفنان الجليل الخطر ، قد اتخذ هيتى بنت أخت المزارع بويزر ، صديقة له وخليلة . ولكنهما تقاطعا وتدابرا عند ما مالت إلى الكابتن آرثر دونتهورن ومال إليها . وكان هذا شاباً حسن الصورة لطيف الخلق وسيم القسمات .

وفى رواية « آدم بيد » أشخاص غير هؤلاء يقومون بأدوار مهمة . والرواية ملأى بالتيارات المتعارضة ، ومشاكل الحياة المعقدة . وكذلك هى ملأى بومضات من الفكاهة مما يجعل هذه الرواية أثراً أدبياً له جلاله وله خطره .

وإليك الصورة التى رسمتها الكاتبة للعالم الذى كانت تعيش فيه هيتى سوريل :

لقد اعتادت هيتى التوهم أن الناس يحبون النظر إليها ، وهى لم تكن غافلة عن أن لوك بريتون قد جاء من بلده إلى بلدها ودخل الكنيسة فى أصيل يوم الأحد على أمل أن يراها ،

وأنه قد كان من الممكن أن يفسح المجال لآماله فى حبها لو لم يصده خالها . ولو لم يوص هذا الخال امرأته بألا تبدى له أى لون من ألوان المجاملة .

وكانت هيتى تعلم كذلك أن مستر كريج الجنائنى كان مدلها فى حبها ، وقد أقام الدليل الذى لا ينقض على حبه بما كان يرسله من هدايا التوت المفرط فى الحلاوة .

وكانت هيتى تعلم أكثر من ذلك أن خالها كان يسره أن يرى آدم بيد كل ليلة ، وكان يقول عنه : إن آدم على علم بطبيعة الأشياء أكثر من أولئك الذين يظنون أنهم أكثر منه دراية ومعرفة .

وكانت هى تعرف أن آدم هذا الذى كان دائماً مقطب الوجه والذى لم يكن يعرف كيف يجرى وراء الفتيات يخفق قلبه لو أنها نظرت إليه أو كلمته .

وكانت تعرف أن آدم هذا قد يكون شيئاً مذكوراً إذا قيس إلى أهل الضاحية من الفلاحين .

وكانت تعلم علم اليقين أن عمها يريد أن يشجع آدم وأنه يسره أن تتزوجه .

وفى تلك السنين لم تكن هناك حدود بينة المعالم تقوم بين الفلاح والمزارع وبين الفنان . وهناك فى المنزل بجوار الموقد كانا يلتقيان ، كما كانا يلتقيان فى الحانة حيث كانا يراهما الراءون يشربان كوباً من البيرة معاً.

ولم يكن مارتن بويزر من رواد الحانات ، وكان يفضل أن ينعم بالحديث مع صاحب من أصحابه وهما يشربان كوباً من البيرة المصنوعة فى البيت .

وكان من دواعى سروره أن يفسر القانون لجار جاهل لا يعرف كيف يدير أمر غيطه . وكذلك كان من دواعى غبطته أن يتعلم شيئاً من رجل ذكى كآدم بيد .

ولذلك ظل آدم بيد ثلاث سنوات يلقى كل ترحيب بين أفراد أسرة مارتن بويزر ، وبخاصة فى ليالى الشتاء حيث كانت تجتمع الأسرة كلها : السيد والسيدة والأطفال والخدم فى غرفة المطبخ الواسعة الأرجاء وهم من النار المتقدة على أبعاد متناسقة .

وقد اعتادت هيتى فى السنتين الأخيرتين على الأقل أن تسمع خالها يقول :

قد يكون آدم بيد يعمل الآن من أجل الأجر ، ولكنه سوف يكون سيداً وجيهاً يوماً ما . وإنى على ثقة من هذا الأمر كثقتى بأنى جالس على هذا الكرسى الآن. ثم أضاف إلى ذلك قوله:

إن مستر برج لعلى صواب فى رغبته مشاركته وفى ترويجه بنته إذا صح ما يقولون ؛ فانه صفقة رابحة لمن تتزوجه . وكانت امرأته تقول كلما سمعت هذا القول : آمين . . .

ولقد كان من المحتمل أن تنظر هى وزوجها إلى هذه المسألة نظرة تختلف عن هذه النظرة لو كانت هيتى بنتهما ، ولكنهما كانا يرحبان بتزويج آدم من بنت أخت لها لا تملك درهماً .

ومن كانت تكون تلك الفتاة فى مكان آخر غير خادمة، لولا أن اجتباها خالها ورباها لتكون لخالتها عوناً فى خدمة المنزل .

ولكن آدم بيد لم يلق يوماً من الفتاة هيتى شيئاً من التشجيع ، بل لم تكن تفكر فى أن تقبله زوجاً ، حتى فى الساعات التى كانت فيها تحس بتفوقه على الآخرين المعجبين بها .

وكان يلذ لها أن تحس أن هذا الرجل القوى الماهر فى صناعته هو طوع بنانها ، وأنه سوف يكون موضع سخطها لو أبدى أى ميل للتخلص من سطوة طغيانها ، ذلك الطغيان الذى يبعثه الدلال . وكذلك لو أبدى ميله لأن يصل حبله بحبال مارى برج اللطيفة الظريفة التى كانت تتمنى نظرة عجلى منه فتقابلها بموفور الثناء .

ولكن أن تتزوج هيتى آدم فهذا شئ مختلف جداً . . . ولم يكن شئ فى الدنيا يغريها أن تفعل ذلك ، ولم تكن تحس إذا رأته بما يحس به المحبون من حمرة فى الخد وخفقة فى القلب وآهة فى الصدر .

ولكنها كانت تحس بالنصر البارد لمعرفتها أنه يحبها ، وأنه لا يعنى بأن يلقى نظرة على مارى برج .

وهو لم يكن يثير فيها النشوة الحلوة للحب فى عنفوانه أكثر مما تستطيع الشمس أن تثيره من حركة فى العصارة المائية التى تجرى فى ألياف النبات .

وكانت تنظر إليه نظرتها إلى رجل فقير يعول أهله الفقراء الذين لا يستطيعون حتى فى زمن بعيد مقبل أن يجعلوها فى رغد من العيش كذلك الرغد الذى تلقاه فى بيت خالها ؛ فقد كان رغد العيش مادة أحلامها فى الليل والنهار .

وكانت تقول فى مناجاتها : لو كان آدم غنياً لأحببته ثم لتزوجته .

ثم مضت بضعة أسابيع وإذا بطائف جديد يطوف بخاطر هيتى ، طائف غامض ، طائف فى الأفق ، قد اتخذ لنفسه صورة الأمل المرجو وكان له فى نفسها تأثير الخدر ، وقد جعلها

تمشى على الأرض وتغدو إلى عملها وتروح ، وهى فى شبه حلم روحى لا يعرف وزن المادة ، وهو يضفى على الأشياء كلها نقاباً سائلا شفافاً وكأنها كانت تعيش فى دنيا المادة التى قوامها القرميد والحجر .

وقد علمت هيتى أن مستر آرثر دو نتهورن يتجشم كل مشقة ويركب كل صعب فى سبيل رؤيتها ، وأنه يغدو إلى الكنيسة ليراها وهى جالسة وليراها وهى واقفة ، وأنه كان يفترص الفرص للقائها وسماع حديثها .

وكان لا يخطر ببالها أن ذلك السيد ذا الجاه والثروة والشباب يمكن أن يكون يوماً ما محباً لها مدلهاً فى حبها . مثلها فى ذلك مثل تلك الفتاة الجميلة ابنة الخباز التى ابتسم لها إمبراطور شاب ابتسامة الاعجاب ، فلم تصدق أنها سوف تصبح إمبراطورة . فذهبت ابنة الخباز إلى بيتها وهى تحلم بالامبراطور الجميل الشاب ، وربما طففت وزن الدقيق من فرط الذهول .

وكذلك مرت بهيتى ثلاثة أسابيع على الأقل لا يشغل عقلها شاغل غير ذكريات من كلمات آرثر ونظراته . وكان صدى كلماته يتردد فى مسامعها ، وحلته الجميلة تتراءى لعينيها ، ورائحة الطيب تملأ الجو حولها .

وإلى يومنا هذا لم يكن أشهى لديها من ترقب عودة الكابتن دونتهورن أو ترقب يوم الأحد التالى لكى تستمتع برؤيته فى الكنيسة . ولكنها اليوم تفكر فى احتمال مجيئه إلى الصيد غداً ، وفى احتمال تحدثه إليها وسيره إلى جانبها وقد غاب الرقيب . وهو ما لم يكن قد حدث إلى تلك الساعة .

ولكنها اليوم أيضاً لا يتعقب خيالها الماضى بل يفكر فيما يحدث غداً ، وفى أى مكان سوف تلقاه ، وفى أى مكان من شعرها سوف تضع الشريط الوردى الجديد الذى لم تشتره بعد . وما الذى سوف يقوله لها ليجعلها تجاوب نظرته إليها بنظرة منها إليه ، تلك النظرة التى سوف تستمتع بها بقية النهار . . .

وبينما كانت يدا هيتى تعملان فى لف الزبد فى الورق ، وبينما كان رأسها تملأه صور الغد المأمول ، كانت تداعب خيال دونتهورن آمال مرجوة غير واضحة ، آمال كامنة فى عقله . وقد صحا من غفوة خياله على صوت صاحبه مستر أورين وهو يسأله :

— ما الذى فتنك وأعجبك يا آرثر فى مصنع ألبان مسز بويزر ؟ أأصبحت تهوى المكان الرطب وتحب صحاف القشدة ؟

وكان آرثر يعرف أورين ، ويعرف أن المراوغة لا تجدى معه . ولذلك قال فى صراحته المعهودة :

– إنما ذهبت لأرى صانعة الزبد الجميلة هيتى سوريل وهى التى تشبه عندى إلهة الشباب فى الأساطير القديمة ولو كنت فناناً لصورتها . وإنه ليثير العجب أن يرى المرء ذلك الجمال الفاتن بين البنات الريفيات ، وآباؤهن هم أولئك المهرجون .

فقال له واروين : لا اعتراض لى على أن تفكر فى هيتى على ضوء الفن . ولكنى لا أود أن توقد جذوة الغرور عندها ، وأن تملأ رأسها الصغير بالقول الذى يوهمها بأنها آية من آيات الجمال . يفتتن بها الشباب المترفون . إنك إن فعلت أتلفت فيها الزوجة المقبلة لرجل فقير ، كالرجل الطيب كريج مثلا الذى رأيته ينظر إليها نظرة الاعجاب .

ويبدو أن تلك البنية الصغيرة قد ملأها الغرور ، وأن زوجها سوف يكون تعساً شقياً وفقاً للقانون الطبيعى الذى يجعل الرجل الفقير – إذا تزوج الحسناء الجميلة – يتلظى فى لهب السعير .

وعلى ذكر الزواج أرجو أن يكون قد تم لصاحبنا كل شئ . فقد مات الرجل الهرم ولم يبق لصاحبنا من يعوله غير أمه . وإنى لأظن أن حبل الود متواصل بينه وبين تلك الفتاة اللطيفة المتواضعة مارى برج وقد عرفت ذلك من فلتات الحديث الذى دار بينى وبين الهرم يوناثان . ولكنى لما ذكرت القصة لآدم بدا عليه القلق وغير مجرى الحديث . وفى ظنى أن الود بينهما لا يجرى مجرى سهلا ، أو أن آدم يؤجل الأمر حتى يصبح فى رغد من العيش ، وهو رجل مستقل الرأى عظيم الكبرياء .

وسوف يكون هذا الزواج زواجاً طيب الثمر . وسوف تتوثق الصلة بين آدم وبين الهرم برج . وإنى لأود أن أرى آدم عظيم المكانة بيننا . وسأشد به أزرى وأشركه فى أمرى . وعندئذ سوف يمتد أفق آمالنا فى التعمير والاصلاح . وإنى لم أر الفتاة من قبل ، أو على الأقل لم أنظر إليها .

فقال له محدثه : أنظر إليها يوم الأحد المقبل فى الكنيسة . إنها تجلس عن شمال المنبر . إنك إن نظرت إليها فلن تجد بك حاجة إلى النظر إلى هيتى سوريل . وإن المرء إذا عقد العزم على ألا يشترى كلباً من الكلاب الجميلة فانه يغض الطرف عنه . ذلك لأننا لو نظر كلانا إلى صاحبه نظرة ود ، إذن

لفعلت النظرات فعلها وأحدثت أثرها ، وإذن لاشتد العراك بين علم الحساب وبين الميل والهوى . وإنى لأفاخر يا آرثر بحكمتى التى كسبتنى إياها السنون ، وإنى لأضفى عليك ثوباً من هذه الحكمة .

فقال له آرثر : أشكر لك هذا الصنيع . وسأشد بهذه الحكمة يوماً ما أزرى ، ولو أنى لا أرى بى حاجة إليها الآن .

وبعد — فلنرجع إلى آدم بيد . لقد كان موت والده غرقاً نكبة عليه . وإذ هو مستغرق فى حزنه ، أيقظ حاسة الفضول عنده وقع أقدام خفيفة تتخذ طريقها إلى البيت . ورأى بعين خياله وجهاً تزينه النونات وتجمله عينان دعجاوان ، وثغراً يفتر عن ابتسامات خبيثة ما كرة .

ولكن ما مر بباله لم يكن سوى فكرة خاطئة . فلم تكن هيتى التى جاءت لتعزية أهله ، ولكنها دينا تلك الواعظة الصغيرة التى يحبها أخوه Seth ولأول مرة أصبح آدم مشغولا بها معنياً بأمرها . وقال لأخيه : لست أعجب من حبك إياها فانها قد أوتيت وجهاً جميلا هو بزهرة الزنبق أشبه .

ثم يمر الزمن وإذا بآرثر دونتهورن يغازل هيتى سوريل . هما يسيران بين أشجار الغابة . فوقعت عينا آدم على شبحين يخطوان أمامه ، فوقف جامداً فى مكانه كالتمثال وامتقع لونه . وكان الشبحان يقفان ووجهاهما متقابلان وأيديهما متشابكة وكل منهما يهم بتقبيل صاحبه . ثم افترقا بغتة وجرى أحدهما وسار الآخر متلكئاً إلى ناحية آدم الذى عرف الآن كل شئ . وعرف كل السر فى جفاء هيتى وبرودها .

وفى ثورة من ثورات الهوى الذى يعمى ويصم سب آدم خصمه ومزاحمه دونتهورن وأغلظ له فى القول . ثم تعاركا عراكا وحشياً كأنهما نمران . وخر دونتهورن مغشياً عليه بين الحشائش وكأنه فقد الحياة . ولكنه لم يمت فان القدر يخبئ له فى مستقبل أيامه مصيبة أخرى . فلما أفاق كتب رسالة إلى هيتى يودعها فيها ثم ارتحل .

ثم أصبح آدم شريكا لمستر برج فى عمل من الأعمال ، وخطب هيتى لنفسه . فلم تنطق هيتى بكلمة . ولكن آدم قرب وجهه من وجهها ووضعت هى خدها لصق خده كأنها قطيطة تريد أن تدلل ، وكأنها تريد أن تحس أن آرثر كان معها مرة أخرى .

وتملك هيتى رعب شديد فسارت مرتحلة تريد فى ظاهر الأمر زيارة دينا ، ولكنها اختفت . وفيما يلى وصف لما

تتابع من حوادث مبتدئة بالحديث الذى دار بين آدم وبين إروين :

«أنت تريد التحدث إلى يا آدم .»

قال إروين ذلك القول فى صوت هادئ هدوءاً مقتسراً ، وكأنما لجأ إلى هذا الهدوء المقتسر ليكبت ما فى نفسه من ثورة وهياج . ثم قال له : «إجلس» وأشار إلى كرسى أمامه ، فجلس آدم وقد أضاف البرود الذى لقيه من إروين صعوبة جديدة تمنعه من الافاضة بمكنون صدره . ولكن آدم وقد أجمع أمره على الافضاء بسره ، لم يكن بالرجل الذى ينكص على عقبيه إلا لأسباب قاهرة .

وقد بدأ حديثه مع إروين بقوله : إنى ألجأ إليك يا سيدى كرجل نبيل هو عندى فوق الناس كلهم . وإنى لمنبئك بأشياء تحز فى نفسى . أشياء قد يؤلمك سماعها كما يؤلمنى ذكرها . وإذا رأيتنى يا سيدى أتكلم عن مساوئ الناس وأخطائهم فاعلم أن الدافع لذلك دافع قوى .

فهز مستر إروين رأسه متمهلا . واستمر آدم فى حديثه وهو يرتجف قائلا : لقد كان موعد زواجى بهيتى سوريل يا سيدى اليوم الخامس عشر من هذا الشهر . وكنت أظنها تحبنى ، وكنت بذلك الظن أسعد مخلوق . ولكن ضربة قاصمة قد نزلت بى ، ومصيبة كبرى قد ألمت بساحتى .

ولكن هيتى قد ذهبت ولست أدرى أين استقر بها النوى . فقد قالت إنها ذاهبة إلى سنوفيلد يوم الجمعة . ومضى على يوم الجمعة هذا أسبوعان . وقد ذهبت يوم الأحد الماضى لأعود بها ، ولكنها لم تكن هناك . وقيل لى إنها استقلت عربة إلى ستونيتون وبعد ذلك لم أعرف أين ذهبت . ولكنى اعتزمت اليوم سفراً طويلا لأبحث عنها . ولن أستطيع أن أفضى بهذا السر إلى أحد سواك .

فقال له مستر إروين : وهل تعرف سبب هروبها ؟

— يبدو أنها كانت لا ترغب فى الزواج منى . وقد هربت عندما اقترب الموعد . ولكنى أشك فى أن هناك شخصاً ثالثاً قد بدا فى الأفق .

فبدا السرور على وجه مستر إروين فى تلك اللحظة وكأنما أزيح عن صدره هم ثقيل .

ثم استأنف آدم حديثه قائلا : أنت تعرف يا سيدى ذلك الرجل الذى حسبته أصدق صديق لى ، والذى كنت أفخر بأنى سوف أقضى حياتى أعمل لأجله وكانت هذه أمنيتى منذ كنا صبيين ...

وعندئذ أمسك مستر إروين بذراع

آدم ، وكأنما فارقه وقاره وشد عليها وقال فى صوت متهدج : أرجو ألا تقول هذا . . .

فذهل آدم لما انتاب مستر إروين من انفعال وندم على قوله وجلس وقد تولاه صمت من أصابته مصيبة .

ثم ارتمى مستر إروين فى كرسيه وقال لآدم : قل كل شئ فلا بد لى أن أعرف كل شئ .

فقال آدم : إن ذلك الرجل قد خلب لب الفتاة وسلك نحوها سلوكا لا حق له فى سلوكه مع فتاة فى مثل مركزها فى الحياة ، وأهدى إليها الهدايا واعتاد أن يذهب لملاقاتها فيسيرا جنباً إلى جنب . ورأيتهما معاً قبل هروبها بيومين وهو يقبلها قبل أن يغادرا مكانهما فى الغابة . ولم يدر حديث بينى وبين هيتى يومذاك ، ولو أنى كنت أحبها منذ زمن وكانت هى تعرف ذلك . وقد عنفته وزجرته على أخطائه ثم تبادلنا الشتائم واللكمات، ولكنه قال لى بعد ذلك فى خشوع الرجل التقى إن الأمر بينهما لم يكن إلا عبثاً ، ولم يخرج عن حد الغزل . ولكننى جعلته يكتب خطاباً ينبئ فيه هيتى أنه لم يكن يعنى شيئاً ، ذلك لأنى رأيت جملة أمور ما كنت أستطيع يومئذ أن أفهمها . فقد ملك قلبها حتى لقد أصبحت به مغرمة ، وحتى لقد أصبحت عن حب من يرغب فى زواجها معرضة . ثم أعطيتها الخطاب فتظاهرت بقبوله كما كنت أتوقع . ثم حنت على حنواً كان يزداد ساعة بعد ساعة . ولعل المسكينة لم تكن تعرف حقيقة أمرها ساعتئذ . ولكنى لا ألومها ؛ ذلك لأنى لا أستطيع أن أظن أنها قد أرادت خداعى وغشى . وكان عندى ما يشجعنى على الظن أنها تحبنى . وأنت تعرف الباقى يا سيدى . ولكن لايبرح من ذهنى أنه كان كاذباً معى وأنه أغراها بالهرب ، وأنها ذهبت لتلحق به وإنى ذاهب الآن لأرى . ذلك لأنى لن أستطيع أن أعود إلى عملى قبل أن أعرف مصير تلك الفتاة .

وبينما آدم يقص قصته كان مستر إروين قد استعاد رباطة جأشه على الرغم من الأفكار المقلقة التى طافت به يزدحم بعضها بعضاً . وكانت ذكرى مرة الطعم . إذ تذكر أن آرثر قدتناول الفطور عنده هذا الصباح ، وكان يبدو عليه أنه يريد أن يفضى إليه باعتراف. والآن قد تبين لمستر إروين ما كان يريد أن يفضى به آرثر .

ثم عاد مستر إروين فألقى يده فى رفق فوق ذراع آدم التى كانت على المائدة وقال فى خشوع :

— يا صديقى العزيز آدم : لقد مرت بك تجارب قاسية فى الحياة . وإنك لقادر على أن تحتمل الحزن كما يحتمله الرجال ، وكذلك أنت قادر على أن تعمل عمل الرجال . فالله سبحانه يريدنا أن نكون كذلك . وإن هناك حزناً ثقيلا فى طريقه إليك ، وهو حزن أشد من كل ما مر بك من أحزان . ولكن الذنب ليس ذنبك . ثم اعلم أن من الناس من ترجح كفهم فى الحزن كفتك وهؤلاء لهم الله .

ونظر كلاهما إلى صاحبه وقد امتقع لونهما . وكان يخامر آدم قلق يهزه هزاً، كما كان يخامر مستر إروين إشفاق يخالطه التردد ، ولكنه استمر فى حديثه يقول :

— لقد جاءنى هذا الصباح خبر عن هيتى فهى لم تذهب إلى صاحبك بل هى فى ستونيتون .

فنهض آدم من كرسيه وكأنه قد خيل إليه أنه يستطيع أن يطير إليها فى تلك اللحظة . ولكن مستر إروين قد أمسك بذراعه مرة أخرى وقال : انتظر يا آدم . انتظر . ثم استطرد يقول : إنها فى موقف لا تحسد عليه . ذلك الموقف الذى لو رأيتها فيه لساءت الأمور بينكما أكثر مما كانت يا صديقى المسكين ، بل لكان الأمر أسوأ مما لو كنت فقدتها إلى الأبد .

فارتجفت لذلك القول شفتا آدم . ولكنه لم ينطق بكلمة ، ثم تحركت شفتاه مرة أخرى لتهمسا بقوله : « أنبئنى » .

— إنها مقبوض عليها . إنها فى السجن . وكأن ذلك القول كان لطمة قوية أحيت فى آدم روح المقاومة وصعد الدم إلى وجهه وقال فى صوت عال : وما جريمتها ؟

— إنها جريمة كبرى . إنها قتلت طفلها . فصاح آدم : هذا مستحيل . وقام من كرسيه متوجهاً إلى الباب ثم عاد . ثم نظر إلى مستر إروين وقد بدت عليه وحشية الغضب : ذلك مستحيل . . . إنها لم ترزق طفلا قط . وهى لذلك لا يمكن أن تكون مجرمة . ومن ذا الذى يقول ذلك القول ؟

— إنى أدعو الله يا آدم أن تكون بريئة .

— ولكن من قال أنها مذنبة ؟ قل لى كل شىء .

— هذا خطاب من قاضى التحقيق الذى ينظر فى أمرها . ورجل البوليس الذى تولى القبض عليها جالس الآن فى غرفة المائدة . وهى مصرة على ألا تبوح باسمها ، وأن لا تدل على بيتها . ولكنى أخشى أن ليس هناك شك فى أنها هى هيتى . فان الوصف ينطبق

عليها ، لولا شحوب ألم بوجهها ، ولولا سقم نزل بجسمها . وقد وجدوا فى جيبها دفتراً كتب فيه اسمان : واحد فى أوله وهو هيتى سوريل من مدينة هاى سلوب واحد فى آخره وهو دينا موريس من مدينة سنوفيلد . وهى ترفض أن تقول أى الاسمين اسمها ، وهى تنكر كل شئ ، وهى لا تجيب على الأسئلة. وقد طلب إلى أن أعمل على التحقق من شخصيتها . ذلك لأنهم يرون أنه من المحتمل أن يكون الاسم الأول هو اسمها .

— ولكن أى دليل عندهم عليها لو كانت هى هيتى؟ قال ذلك والانفعال يهز جسمه هزاً عنيفاً . لن أصدق هذا. ولا يمكن أن يكون هذا قد وقع ولم يعلم به واحد منا .

— إنه دليل مزعج على أنها كانت تحاول ارتكاب الجريمة . ولكننا نرجو ونأمل أنها لم ترتكب هى تلك الجريمة وإليك هذا الخطاب فاقرأه يا آدم .

فأخذ آدم الخطاب بين يديه المرتجفتين وحاول أن يثبت ناظريه فيه. وخرج مستر إروين ليأمر أمره فى بعض الأمور . ولما عاد كانت عينا آدم لا تزالان مثبتتان فى الصحيفة الأولى . وكان — لفرط ذهوله — لا يستطيع القراءة ولا يستطيع أن يفهم مدلول الكلمات ، ورمى بالخطاب إلى الأرض آخر الأمر ثم ضم قبضة يده .

ثم قال : إن هنالك جريمة فهى جريمة آرثر . ومفتاح الجريمة عنده ، لا عندها . فقد علمها الخيانة والغش وقد خدعنى أنا أول من خدع . فليقف معها جنباً إلى جنب عند المحاكمة . وسأخبر القوم كيف اغتصب قلبها وكيف أغراها على فعل السوء . فهل يظل هو حراً طليقاً ، وتلقى هى العقاب وحدها وهى لم تزل صغيرة مهيضة الجناح ؟

ثم قدمت هيتى إلى المحاكمة . وبعد أن صدر الحكم دوت فى قاعة الجلسة صرخة تصم الآذان وكانت الصرخة صرخة هيتى . فوقف آدم على قدميه ومد ذراعيه إلى ناحيتها . ولكن المدى كان بينهما بعيداً . ثم سقطت هى وقد انتابتها نوبة إغماء . ثم أخرجت من دار المحكمة إلى السجن انتظاراً ليوم التنفيذ . وقد أصرت هيتى إصراراً تاماً على الانكار أثناء المحاكمة وبقيت على إصرارها فى السجن . وقد خرجت عن صمتها نزولا على رجاء صاحبها دينا وقالت والندم يهز كيانها ، وقد انفرجت شفتاها وهى تبكى بكاء صادراً عن القلب: « يا إلهى إننى أجرمت » .

ثم طوقت عنقها بذراعيها وقالت :

سأتكلم . سأنبئك بكل شئ . ولن أخفى شيئاً .

ولكن العبرات كانت تخنقها . فحملتها دينا فى رفق وأجلستها على الحصير مرة أخرى وجلست إلى جانبها، وتماسكتا باليدين . وأخيراً همست هيتى قائلة :

— لقد ارتكبت الجريمة يا دينا . ولقد دفنته فى الغابة . . . وأعنى به الطفل الصغير . . . وقد بكى . . . وقد سمعته يبكى طول الليل . . . ورجعت أدراجى لأنه كان يبكى .

ثم توقفت . ثم عادت إلى الكلام فى صوت عال ، وفى لهجة فيها معنى التوسل . وقالت :

— وظننت أنه لن يموت . فقد يلتقطه بعض الناس . ولم أقتله أنا . . لم أقتله بيدى . . . إنما ألقيته على الأرض . وجعلت فوقه غطاء . ولما عدت لم أجده . . . وكان ذلك لأنى جد تعيسة يا دينا . ولم أعرف أنا إلى أين أسير . . . ولقد حاولت قتل نفسى فلم أستطع ثم حاولت الموت غرقاً فلم أقدر . . . فذهبت إلى وندسور ثم هربت كما تعلمين . وقد ذهبت أفتش عنه لكى يعنى بأمرى ، ولكنه كان قد رحل . . . وعندئذ ضاقت بى السبل ولم أجرؤ على أن أعود إلى البيت ، ولم تكن بى قدرة على أن أنظر لأى مخلوق مخافة تحقيرى و إذلالى .

ثم توقفت مرة ثانية كأنما الاحساس بالماضى كان أقوى مما تحتمله الكلمات ثم عادت إلى حديثها فقالت :

— ثم توجهت إلى ستونيتون وبدأت أحس بالرعب يدب فى قلبى تلك الليلة ؛ لأنى كنت قد اقتربت من البيت . ثم ولد الطفل الصغير فى وقت كنت لا أتوقع فيه ميلاده . . . ففكرت فى التخلص منه ، وفى العودة إلى البيت . وقد خطرت لى الفكرة بغتة وأنا مستلقية فى الفراش ، ثم بدأت الفكرة تقوى وتشتد . . . واشتقت أن أعود مرة أخرى . . . ذلك لأنى كنت لا أحتمل العزلة . ثم ألفيت فى نفسى القوة وصحة العزم والمقدرة على أن أرتدى ملابسى ، وأحسست أن ذلك واجب مفروض على . . . وتمنيت أن أجد بركة ماء فى ركن من أركان المزرعة . ثم فكرت فى الخلاص من أسباب البلاء وفى العودة إلى البيت . على ألا أحيطهم خبراً بأسباب هروبى . « خرجت مع البازى على سواد » والطفل تحت كسائى . وأسرعت الخطى حتى أبعدت . فلقيت جمعاً من الناس ثم أعطيت شيئاً ساخناً لأشربه ثم كسرة من خبز . . . ثم غذذت

السير . وكنت أخفف الوطء ثم أضاء القمر وقد تولانى الخوف منه يا دينا ، عندما نظر إلى من خلف السحاب . ولم أعهد فى القمر تلك النظرات من قبل ثم عجت إلى الحقول . ذلك لأنى كنت أخشى أن ألقى أحداً من الناس والقمر يطل على . ثم ألقيت بنفسى على العشب اليابس أطلب الدفء وأحاول أن أنام . . .

وكانت هناك فرجة وسط العشب حيث اتخذت فراشى وحيث نمت نومة أحسست فيها بطعم الراحة . وكان الطفل فى دفء وهو بجانبى وأظننى قد نمت نوماً طويلا . ذلك لأنى لما صحوت كان الوقت صباحاً وإن يكن النور لم يعم الكون بعد . وكان الطفل يبكى . ثم رأيت غابة على مدى غير بعيد ، وظننت أن قد تكون هناك بركة ماء أو أخدود . . . وخلت أن فى الوقت فسحة ، وأننى أستطيع أن أخبئ الطفل وأن أبعد فى سيرى قبل أن يستيقظ القوم ، وأن أركب إلى البيت وأنبئهم بأنى كنت أبحث عن عمل وأن مسعاى لم ينجح . . . وكم تاقت نفسى إلى هذا يا دينا . كم تاقت نفسى إلى أن أعود إلى البيت سالمة . أما شعورى نحو الطفل فلم أكن أتبينه . فقد كان يبدو لى أنى أكرهه . وكان كأنه حمل ثقيل شد إلى عنقى . ومع ذلك فان بكاءه كان يبكينى . وما كانت بى قدرة على النظر إلى وجهه وإلى يديه الصغيرتين . ولكنى مشيت قدماً إلى الغابة وجبت أنحاءها ولكن لم أجد ماء . . . ثم ارتجفت هيتى وظلت صامتة بضع ثوان ثم استأنفت حديثها وهى تهمس همساً :

— وجئت مكاناً يكسوه العشب وقطع الأشجار ثم جلست أفكر فيما سوف أفعل . ثم لاح لى بغتة حجر تحت شجرة من شجر البندق وبدا لى هذا الحجر كأنه قبر صغير ، وخطر لى فى مثل سرعة البرق خاطر أن أقذف الطفل فى هذا الحجر وأن أغطيه بالأعشاب وقطع الأشجار . وما كنت أستطيع قتله بطريقة أخرى غير هذه الطريقة . وقد فعلت ذلك كله فى دقيقة واحدة ، وقد علا صراخه يا دينا حتى لم أستطع أن أثقل عليه الغطاء . وظننت أن قد يمر به أحد الناس فيعنى به ، وينجو من الموت . ثم أسرعت الخطى وأنا أغادر الغابة ولكنى كنت أسمع بكاءه وقتاً طويلا . ولما بلغت الحقول كنت كأننى سمرت فى مكانى فلا أستطيع حراكا . فجلست على العشب لأنظر هل يقبل أحد من الناس .

وكان الجوع قد بلغ منى . ولم يكن عندى غير كسرة من خبز ، ولكنى لم أستطع المضى . وبعد لحظة حسبتها دهوراً ، جاء الرجل ذو القباء ونظر إلى نظرة ألقت الرعب فى قلبى فذعرت وأسرعت الخطى . ولقد ظننت أن وجهته الغابة ، وأنه قد يعثر على الطفل ، ثم مضيت قدماً حتى جئت قرية على مدى بعيد من الغابة وقد اجتمع على الجوع والتعب والمرض . ولقيت هناك شيئاً آكله ثم اشتريت رغيفاً . ولكن الرعب كان يمنعنى البقاء . فقد كنت أسمع بكاء الطفل ، وكان يخيل إلى أن الناس كلهم فى جميع أقطار الأرض يسمعون بكاءه . فاستأنفت المسير ، ولكنى كنت جد متعبة . وكان الليل مقدماً ، وهناك فى ناحية من نواحى الطريق لقيت «شونة» بعيدة عن مكان البيوت . وهناك اختبأت واتخذت من القش حصيراً ، ثم رقدت ثم غلبنى النعاس ولكن بكاء الطفل كان يوقظنى . ثم صحوت وكان الصبح قد بدا ، ثم دفعتنى قدماى إلى العودة من حيث أتيت ، ولم أستطع يا دينا لهذه الرغبة دفعاً . وكان بكاء الطفل هو الدافع لى . ومع هذا فقد كان الخوف يزلزل أقدامى ، وظننت أن الرجل ذا القباء قد رآنى وأنه يعرف أنى خبأت الطفل هناك . ولكنى بالرغم من ذلك كله قد سرت فى تلك الطريق ، وتخليت عن فكرة العودة إلى البيت بل انتزعتها من مخيلتى انتزاعاً . ولم يكن أمام ناظرى إلا ذلك المكان فى الغابة حيث دفنت الطفل... وإنى لأراه إلى هذه الساعة يا دينا ... فهل سأظل أراه إلى يوم تقوم الساعة؟

ثم تعلقت هيتى بأذيال دينا ثم ساد السكوت بينهما ، وقتاً طويلا قبل أن تستأنف حديثها ، ثم قالت :

— لم ألق أحداً . ذلك لأن الوقت كان مبكراً ثم وصلت إلى الغابة . . . وكنت أعرف الطريق إلى المكان . . . المكان الذى يقابل شجرة البندق . وكنت أسمع بكاء الطفل فى كل خطوة . وكنت أظنه حيا . . . ولست أعرف أكان هذا الخاطر يرعبنى أم كان يبعث إلى نفسى السرور . . . ولست أعرف الشعور الذى أحسست به . وكل ما أعلمه أنى كنت فى الغابة وأنى سمعت بكاء الطفل ولم أتبين شعورى حتى رأيت أن الطفل ، قد ذهبوا به .

وإنى عندما وضعته هناك خيل إلى أنى أتمنى أن لو التقطه أحد لينقذه من الموت . ولكنى لما رأيته قد ذهبوا به طار لبى من الفزع . وقد أوهن ساعدى الخوف فلم أستطع حراكا ،

وخلت أن كل من نظر إلى يعرف شيئاً عن الطفل . ثم تحجر قلبي فبقيت فى مكانى لا أتمنى شيئاً ، ولا أحاول أمراً . وخيل إلى أنه أصبح حتما على أن أبقى هناك حتى يقضى الكتاب أجله ، وأن شيئاً من الأشياء لن يناله التبديل والتحويل . ولكنهم جاءوا وذهبوا بى . . .

ثم سكتت هيتى ثم عادت ترتجف كأن عندها للحديث بقية فى الزاوية ووقفت دينا موقف الانتظار . ذلك لأن الحزن كان قد لاع قلبها وأشرقها بدمعه ، ثم انطلقت هيتى تقول، وقد جاشت فى صدرها غصص الهموم :

— أتظنين يا دينا أنى وقد بحت بكل شئ أن الله سبحانه سوف ينسينى ذلك البكاء ، بكاء الطفل ، وذلك المكان المعهود فى الغابة . . .

ثم يزور آدم هيتى فى الساعات الأخيرة التى تسبق تنفيذ الحكم . ثم تبدأ الخطوات الأخيرة فى سبيل التنفيذ ثم يجئ صباح يوم تنفيذ الحكم بالاعدام . . .

وكان منظراً من مناظر الحزن التى يذكرها الناس أكثر مما يذكرون أحزانهم وهمومهم . ذلك المنظر الذى رآه الناس فى صباح ذلك اليوم الصافى الأديم عندما جاءت العربة تقل المرأتين فى سن الشباب . وقد شاهدها عن بعد ذلك الجمهور المترقب وهى تشق طريقها ، ووجهتها المشنقة . تلك الصورة الشنيعة البشعة للموت المفاجئ الذى يسبقه الاصرار والعمد . . .

وكل الناس فى ستونيتون قد سمعوا عن دينا موريس تلك الواعظة الشابة التى ألجأت تلك المجرمة المصرة على الانكار أن تعترف . وكل الناس كانوا فى شوق إلى أن يروها ، وأن يروا تلك الشقية هيتى .

ولكن دينا كانت عن الجمهور فى صمم . وعندما وقع نظر هيتى على الجمهور أمسكت بدينا وهى ترتجف . فقالت لها دينا : أغمضى عينيك . ولنتوجه إلى الله الغفور الرحيم بدعائنا وصلاتنا .

وفى صوت خفيض نطقت بدعائها — الذى كان كآخر سهم من سهام التوسل — لتلك المخلوقة المرتجفة . التى كانت تنظر إليها كآبة على الاشفاق والحب .

ولم تكن دينا تعرف أن الجمهور ينظر إليها فى شئ من الخشوع . بل لم تكن تعرف مدى ما بينها وبين ذلك المكان المشئوم مكان المشنقة ، حتى وقفت العربة ، وانتفضت هى فزعة مرعوبة لدى سماعها صرخة مزعجة

كأنها إحدى صرخات الشياطين .

ثم اختلط صراخ هيتى بتلك الصرخة ثم أسكت كتاهما بصاحبتها من فرط الذعر المشترك بينهما .

ولكنها كانت صرخة مبعثها الانفعال لا القسوة . إنها صرخة هياج مفاجئ بعثها ظهور فارس يمتطى جواداً يشق الصفوف وهو فى أقصى سرعة .

وكان راكب الجواد يتطاير الشرر من عينيه وكأنه قد جن جنونه . . .

وانظر إليه . . . أنه يحمل فى يده شيئاً . . . وكان يرفع يده كأنه يشير إلى شئ . . .

وكان العمدة يعرفه — إنه آرثر دونتهورن يحمل فى يده ذلك الشئ الذى نجا من الموت بأعجوبة . . .

(عن الانجليزية)

مبارك ابراهيم

شهريات

شهرية السياسة الدولية

محاولات الاستقرار

يصح أن نسمى الشهر المنقضى فى ميدان السياسة الدولية شهر « محاولات الاستقرار » ؛ فقد انتهت فيه فرنسا إلى إعلان جمهوريتها الرابعة وختمت بهذا الاعلان عهد حكومتها المؤقتة ، ولفرنسا فى الميدان الدولى مكانة كان العالم قد حرم الافادة منها طوال الحرب ، وكان يترقب عودتها إليها سليمة ثابتة كى يعود هو إلى الافادة من تعاليمها التى خرجت من « الثورة الكبرى » وتميزت بروحها « العالمية ».

وتم فيه التوقيع على معاهدات الصلح مع إيتاليا وفنلندا ورومانيا وبلغاريا والمجر ، وهى الدول التى وسعت من رقعة الحرب بانضمامها إلى ألمانيا العاتية ، فبدأ بهذا التوقيع إجراء من أهم إجراءات العودة إلى حالة السلم العادى ، وزاد النشاط من جانب بريتانيا العظمى وفرنسا وروسيا فى سبيل إحكام العلاقات بينهن بالبحث فى سبيل عقد محالفة بين فرنسا وانجلترا من ناحية ، وتعديل بعض أحكام المحالفة المعقودة بين انجلترا وروسيا من ناحية ثانية ، ثم إصدار تصريح ثلاثى منهن جميعاً بتضامنهن لأجل السلام ؛ وأخذت لجنة التحقيق الدولية تقوم بمهمتها فى بلاد اليونان توطئة لاقرار العلاقات بين هذه الدولة وجاراتها البلقانية من ناحية ، ولاقرار السلام الداخلى فى اليونان ذاتها من ناحية ثانية .

وبدأ مجلس الأمن عرضه للخلاف البريتانى الألبانى متلمساً تسوية لما نشأ عن إصابة بارجتين بريتانيتين فى قناة كورفو بقذائف تقول السلطات البريتانية إنها ألبانية ؛ كما انتهى الأمر فى قضية فلسطين بتقرير بريتانيا العظمى عرضها على هيئة الأمم المتحدة بعد أن أخفقت فى الوصول إلى حل يرضى به العرب واليهود معاً .

الجمهورية الرابعة

وكانت إجراءات إقرار الدستور الفرنسى الجديد قد تمت عن طريق الاستفتاء الشعبى ، وكانت الانتخابات العامة قد أجريت للمجلسين الجديدين المكونين للبرلمان الفرنسى الجديد ، مباشرة للجمعية الوطنية التى تقابل مجلس النواب فى نظام البرلمان القديم ، وعلى درجتين لمجلس الجمهورية الذى يقابل مجلس الشيوخ فى ذلك النظام ، وكان متبقياً أن يجتمع أعضاء البرلمان الجديد لينتخبوا رئيس الجمهورية ، فتبدأ الجمهورية الرابعة ويزول كل مظهر من مظاهر « الحكومة المؤقتة » ، وتكمل عناصر السيادة الفرنسية المنظمة . ولم يكن انتخاب الرئيس الجديد بالأمر الهين والبرلمان مؤلف من ثلاث كتل كبرى متعادلة العدد أو قريبة التعادل ، لا تحظى واحدة منها بالكثرة العددية منفردة ، ولكل منها مطالب قد يتعارض بعضها وبعضها الآخر ، وللأحزاب الثانوية كذلك مواقف لا يسهل التوفيق بينها ولا بين بعضها وبعض تلك الكتل الكبيرة ، ولا سيما إن اتصلت تلك المواقف جميعها بفكرة توزيع الرياسات الثلاث بين الأحزاب الكبرى الثلاثة : رياسات الجمهورية والوزارة والجمعية الوطنية ، بين الحزب الشيوعى والحزب الاشتراكى والحركة الجمهورية الشعبية ، فى حين أن بين أعضاء الأحزاب الثانوية شخصيات لها مكانتها فى السياسة الفرنسية ، ولها مواقفها الوطنية أثناء الكوارث التى انتابت فرنسا على أثر انكسارها الحربى ؛ وراح المعقبون السياسيون يفترضون المضاعفات ، وينتظرون على الأقل أن تطول جلسة فرساى ؛ لأن الانتخابات لن تسفر عن « كثرة مطلقة » يفوز بها واحد من المرشحين فى الدور الأول . لكن « البصيرة » الفرنسية قد انتهت بمفاجأة أولئك المعقبين جميعاً إذ تمت الانتخابات فى أقصر وقت ممكن ، وإذ نال الكثرة المطلقة مرشح الاشتراكيين منذ الدور الأول ، وكان هو مسيو مارسل أوريول — الذى كانت الجمعية الوطنية قد انتخبته رئيساً لها قبل ذلك بأيام — فأعلنه البرلمان الفرنسى الجديد بلسان رئيس اجتماعه ، وهو نائب شيوعى ، رئيساً للجمهورية الجديدة ؛ فعاد إلى باريس بموكبه الرسمى ونزل

بقصر الاليزى الذى كان قد ظل شاغراً منذ غادره الرئيس ليبران آخر رؤساء الجمهورية الثالثة فى سنة ١٩٤٠ . وانتخبت الجمعية الوطنية رئيسها الجديد — وهو ثانى الرؤساء فى فرنسا الجديدة — مسيو أريو زعيم الراديكاليين الاشتراكيين ، وكلف رئيس الجمهورية شخصية من شخصيات الحزب الاشتراكى ، مسيو راماديه مهمة تأليف الوزارة ، فتقدم إلى الجمعية الوطنية على حسب أحكام الدستور الجديد ببرنامجه فنال ثقتها ، ثم ألف وزارته ونال عليها الثقة أيضاً ، فاكتملت بذلك كل عناصر بروز الجمهورية الرابعة .

وليس لاكتمال هذه العناصر فعل الاستقرار الداخلى بالنسبة لفرنسا وحده ، بل إن لها لفعلا آخر بالنسبة للميدان الدولى كله أيضاً . ذلك بأن فرنسا التى انهارت فى ميادين القتال قد بقيت محتفظة بملكاتها السياسية الدولية ، وذلك بأن التطورات الدولية التى جاءت على أثر انهيارها وعلى أثر وقوف رحى الحرب عامة ، قد جعل العالم فى حاجة إلى تلك الملكات ، كما جعل فرنسا ذاتها تحس هذه الحاجة وتحاول سدها بمواقف وتوجيهات وتوفيقات فى الميادين الدولية والدبلوماسية عرفتها لها الشدائد والأزمات .

وقد راحت تلك التطورات فى سبيل تقابل الكتلتين الأنجلوسكسونية والسلافية ، فكانت المواقف التى وقفتها فرنسا فى بعض اجتماعات هيئة الأمم المتحدة وفى بعض جلسات وزراء الخارجية حائلة دون التصادم الذى كان يحسبه البعض محتوماً ، وموفقة فى كثير بين مختلف التيارات .

معاهدات الصلح

وكذلك عادت إلى باريس صفة من صفاتها الدولية التقليدية ، وهى صفة المكان المفضل للاحتفال بالأحداث الدولية الهامة ، أو على حد تعبير بعض الكتاب الفرنسيين ، صفة « عاصمة التوقيعات » . ففى العاشر من شهر فبراير احتفل فى وزارة الخارجية الفرنسية بالتوقيع على النسخ الأصلية لمعاهدات الصلح مع حلفاء ألمانيا السابقين ، وهى المعاهدات التى كان قد وقع عليها من قبل مستر بيرنز وزير الخارجية الأمريكية فى نيويورك

وهو يحضر آخر اجتماع له فى مجلس الأمن قبل أن يقدم استقالته ، والرفيق مولوتوف فى موسكو ، ومستر بيفن فى لندن . وقد تلت هذه التوقيعات السابقة توقيعات مسيو بيدو وزير الخارجية الفرنسية وسائر ممثلى الحلفاء ثم توقيعات ممثلى الدول المقهورة .

وبهذا الحادث ، بل بهذا الحدث تعتبر حالة الحرب مع الدول الموقعة على هذه المعاهدات قد انتهت . على أن خمساً من هذه الدول ، بينها اثنتان من غير « الأعداء السابقين » ، قد أوصلت إلى رئيس الحفل كتباً من وزراء خارجيتها قصد إبلاغها إلى سائر الموقعين يعرضون فيها الأسباب التى تدعوهم إلى اعتبار المعاهدات التى يوقعون عليها غير مرضية لدولهم .

وقد أجمعت المجر وبلغاريا ورومانيا على عدم عدالة بعض أحكام المعاهدات ، وعلى أن النصوص الاقتصادية الخاصة تكلفهم تكاليف باهظة . وإلى هذا فان المجر تشكو من أن الحقوق الأساسية لأبنائها العائشين خارج حدودها غير مضمونة ، وتوجه شكواها فى هذا الصدد بخاصة إلى تشيكوسلوفاكيا التى لم تحترم اتفاق تبادل السكان المعقود معها فى شهر فبراير سنة ١٩٤٦ وهو الذى يقضى بتبادل فرد بفرد .

وأما بلغاريا فتشكو من عدم اعتبارها شريكة فى الحرب مع أنها شاركت فيها إلى جانب الحلفاء بنصيب منذ سبتمبر سنة ١٩٤٤ ، وهى تحتج على أنها لم تنل مخرجاً إلى بحر إيجه ، وأن تراقيا الشرقية لم ترد إليها . وهى تئن من ثقل عبء التعويضات المفروضة عليها ، وتطالب بامهالها سنتين كاملتين قبل أن تبدأ فى تسديد أقساط تلك التعويضات ، ولا سيما أنها لم تحظ بمساهمة فى التعويضات المفروضة على ألمانيا .

وأما رومانيا فلا تتردد فى إظهار سرورها لما أصابها من تصحيح حدودها من ناحية ترانسلفانيا ولكنها تشكو إقصاءها هى الأخرى عن المشاركة فى التعويضات الألمانية ، وتعلن أنها ستتولى المفاوضة المباشرة مع جاراتها قصد تنسيق الأحكام الاقتصادية للمعاهدة .

وكذلك شكت يوجوسلافيا وشكت اليونان من أحكام المعاهدات . وتحتج يوجوسلافيا على طريقة تسوية مشكلة تريستا ، وتسجل مخاوفها بشأن اليوجوسلافيين الباقين فى المناطق التى أبقتها التسوية داخل الأراضى الايتالية ، وتعلن أنها لا تنزل عن المطالبة بهذه المناطق اللازمة لكيانها لزوماً «فنيا» .

وتحتج اليونان على أنها لم تفز بأى تعديل لتخومها فى حين تخرج بلغاريا وقد أضيفت إليها مناطق فى دو بروجه . كذلك تعلن احتفاظها بالمطالبة فى المستقبل بأقاليم ايبروس الشمالية من ألبانيا ، كما تأسف لعدم النص صراحة على نزول إيتاليا عن بعض جزر مجاورة للجزر « الاثنتى عشرة » المعروفة .

والمفروض أن تلك الشكاوى لن تكون محل نظر إلا إذا تطور أمرها مع الزمن فهدد الأمن أو أوجد نزاعاً يكون من اختصاص مجلس الأمن أن ينظر فيه . وإلى وقوع هذا التطور فان التوقيع على معاهدات الصلح قد جعل السلم الرسمى هو الحالة الراهنة فى أوربا ما عدا النمسا وألمانيا اللتين ستعالج أمور الصلح معهما فى مؤتمر وزراء الخارجية الذى سيعقد بموسكو ابتداء من اليوم العاشر من شهر مارس المقبل .

بين انجلترا وفرنسا وروسيا

كذلك تجلى خلال الشهر المنقضى نشاط فى سبيل عقد تحالف بين فرنسا وانجلترا . وكانت انجلترا تطمح إلى هذا التحالف من زمان . وطالما سعى مستر تشرشل إلى تحقيق مشروع الحلف الغربى بضم انجلترا وفرنسا وبلجيكا وهولندا . وقد سبق له أن حاول تحقيقه أيام كان الجنرال ديجول على رأس الحكومة الفرنسية المؤقتة . لكن قيل فى بعض الدوائر إن محاولته لم تنجح لأن روسيا كانت قد عارضت الفكرة إذ لمحت فيها شيئاً قد يكون موجهاً ضدها . وكان مسيو بلوم وهو فى رياسة الوزارة الفرنسية قد سافر إلى لندن للتحدث فى أمر التحالف الفرنسى البريتانى ، وقد قيل فى ذلك الوقت إنه قد نجح فى وضع المبادىء العامة التى يقوم عليها . وقد تبودلت خلال الأيام الأخيرة مذكرات بين الحكومتين انتهت بابلاغ الحكومة البريتانية حكومة فرنسا مشروعاً للتحالف المنشود . فلاحظت عليه فرنسا ملاحظات أهمها أنه يقصر المعونة الحربية المتبادلة على حالة وقوع اعتداء مسلح فعلى من جانب ألمانيا فى حين أن تاريخ الحربين العالميتين الأخيرتين يدل على أن انتظار وقوع الاعتداء الفعلى المسلح من ألمانيا يكون معه التعاون متأخراً بعد أن يكون قد صدر عن ألمانيا من الأعمال ما تقضى المصلحة العالمية

بوقفه فى الحال . وضربت فرنسا لذلك مثلا فى أمر تجاوز ألمانيا عن التزاماتها إزاء منطقة السار ، ولو كان ذلك التجاوز قد قابله عمل مشترك من فرنسا وانجلترا معاً لما أعانت الظروف ألمانيا على إعداد الحرب العالمية الثانية .

وكانت انجلترا قد أخطرت روسيا باعتزامها عقد محالفة مع فرنسا حتى لا يتكرر منها موقفها من المحاولة الأولى مع الجنرال ديجول ؛ فانتهزت روسيا الفرصة وطالبت بتعديل بعض أحكام المحالفة القائمة بينها وبين انجلترا ، وتبودل الرأى بين الجانبين لكنهما لم يصلا بعد إلى موقف نهائى .

على أن فرنسا تود لو انتهى الأمر لمناسبة عقد محالفتها مع انجلترا وتعديل المحالفة الانجليزية الروسية إلى صدور تصريح ثلاثى يؤكد الصداقة بين الثلاث المتحالفات ويؤكد تضامنهن فى سبيل توطيد السلام . ولعل فرنسا تقصد بذلك إلى إبعاد كل ريبة عن تحالفها مع انجلترا . ولعلها تقصد كذلك بعث الاتفاق الثلاثى من جديد تحيط أطرافه بألمانيا من جميع الجهات .

وقد يؤيد هذا الاتجاه الأخير سعى فرنسا إلى عقد تحالف مع بولونيا وتحالف آخر مع تشيكوسلافاكيا على غرار التحالف القائم بين روسيا وانجلترا . ولقد كان مثل تلك المحالفات قائماً قبل الحرب العالمية الثانية .

التحقيق الدولى فى اليونان

وكانت اليونان قد تقدمت إلى مجلس الأمن شاكية وصول المساعدات المادية من أراضى الدول المجاورة إلى الثائرين فى وجه الحكومة اليونانية القائمة ، وطلبت فى سبيل ذلك تحقيقاً ، فألف مجلس الأمن لجنة وعهد إليها بأمر التحقيق فى اليونان ، وبدأت اللجنة أعمالها ورغبت هيئة « ايام » الثائرة أن تستمع لجنة التحقيق إلى أقوالها . وكان أحد أعضاء مجلس العموم البريتانى قد قابل القائد العام لجيش تلك الهيئة ، فحمله القائد كتاباً إلى أعضاء لجنة التحقيق الدولية يدعوها فيه إلى زيارته ، ويبلغها استعداده للذهاب بنفسه إلى مقرها ليوضح شخصياً وجهات نظر جيشه الذى يسميه الجيش اليونانى الديمقراطى . وقد قررت اللجنة إرجاء اتخاذ قرار فى شأن هذه الدعوة إلى أن تعقد جلساتها فى سلانيك خلال الأسبوع الأخير

من شهر فبراير . وفى انتظار انتهاء التحقيق وظهور نتائجه أعلنت الحكومة البريطانية أنها ستسحب قواتها العسكرية من بلاد اليونان قبل اليوم الأخير من شهر مارس إلا فرقة واحدة .

الخلاف بين بريطانيا وألبانيا

وقد أخذ مجلس الأمن ينظر شكوى بريطانيا من ألبانيا ، وقد اتهمتها بأنها « تعمدت سرا » بث الألغام التى نسفت مدمرتين بريطانيتين فى مضيق كورفو فى الثانى والعشرين من اكتوبر لسنة ١٩٤٦ ، وذهب ضحية هذا الحادث أربعة وأربعون من البحارة البريطانيين ، وجرح من جرائه اثنان وأربعون بحاراً آخرون ، كما راحت ضحيته إحدى المدمرتين . وحضر مجلس الأمن ممثل ألبانيا وهو وزيرها المفوض فى بلغراد ، كما حضره وفد بريطانى يجرى كامل برياسة الأميرال تيلر ليؤيد مندوب بريطانيا الدائم لدى مجلس الأمن . واستند الاتهام البريطانى إلى أن قناة كورفو طريق دولية معترف بدوليتها ، للسفن البريطانية حق المرور فيها قانوناً ، وإلى أن الألغام المبثوثة كان بعضها على مسافة ثلاثمائة ياردة من الشاطئ الألبانى ، وإذن فيستحيل بثها دون علم الألبان . واستند الدفع الألبانى إلى أن ألبانيا لم تعترف يوماً بدولية قناة كورفو ، وإلى أنها لم تعرف شيئاً عن اللجنة المشتركة لالتقاط الألغام ، وإلا كانت هى عضواً من أعضائها وهى مطلة على المياه التى تكتسح منها الألغام . وإلى ساعة كتابة هذه السطور ، لم ينته مجلس الأمن من النظر فى الخلاف .

قضية فلسطين

وقد انتهى مؤتمر فلسطين الذى كانت قد دعت إليه انجلترا وحضره مندوبون عن الدول العربية وعن عرب فلسطين ، انتهى إلى الاخفاق إذ رفض العرب المقترحات البريطانية ، وهى فى نظرهم قاضية بتهيئة أسباب الكثرة اليهودية فى فلسطين وبتشجيع إنشاء الدولة اليهودية بحيث تبتلع فلسطين كلها على الأيام .

وكانت الحكومة البريتانية تتصل بالصهيونيين أثناء انعقاد المؤتمر وتعرض عليهم مقترحاتها كذلك ، وقد قابلوها بالرفض هم أيضاً ورأت الحكومة الانجليزية أن تعهد بالمشكلة الفلسطينية إلى هيئة الأمم المتحدة بعد أن يئست من مساهمة الحكومة الأمريكية فى تحمل أعباء المحافظة على الهدوء والنظام فى فلسطين . وترمى انجلترا بذلك إلى سبق الدول العربية إلى الهيئة الدولية العالمية ، وقد كانت هذه الدول مقررة فى مجلس جامعتها ببلودان أن ترفع الأمر إلى هيئة الأمم المتحدة شاكية انجلترا على اعتبار أنها صاحبة الانتداب ، فاستمهلتها انجلترا حتى هيأت لنفسها ظروف التقدم إلى الهيئة ذاتها ، لكن لا بصفة المشكو منها بل بصفة الحائر فى أمره من لغز فلسطين .

وقد نسيت انجلترا أنها هى خالقة هذا اللغز بما سبق أن وزعته من وعود متناقضة للعرب واليهود : وعد الاستقلال العربى الشامل للحسين بن على ، ووعد بلفور للصهيونية العالمية .

محمود عزمى

شهرية المسرح

الموسم الفرنسى للكوميدى

تارتيف أو الدجال تأليف موليير[1]

افتتح الموسم الفرنسى للكوميدى بدار الأوبرا الملكية هذا العام بمسرحية من مسرحيات موليير . وهذا هو المتوقع المرتقب من فرقة على رأسها جان مارشا من الأعلام الفحول الراسخى القدم فى المسرح الذين عركوا قديمه وحديثه واضطلعوا فى الحالين بتأدية رسالته الخالدة .

والناظر فى ثبت الروايات المزمع تقديمها فى هذا الموسم يلمس الحرص الشديد على أن تنعكس فيها صور الفن المسرحى على اختلاف سماتها فى مختلف العصور على قدر ما يسمح به الزمن المحدود . وهذا الحرص الشديد مرجعه بلا ريب إلى شعور الفرنسيين بأن الفن المسرحى هو بين سائر وجوه الثقافة عندهم أغناها باللون وأنطقها بالتعبير ، وأنه عصاهم السحرية وأداة ذيوع شهرتهم الأدبيه فى العالم عامة وفى الشرق العربى خاصة . ومن ثمة احتشدت فى برنامج الشهر الواحد جملة صالحة من أعيان التأليف المسرحى . وفى هذا الحشد الكبير نرى موليير ، وموسيه ، وكلوديل ، وجيرودو ، وأنوى ، وفايدو ، وجيرالدى وسالاكرو وغيرهم يحمل كل منهم إلينا آية من روائع آياته الكبرى .

وقد اختص — ولاجرم — بمكان الشرف فى صدر الموسم بين هؤلاء أجمعين جان بابتيست الملقب بموليير العظيم . فهو — غير منازع — مبدع فن الكوميدى الحديث . ولقد كانت الكوميدى من قبله حكاية للمهازل الايطالية التقليدية ، وهى فى أكثر الأحيان غليظة الدعابة فاحشة المجون ، وإن كانت على الدوام كثيرة النوادر حافلة بالمضحكات . ومعلوم أن هذه المهازل التقليدية كانت تدور على ما اصطلح القوم عليه من شخصيات هزلية بعيدة عن الحياة الواقعية ؛ فلم يلبث موليير أن عدل بها عن ذلك ، وعمد إلى تقريب فن المهزلة من الواقع ، وتوجه إلى خلق مسرح هزلى جديد قريب من الحياة فى بيئته وزمنه ، بل قريب من الحياة الانسانية الخالدة فى كل مكان وفى كل زمان .

وقد وقع الاختيار من روايات

(١) Molière, *Tartuffe* ou *L'Imposteur*.

موليير على « تارتيف أو الدجال » لافتتاح الموسم بها . وهى الرواية التى « أثارت حولها ضجة كبيرة واشتد النكير عليها أمداً طويلا » على حد قول المؤلف عام ١٦٦٩ .

والواقع الذى لا خفاء به أن إضافة وصف « الدجال » إلى عنوان الرواية شهادة ناصعة ودلالة قاطعة على أن المؤلف إنما يقصد إلى المرائين الذين يحترفون التقوى ويتجرون بالدين.

ورواية « تارتيف » أشهر من أن نعرض لها بالتعريف ؛ فليس بين قراء الأدب من لم يقرأها فى أصلها أو فى إحدى تراجمها فى مختلف اللغات . ورواد المسرح المصرى يعرفون تارتيف ممصراً فى مسرحية «الشيخ متلوف» للمرحوم عثمان بك جلال الذى نقل شعرها الفرنسى فى كثير من التصرف إلى زجله الحى اللطيف .

وليس دور مدعى التقوى الزائف تارتيف من البساطة بحيث يقع الاتفاق على طريقة تأديته ؛ وذلك أن شخصية تارتيف مركبة معقدة يجتمع فيها التظاهر بالورع والشهوة المكبوتة وحب الرياسة والسلطة ، فنحن بازاء مزيج من الدناءة الخلقية المهينة والفطنة الذهنية العظيمة والقوة النزوعية العارمة . ومن ثمة كان دور البطل فى هذه المسرحية الهزلية مضحكا وفى الوقت نفسه رهيباً.

وقد اضطلع جان مارشا بهذا الدور فأحاط بجميع خصاله وأظهر سائر ألوانه وظلاله . وقد أجاد الممثلون أجمعون ، وعلى الأخص جان بول مولينو فى دور صاحب الدار المضيف فى سذاجته وطيبة قلبه وسرعة تصديقه وحسن اعتقاده . ولقد كان لماريون دلبو الوصيفة أثر ظاهر فى إشاعة المرح فى جو القصة و إثارة الضحك بين النظارة .

ومما يجدر ذكره والاشارة إليه حرص الفرقة على محاكاة المسرح فى عهد موليير نفسه . فقد أقامت على خشبة المسرح الفسيحة مسرحاً صغيراً تنير حافته الشموع أو على أصح القولين أشباه الشموع من المصابيح الكهربائية ، كما توخت البساطة فى معدات المنظر وستائره . وعلى هذا المسرح الصغير الأنيق بدت ملابس العصر بديعة الألوان لطيفة الهندام فى أجمل رونق وزينة .

وقد أبى على جان مارشا أدبه الجم و إدراكه لرسالة الفن فى تقريب الشعوب إلا أن يرتجل قبل تمثيل الرواية كلمة فى التنويه بالعلائق الثقافية بين فرنسا والشرق أشار فيها بموقف العطف الذى وقفته مصر تجاه فرنسا فى هزيمتها وفى أثناء مجهودها للنهوض من كبوتها ، وأعرب عن

يقينــه الجازم بأن موقف مصر من فرنسا باق على حاله مهما تبدلت الأحوال . ثم ختم الممثل الكبير كلمته بانشاد قصيدة وطنية للكاتب الشاعر الكبير بول كلوديل . وكان جان مارشا يلقى كلمته وخلفه منظومة من الحسان هن كواكب فرقته فى أبدع ما أخرجته دور الأزياء من حلل السهرة .

وهكذا كانت حفلة الافتتاح جامعة بين الفن المسرحى والشعر الحماسى والمناظرات الثقافية ومعارض الأناقة الباريسية .

ولا غرو أن يكون ذلك كذلك ؛ فتلك هى الروح الفرنسية .

لو أنى أردت تأليف بول جيرالدى وروبرت سبتزر[1]

هذه مسرحية من اللون المكفول سلفاً عند الكافة من المتفرجين نجاحه ورواجه ، وحظوته لديهم وحســن موقعه منهم . فهى تدور أولاً وآخراً حول ذلك المخلوق العجيب الحبيب : « المرأة » . ثم هى تدور حول المرأة لا بالمعنى الفلسفى التجريدى ، بل بالوضع الغريزى والمعنى الطبيعى .

فهــذا زوج وزوجتــه — فيليب وجرمين — يعيشان فى مغناهم الريفى الأنيق ، وقد مضى على زواجهما نيف وعشر سنوات فى صفاء ودعة وسكينة ، يعيش كل منهما لصاحبه ، مطمئنا إلى هواه ، مستريح البــال من ناحيتــه حتى ليكاد أن ينساه .

وفى ذات ليلة رائقة مقمرة من ليالى الصيف يهبط على البيت فى ساعة متأخرة ، وعلى غير موعد ولا انتظار ، صديقة لربة البيت هى مارسيل على نية المبيت وقضاء بضعة أيام .

وكانت جرمين من ذوات العقل والرصانة بقدر ما كانت صديقتها من خفاف الأحلام .

وهنا فى سكينة الريف ، وفى ركن هذا البيت الناعم القرير ، يدور بين المرأتين هذا الحديث الخطير .

تقول جرمين فيما تقوله تؤنب صاحبتها : « هــذا فظيع يا صغيرتى المسكينة ! فظيع هذا الذى تقولينه ! حسبتك قد نزعت عن جهلك وراجعت رشدك . لم تكونى مع زوجك سـعيدة وقد انفصلت عنه بالطلاق ، فأنت اليوم حرة طليقة . ولكن ، ولكن يجب مع ذلك أن تتدبرى ما تأتينه . لقــد تورطت منذ ذلك الحين فى مغامرة

(١) Paul Géraldy et Robert Spitzer, *Si je voulais.*

غرامية أولى ، فلم أواجهك بكلمة لوم . تذكرين ؟ ولكن ، هذه أخرى . يجب أن تفكرى فيما أنت صائرة إليه . سوف ينتهى الأمر بك إلى التدهور ، إلى سقوط الحرمة فى أعين الناس . ماذا يظن الناس بك؟ بماذا هم قائلون عنك؟ حتى أحباؤك لن يجدوا سبيلا للدفاع عنك ! »

وتدافع مارسيل عن نفسها فتقول فيما تقوله : « أنت — يا عزيزتى ! — غير مستطيعة فهمى . أنت تختلفين الاختلاف كله عنى . وماذا تريدين منى؟ ليس الأمر فى يدى ، ولا الذنب ذنبى ، إذا أنا رقت فى أعين الرجال . صدقينى . لست أتعمد ذلك ولا أفكر فيه ولا أنشده . ولكنها ميزة فىَّ . هى فتنة ، سحر ، أو ما شئت فسميه . ولكن ، أنت لا تفهمينى . ليست كل امرأة جميلة بالتى تروق فى أعين الرجال . تقولين إنك لا محالة تروقين فى عين فيليب ، وأنا معك فى هذا ، ولكن فيليب زوجك . آه ، إنى شئ آخر ، إنى أروق فى أعين الرجال جميعاً ... »

هذا الحديث أو ما فى معناه دار بين المرأتين الشابتين . وجرمين زوجة شريفة عاقلة ما فى ذلك ريب . ولكن المرأة مع ذلك قد تعرض لها حال من الأحوال فى لحظة من اللحظات تفقد فيها اتزانها بعضه أو كله . وهذه الحال عرضت لجرمين فى صورة الشك فى حظها من الحظوة فى أعين الرجال ومبلغ قدرتها على الفتنة واهتياج الشوق لو أنها أرادت !

هذه هى نقطة البداية فى الرواية ومحور موضوعها ومدار حوادثها .

وتسلطت هذه الفكرة الواحدة على جرمين ، وتربعت فى خاطرها ، وركبتها واستبدت بها وأخذت المذاهب عليها ، حتى وقر فى نفسها أن الفصل فى هذا الأمر هو الحكم على حياتها ، المؤنثة بالنجاح أو الخيبة .

ولاشك فى أن هذا المعنى الذى أورده المؤلف مروع فى ذاته ، ولكن روعته لاتمنع من صحته ، إن كان صحيحاً .

ومؤلف الرواية بول جيرالدى من أشهر شعراء الغزل المحدثين عند السواد الأعظم من الفرنسيين بديوانه الموسوم « أنت وأنا » . وهو كاتب مسرحى مقل ،فلا يزيد عدد مسرحياته على أصابع اليد الواحدة ، بما فى ذلك المآسى والملاهى ، وقد اشترك معه فى الأخيرة صديقه الحميم سبتزر، وقد كان النجاح حليفها جميعاً . والرواية التى نحن بصددها ملهاة لطيفة لذيذة . ومؤلفنا بول جيرالدى يجيد تصوير دخائل الحياة الخصوصية الغرامية ،

ويؤثر تناول القلب الانسانى من نواحيه الضعيفة الرقيقة، ولاسيما قلب المرأة . وهو شديد الحرص عامة على الصدق ، ولكنه أشد حرصاً على النسق الزخرفى الشائق والحوار الشعرى الرائق . وقد أظهر فى هذه الرواية براعة فى الالمام بالمعانى الجريئة بعبارة ملفوفة غير مكشوفة ، متصونة غير متبذلة . وفى الرواية عاصفة كان يمكن أن تكون الجائحة الكاسحة ، ولكن التعقل والحكمة كانا عند المؤلف لحسن الحظ من الخصال المحببة الغالبة . ومن ثمة كان ما اختاره لروايته من النهاية السعيدة.

لقد تعرضت الزوجة يوماً كاملا لمواقف دقيقة وأزمات عصيبة ، فيها سخف وألم ، ولكنها تلقت آخر الأمر الجواب على سؤالها من غير أن تقع فى الخيانة الكبرى لزوجها .

ولا يسعنا وقد شهدنا تمثيل الرواية بعد قراءتها إلا أن نقرر أنها فازت بالنجاح الذى قدرناه لتوافر عوامل النجاح فيها ، وأنها فازت بأكثر مما قدرناه من النجاح الباهر بفضل الممثلين الفنانين واقتدارهم على أدوارهم وحذقهم الأداء و إتقانهم المحكم للتمثيل . ونذكر فى الطليعة جان مارشا . فما ندرى ماذا كان يمكن أن يكون فيليب الزوج غير ذلك فى سجاحة خلقه ، وسخاوة طبعه ، وخلوص نيته، وصدق مودته وأريحيته ، واستقامة وجهته وصراحته . ثم جان ألفا فى دور الزوجة الشابة المحبة ، الحائرة العاقلة، الثائرة المتماسكة . وإلى جانبهما جيزيل كساديسو ، فى دور مارسيل ، خفيفة الظل بقدر ما هى خفيفة العقل طياشة، يسكرها الاطراء لجمالها فيدار برأسها إلى حد تسليمها فى نفسها . ثم لوسيان باسكال، فقد أبلى البلاء الحسن فى دور صديق الأسرة برتييه الذى يجرى جريه وراء متعته دون أن تضعف مروءته ، ودون أن يفقد الايمان بالفضيلة والاعجاب بها . وأخيراً أنطوان فليرى ابن عم الزوجة فى حماسة شاعريته،وقد تعمد الفنان الخروج بها إلى باب الهزل فأتى بما أضحك الحاضرين جميعاً وصادف هواهم وكسب رضاهم .

وخلاصة القول إن الرواية قوبلت منذ أول ليلة تمثيلها فى عاصمة الديار المصرية كما قوبلت أول تمثيلها على مسرح الجمناز فى عاصمة البلاد الفرنسية بأحسن القبول وأخر مظاهر الاستحسان والتقدير .

عبد الرحمن صدقى

الحسناء والوحش (انتاج أندريه بولفيه)[1]

هذا فيلم آخر يضيفه مسيو جان كوكتو إلى إنتاجه السينمائى وينال به استحسانا عاما — لأنه عندما يقوم بأثر فنى يعكف عليه ، فما يزال به حتى يخرجه كاملا محققاً لغايته . ولذلك قلما نجد فى فيلم من إنتاج غيره مانلمسه فى إنتاجه هو من جهة التصوير أو الاخراج . وهو يجتهد حينما يعمــل للسينما أن يبتعد عن الأسلوب المعتاد فى الاخراج ليأتى بشئ جديد . وهو لا يعتمد فى ذلك إلا على خياله من حيث هو شاعر ، وعلى ذوقه الفنى من من حيث هو رسام . وتمده الخدع السينمائية بكل مايحتاج إليه من وسائل لتحقيق غرضه .

يطلب منا كوكتو عند ابتداء عرض فيلم « الحسناء والوحش » أن نشهد حوادثه فى سذاجة الأطفال ، تلك السذاجة التى حملتنا ، ونحن فى السابعة من عمرنا ، على الاعجاب بقصص الأعاجيب . فلم يكن ثمة سبيل إلى تذوق الجمال فى أثر كوكتو الفنى دون هذه السذاجة ؛ لأنه عرض علينا قصة خرافية طالما شغفنا بها فى طفولتنا. وسرعان ما تساءلنا والمشاهد تمر أمامنا ألا يزال ثمة شئ من سذاجة القصة التى تكوّن مبعث الجمال فيها بعد أن لجأ إلى كل الحيل السينمائية لاخراج هذا الفيلم . إن الشاهد ليشعر بغضاضة من تلك المناظر ؛ لأنه يعلم تمام العلم أنها نتيجة خدع المصور وخدع المخرج وخدع المؤلف فينمحى الجمال ولا يبقى إلا إعجاب بتلك الصناعة السينمائية الماهرة .

إن الخيال هو خير معاون للأثر الفنى ، وخاصة إذا وجد السبيل إلى الجموح . أى إن على المؤلف أو المصور أن يترك للمشاهد أو القارئ فرصة أن يتمم الأثر الفنى بخياله . فهناك تعاون بين المؤلف والقارئ أو بين الفنان والمشاهد . فالقارئ يجد عند مطالعة قصة مجالا يسبح فيه بخياله ليكمل ما عجزت عن تصويره الكلمات ، فيشيد قصراً من خياله ، ويؤثثه من خياله ، ويصبغ الأشياء بالألوان التى تروق له . والقصص الخرافية خاصة ترسل العنان لخيال القارئ فيملأها بما يروق له من

---

(1) La Belle et la Bête (*Production André Paulvé*).

أعاجيب . ولهذا تصادف تلك القصص هوى فى نفوس الأطفال . فعندما قام كوكتو باخراج قصة « الحسناء والوحش » أزال كل فرصة للشاهد أن يترك خياله على سجيته ، وصور لنا الأشياء كما يراها هو لا كما نراها نحن أو كما رأيناها عند قراءة هذه القصة . فأفقدنا ذلك الحلم اللذيذ الذى طالما سبحنا فيه ونحن أطفال ، والذى لا نود أن ينهار بشهود ما حققه لنا كوكتو فى هذا الفيلم من حوادث تلك القصة الشائقة .

ومهما يكن من أمر فان فيلم كوكتو ليس بالعمل الذى ينقصه شئ . فانه إنتاج فنى رائع يظهر فيه جلياً مجهود منتجه ليصل إلى الكمال فى التصوير والاضاءة . وقد رفع من شأن هذا الانتاج تمثيل جان ماريه فى دورين مختلفين هما دور عشيق الحسناء ودور الوحش . وقد أظهر رغم النقاب فى دور الوحش قدرة على التعبير المعتدل وعظمة فى إيماءاته ومشيته . أما جوزيت داى فقد مثلت دور الحسناء بكل ما يتطلب هذا الدور من وداعة ورقة .

رسائل غرامية (فيلم برامونت) (١)

هذه قصة غرام ساذج نقى نشأ بين شابين جمعت بينهما الرسائل التى يتلقاها كل منهما من الآخر . لم يكد يجمعهما الزواج حتى دب بينهما الشقاق ، فقد وجدت الفتاة زوجها ذا عقلية تختلف عن العقلية التى لمستها فى رسائله . وفى الحقيقة أنه لم يكن هو كاتب تلك الرسائل ، وإنما كان يعهد بها إلى صديق له . فهى إذن لم تقترن بمن أحبت وإنما بمن غرر بها وحملها على الاعتقاد بأنها تحبه . فثمة شخص آخر سلبها لبها وامتلك نفسها . وها هى ذى فى محنتها تعود إلى قراءة تلك الرسائل لعلها تجد سلوى ؛ ولكن الزوج تدفعه الغيرة إلى أن ينتزع منها تلك الرسائل التى تنقل إليها عبير غرام شخص آخر . وتحدث بين الزوجين مشادة تنتهى بمصرع الزوج فى ظروف غامضة . تصاب الزوجة بفقد الذاكرة حينما ترى زوجها صريعاً أمامها ويديها مخضبتين بدمائه . ثم تجمعها الأقدار بصديق زوجها كاتب الرسائل دون أن تعلم عن حقيقته شيئاً ، وهو لا يحاول أن يظهر لها حقيقته لما فى ذلك من صدمة

(١) Love Letters (*Paramount Picture*).

عنيفة قد تذهب بقواها العقلية . تهيم بالفتى وتتزوج منه ويعيشان معاً عيشة هنيئة ، غير أن الأقدار تعكر هذا الهناء بعض الشيء ، ثم تعود به إلى صفائه الأول . ففى ظروف عصيبة مؤلمة تعود إلى الزوجة ذاكرتها ، ويتضح لها أنها لم تقتل زوجها الأول . يعود إليها صفاء النفس بعض الشيء ، وتهم بالخروج للبحث عن ذلك الذي أحبت ، فتلتقى بزوجها وقد أخذ يعيد إليها جملا من الرسائل التى كان يكتبها لها .

والقصة كما نرى تقوم على ذلك الغرام الذى نشأ بين الشابين من الرسائل ،وتوشك أن تنتهى بموت الزوج والتقاء العاشقين . ولكن هناك عنصراً آخر أدخله المؤلف ليؤخر من حل العقدة وهو مرض فقد الذاكرة وما يستتبعه من دراسة تحليلية لحالة الفتاة المريضة . وهذا هو الاتجاه الجديد الذى نلمسه فى العدد الأكبر من إنتاج السينما الأمريكية فى الموسم الحالى. وقد يعتبر هذا الانتاج انتاجاً موفقاً لما فيه من دقة وأمانة فى التحليل النفسى ومن حسن و إتقان فى الأداء . كان يقوم بدور الفتاة الممثلة الناشئة جنيفر جونس . فكان النجاح حليفها .

وقام الممثل جوزيف كوتن بدور الفتى العاشق فى توفيق ونجاح .

عطلة الأسبوع المفقودة (فيلم براموتت) (١)

عرض لأول مرة فى مصر فيلم من من الأفلام التى حازت جائزة مهرجان كان ، وهو فيلم « عطلة الأسبوع المفقودة ». وعرض أيضاً فيلم «الحسناء والوحش » الذى لم يظفر بجائزة رغم أنه يستند على إخراج متقن وتصوير فنى بارع وقصة ساحرة لا تخلو من جمال ؛ أما فيلم «عطلة الأسبوع المفقودة» فلم تجتمع فيه كل هذه العناصر لتمهد له السبيل إلى النجاح . فليس له قصة كما يجب أن تكون القصة ، ولم يطغ فيه الاخراج المتقن على التمثيل . وإنما استند فى نجاحه على التمثيل البارع العجيب وعلى الصورة الواقعية التى ساقها إلينا. قدم لنا هذا الفيلم ثلاثة أيام من حياة شاب امتحن بداء الخمر حتى إنه لم يكن يستطيع أن يمضى دقيقة واحدة دون أن يتناول الخمر . لقد حاول أخوه وخطيبته أن يرداه عن تلك العادة القاتلة ، ولكن فى غير جدوى . فهو

(١) The Lost Weekend (*Paramount Picture*).

يعرف كيف يخفى عنهما زجاجات الخمر وراء كتب المكتبة ، أو فى الثريا ، أو مدلاة خارج النافذة . وإن منعت عنه النقود فلا يعوقه شئ عن تبديد نقود الخادم العجوز ، أو نشل حقيبة جارته فى الحانة أو التوسل إلى صاحب الحانة ليتكرم عليه بكأس صغيرة .

كان ينوى أن يقضى عطلة الأسبوع مع أخيه فى الريف ، غير أن السكر أنساه ميعاد القطار ، فبقى فى المدينة يتنقل من حانة إلى حانة يستأنف فى كل منها تناول الشراب . ثم يعود إلى المنزل ليستأنف الشراب أيضاً . أصبح لا يعيش إلا بالخمر وللخمر ، حتى انتهى به الأمر ، وقد مضى عليه بضع ساعات دون أن يتناولها فأعياه ذلك إعيـاء شديداً ، إلى مستشفى مدمنى الخمور . وهناك رأى مآل هؤلاء القوم التعساء ، فنفر من ذلك المصير المحتوم وولى الأدبار ليستأنف الشراب . وأخيراً لما خيل له أن نهايته قد دنت صمم على الانتحار ليخلص من محنته هذه . ولكن خطيئته تحول بينه وبين ما يريد ، وتقدم له الخمر لترجعه عن عزمه ، فينفر فجأة من الكأس . لقد أنقذته من تلك المحنة مغامراته فى عطلة الأسبوع المفقودة .

وقوة القصة فى تحليلها الدقيق الصادق ، وإن لم تكن نهايتها تتفق والمنطق . فليس ثمة من سبب يشفى هذا المدمن من دائه بعد أن عانى منه ماعانى ست سنوات ، وأصبح ينفر من الطعام فلا يتناول شيئاً منه . إن هذا الشفاء لا يأتى إلا بعد علاج طويل يتطلب إرادة قوية من المريض ، وينجح حيناً ويخفق أحياناً . وهذه القصة تفتح عهداً جديداً فى السينما . فللآن لم نر مثل هذه الأفلام التى لا ترتكز على قصة جذابة قوية ، وإنما تقوم على الدراسة والتحليل .

وقد يبدو أول وهلة أن هذا النوع من الأفلام لن يجد سبيلاً إلى رضا الجمهور ؛ فالمناظر قليلة حتى لا تطغى على القصـة ، والقصة خالية من المفاجآت وليس هناك إلا ممثل واحد تراه لمدة ثلاث ساعات متتالية . ولكن فى الحقيقة وجد فيلم « عطلة الأسبوع المفقودة » سبيلا إلى النجاح لطرافته أولا ، ولبراعة ممثله راى ميلاند ثانياً . فهذا الممثل الذى يثير بتعبيراته الصادقة انتباه الشاهد طول عرض الفيلم هو ممثل ذو مواهب خارقة . لقد كان أداؤه على درجة من الاتقان حتى لخيل إلى من شاهده أنه يطالع فى كتاب تحليلا بارعاً لنفسية مدمن الخمر .

رشدى كامل

أدباء الألمان فى الوقت الحاضر

يرى هاينريخ فيشر ، كاتب المقال الهام الذى يبحث فى أدباء الألمان فى الوقت الحاضر ، وهو مقال نشر فى مجلة « هورايزن » الانجليزية فى عدد يناير ١٩٤٧ ، أن منظر ألمانيا فى الوقت الحاضر ، وهو منظر دمار وانحلال ، يدل دلالة بارزة على انحلال التفكير الانسانى فيها ، وهو نتيجة ست سنوات بل اثنتى عشرة سنة قضتها ألمانيا فى حرب ورعب . لذلك كانت الحياة الأدبية فيها الآن حياة فوضى غريبة ، حتى إنه لم يعد من السهل أن يعرف أكان الكتاب فى ألمانيا شركاء لهتلر أم هم ضحية له . لذلك يجب لكى يكوّن المرء فكرة عامة عن هذه الحال ، أن يحاول تبين خصائص الحياة العقلية فى ألمانيا .

فمن أول مميزات هذه الحياة ، وهى التى تبعث الدهشة لدى الأجنبى الذى يريد استكشاف الآداب الألمانية ، صفة تشاهد حتى قبل عهد هتلر ، وهى أن الأدباء الألمان قابلون للتحول عن آرائهم يوماً بعد يوم . ففى البلاد الأخرى نجد الأدباء هم الذين يخلقون الآراء التى يعتنقها الناس ، فى حين نجد الكتاب فى ألمانيا يسيرون وراء الآراء التى يخلقها الجمهور ؛ إذ نجد بين كتاب الألمان من أقدم على تغيير ، لا رأيه السياسى فحسب ، بل أسلوبه ونظرته إلى الأدب والحياة أيضاً ، ولم يتغير مرة بل ثلاث مرات أو أربع مرات . ونجد أمثلة كثيرة على ذلك بين كتاب الألمان من جرهارت هادثمان إلى هانز كانوسا . ولقد كانت هذه الظاهرة من العلائم السيئة فى الأدب الألمانى . وقد اعتاد الجمهور الألمانى ألا ينتظر من أدبائه الاستمرار على فكرة والمحافظة عليها . وصار الأدب مجرد شعور ذاتى حتى لدى الأدباء الذين يصبون مؤلفاتهم فى قالب أخلاقى أو سياسى . فاذا كان هتلر قد استولى على السلطة فليس ذنب الكتاب أنهم لزموا الصمت بما يدل على الرضا ، إذ الواقع أنه لم يرتفع صوت احتجاج واحد داخل ألمانيا ، بل إنهم انقلبوا أنصاراً للاشتراكية الوطنية ، ورأوا فيها اتجاهاً أدبيا

ناجحاً يستطيع الأديب أن يسير فى تياره فيصل إلى الشهرة فى أقرب وقت.

وقد يكون من المغالاة أن تقول إن هذا المظهر لم يكن إلا نوعا من انتهاز الفرصة ؛ إذ الواقع أن الاشتراكية الوطنية كانت توافق جانباً من تفكير الأديب الألمانى الحديث ، وهو إدارة ظهره عمداً لحقيقة الحياة . فقد أخذ الكتاب الألمان منذ عهد ستيفن جورج ينفصلون عن العالم الذى يحيط بهم ، ويخلون إلى أنفسهم . وإن الأسماء الكبيرة فى عالم الأدب فى الأربعين سنة الأخيرة لتدل على ذلك؛ فكارل ريلكى وفرانز كفكا والشاعرة الكبيرة لاسكار شويلر ، والشاعر النمساوى جورج تراكل ، كلها أسماء تبرهن على صحة هذا القول . وهذه الرغبة النفسية تظهر فى الكتاب حتى عهد هتلر ، وقد لحظها الناقد الألمانى يا كوب فاسرمان .

فاذا ما سقط النظام الذى أقامه هتلر ، كان على عالم الأدب أن يجيب على أسئلة عدة : كيف يقابل الأدباء الحرية التى ردت إليهم ؟ وكيف يواجهون الظروف الجديدة ؟ وماذا يعملون فى سبيل الاتجاهات الأدبية ؟ وإنها لفرصة كبيرة وصفها الكاتب كارل بارت بقوله : « إن ألمانيا هى الآن معسكر ضخم لأسرى الحرب ، والألمان هم الأسرى داخل البلاد وخارجها . ولكن لألمانيا اليوم ميزة ليست لغيرها من البلاد ، وهى أنه لم يبق لها إلا أن تبتدئ حياتها من البداية . » ومعنى ذلك فى عالم الأدب أن تعود إلى الحقيقة ، وأن تخرج من تصوفها وعزلتها وأن تسلك طريق المسئولية الشخصية ، بعيدة عن الأعذار التى تنتحلها .

ويمكن أن يقال إن بعض الأدباء عرفوا واجبهم ؛ فالروائى أرنست فيشر د ، الذى كان معادياً لنظام هتلر واعتقل فى إحدى المعسكرات ، أصدر من بضعة أشهر نداء للشبيبة الألمانية يدعوهم فيه إلى مواجهة الحقائق . ولكن الأصوات التى ارتفعت فى هذا الاتجاه كانت قليلة ، وظل السواد الأعظم من الأدباء والموسيقيين ورجال المسرح ملتزمين الصمت ، فى الأشهر الأولى بعد التسليم ينتظرون فى قلق ما يحل بهم من عقوبة . على أن هذه العقوبة لم توقع إلا فى النادر . وعلى ذلك أخذ أبرز الكتاب فى عهد هتلر يتجهون نحو الصحف التى سمحت قوات الاحتلال بظهورها ، وابتدأت مقالاتهم بأنواع من الاعتذارات وبأقبح الذم فى نظام هتلر ، وبأكبر المبالغات فى تمجيد انجلترا وروسيا وأمريكا . ومن الأمثلة البارزة على ذلك

أن إميل ياننجز الممثل المشهور فى عهد الفوهرر أعلن أن جدته يهودية ولدت فى روسيا . وأن دكتور كارل شارينج ، الذى كان من أوفى المذيعين لجوبلز ، كتب رسالة إلى الاذاعة البريطانية يطلب إليها عملا . وأن أيرك إبرمير تقدم لخدمة الأمريكان فى بافاريا فعين محافظاً لاحدى المدن ، فما كان من إحدى الصحف الألمانية إلا أن نشرت له رسالة كتبها فى سنة ١٩٤٢ يفخر فيها بعلاقاته مع جوبلز وجورنج . وقد كتب أحد الكتاب الذين اشتهروا فى عصر النازى ، وهو أوتو فليك ، نداء إلى الأدباء الألمان يعتذر فيه عن ضعفهم بأنهم اتبعوا مثل جيته ، والفيلسوف الصينى ثاو ، الذى قال إنه يجب على الانسان أن ينحنى ولا ينكسر بل عليه أن يعيش .

ولقد أدت هذه المحاولة التى أقدم عليها الأدباء الألمان بلا خجل إلى مواقف عجيبة ؛ فقد أعلن فى إحدى الصحف الألمانية أن روايات هانز فلادا قد سحبت من المكتبة العامة ببرلين لما فيها من اتجاهات نازية ، وظهر فى العدد نفسه من الصحيفة حديث مع هانز فلادا يعلن فيه أنه شرع يضع مؤلفاً ضخماً يستنكر فيه مبادئ النازية ، إذ يرى أن من واجبه أن يربى الشبيبة الألمانية !

ولكن المثل الأكبر لهذا الميل ، الذى ظهر فجأة فى الكتاب الألمانيين لتسويغ عملهم ، هو ما دار من نقاش حول موقف توماس مان .

لم يكن توماس مان بعيداً عن أخطار العزلة الفكرية التى كانت من نصيب الكتاب الألمان قبل أن يتسلم هتلر زمام السلطة ، وكانت هذه العزلة نوعاً من الاتجاه إلى تقليد الأدب الكلاسيكى . ولكن توماس مان صبت عليه المحن فى عهد هتلر ، فتعلم من هذه المحن الاعراب عن خواطره بقوة والاتجاه نحو الحقيقة . وكان ذلك السبب فى أن إذاعاته للألمان كانت مليئة بالحياة فتأثر بها كل من سمعها ، وإن لم يكن لها الا صدى ضعيف عند الكتاب الألمان ، ولعلهم كانوا ينتظرون منه أن يمتطى جواداً أشهب ، ويدخل إلى برلين منتصراً على أثر جنود الحلفاء ، ليفتح صدره للأدباء الألمان ويعانقهم بعد القطيعة .

ولقد نشر كاتب من كتاب القصص التاريخية اسمه ولتر فون مولو رسالة مفتوحة الى توماس مان فى الصحف الألمانية ، دعاه فيها إلى العودة فى أسرع وقت إلى ألمانيا ليتزعم الحركة الأدبية . فرد عليه توماس مان رافضاً هذا العرض . وقام حول رفضه جدل

عنيف . ومن أهم ما جاء فى رسالة توماس مان قوله :

« لقد سرنى طبعاً أن ألمانيا تريد عودتى ، ولكنى أجد فى هذه الدعوة شيئاً مقلقاً ومثيراً ، ولا أقول غير منطقى أو ظالم ، أو على الأقل لم يدرس جيداً . فانك تعلم أنه من العسير نصح ألمانيا ومساعدتها اليوم بعد الكارثة التى لا مخرج منها، والتى جرها الشعب الألمانى على نفسه . إنى هرم وقد أثرت الأزمنة المثيرة التى عشنا فيها فى عضلات قلبى . فهل أستطيع أن أساعد مساعدة جدية إذا جئت إلى تلك البلاد بجسدى ؟ وهل أستطيع أن أقيل من عثرة أولئك الذين سقطوا إلى الأعماق ؟ إنى أعتقد أن ذلك مشكوك فيه . هل يمكن محو هذه السنوات الاثنتى عشرة وما حدث فيها من الذاكرة كأن هذه السنوات لم تكن ؟ إنك يا سيدى لم تعرف قط ما يكتنف قلب المنفى من ضيق ، وما يشعربه من مخاوف وعزلة وما يتوقعه من مفاجآت ، ذلك الرجل الذى لا مأوى له . لقد مضت علىّ أزمان كنت فيها حانقاً للمزايا التى ظللت أنت تتمتع بها ، وبدا لى أن ذلك إنكار للتضامن بيننا . ولو حدث فى مبدأ الأمر أن كل رجل وامرأة له اسم فى عالم الفكر بألمانيا قد ثار ورفض تلك الذلة ، ولو حدث أن كل مفكر انضم إلى إضراب عام وهجر ألمانيا ، لكان لذلك شئ من التأثير فى البلاد وخارج البلاد . ولو أننا جميعاً عملنا ذلك لما كان ما حدث من بعد . . . لقد كان من وسائل العذاب العديدة لدينا أن رأينا الفكر الألمانى والفن الألمانى كيف يتطوعان لخدمة الدمار . فكيف يظن امرؤ أنه يقوم بخدمة شريفة إذا عهد إليه فى تصوير رسوم لروايات فاجنر كى تمثل هذه الروايات فى بايرويت فى عهد هتلر ؟ إنها لحالة عجيبة يخيل لى أنها تدل على عيون عمياء وقلوب من حجر ؛ إذ ترى رجلا يسافر إلى المجر أو أية بلاد أوربية أخرى ، وفى جيبه جواز موقع عليه من جوبلز ليلقى بعض المحاضرات الشيقة ، كى تكون دعاية ثقافية للدول الهتلرية . لا أقول إن هذا العمل فضيحة ، ولكنى أقول فقط إنى لا أفهمه وأشعر بالارتباك عندما أفكر أنى قد أقابل مثل هؤلاء الأصدقاء مرة أخرى . . . لست أفهم لماذا لم تمنع رواية « فيدليو » ، من تلحين بتهوفن فى هذه السنوات الاثنتى عشرة فى ألمانيا . لقد كانت هذه الرواية جديرة بافتتاح الموسم فى يوم تحرير الألمان لأنفسهم . ومن الفضيحة أن تكون هذه الرواية أخرجت قبل ذلك

إخراجاً جيداً ووجدت مغنيين يغنون أناشيدها ، وعازفين يعزفون نغماتها ، وجمهــوراً يصغى إليها . ما أقسى الرجال الذين حضروا رواية « فيدليو » فى ألمانيا الخاضعة لهتلر ، دون أن يغطوا وجوههم بأيديهم ودون أن يتركوا دار الأوبرا مسرعين متألمين . . . إنى لتواق لمعرفة كل ما أستطيع معرفته عما يحدث فى ألمانيا بأية وسيلة ، فأنباؤها تسترعى عينى قبل أية أنباء أخرى من العالم الواسع ، ذلك العالم الذى أخذ يشعر بنفسه دون أن يفكر كثيراً فى ألمانيا ، وفى هذا ما يدلنى يوماً بعد يوم على الرباط الذى لا ينفصم والذى يصلنى بتلك البلاد القديمة التى طردتنى من عداد أبنائها . هل أنا أمريكى ومواطن من مواطنى العالم ؟ أجل ! هذا ما صرت إليه ، ولكن كيف أنكر الجذور التى نبتُّ منها ؟ وبالرغم من الجرائم التى ارتكبها أولئك الذين جروا وراء آلهة غريبة كيف أنكر التقاليد الألمانية التى كانت فيها نشأة على وحياتى ؟

« لن أعدل عن اعتبار نفسى كاتبا ألمانيًا . ولقد كنت أميناً على اللغة الألمانية حتى فى السنوات التى كانت كتبى فيها لا ترى ضوء الشمس إلا فى ثوب انجليزى . وليس ذلك لأن السن تقدمت بى حتى صرت لا أستطيع أن أتخذ لغة جديدة فحسب ، بل لأنى كذلك كنت أعرف أن لمؤلفاتى مكانها المتواضع فى تاريخ الأدب الألمانى . . . إن ألمانيا لم تمنحنى قط ساعات راحة : لقد كنت أتعذب معكم ، ولم أكن مبالغاً حين كتبت فى رسالتى إلى جامعة بون على القلق والحزن والعذاب الذى حاق بأفكارى وبحياتى جميعها ، ولم تنج منها ساعة من ساعات السنوات الماضية فى حياتى . وهذه هى المحن التى كان علىَّ أن أقاومها فى عنف لأشق طريقى بوصفى فنانا خالقا » .

أثارت هذه الرسالة جدلا عنيفاً بين الكتاب الألمان . ولا ريب فى أن مسألة المهاجرين وعودتهم جديرة بالمناقشة . ولكن الكتاب الذين ردوا على هذه الرسالة كانوا من أولئك الذين لعبوا دوراً فى العهد الزائل ، وأرادوا أن يحتفظوا بمركزهم فى العهد الحاضر. من بينهم أديب اسمه فرانك تيس اخترع عبارة الهجرة الداخلية التى لجأ إليها هو وأمثاله فى عهد هتلر ؛ فهم على قوله كانوا مهاجرين سريين . هــذا مع أن كتبهم كانت تدر عليهم الأموال والشهرة . قد يكون هــذا الوصف منطبقاً على بعضهم ، ولكن السواد الأعظم منهم

لا ينطبق عليه هذا الوصف .

فاذا كان واجب الأدباء الألمان أن يتصلوا بالحقيقة ، وقليل منهم ويا للأسف يعمدون إلى هذا الاتجاه ، فان هنالك طريقين حاول بهما هؤلاء القلائل الاتصال بالحقيقة . أول هذين الطريقين الارتباط عمداً بالحياة العقلية فى غرب أوربا . والطريق الثانى العودة عودة حقيقية إلى التقاليد الألمانية ، لا اتخاذ هذه التقاليد على أنها زى جديد كما فعلوا فى عهد هتلر . ونجد فى أماكن مختلفة فى ألمانيا وبين المهاجرين من اتبعوا هذين الطريقين . ففى عهد هتلر نجد داخل ألمانيا الكتاب الكاثوليك هم الذين أزالوا الغشاوة عن أعينهم . ومن أشهر هؤلاء تيودور هيكر الذى توفى فى العام الماضى ، وقد ترجم كتب كيرجارد وكردنيال نيومان وبيلوك وفرانسيس تومسون ، ولكنه لم يكن مجرد ناقل بل كان كاتباً من الطبقة الأولى بين كتاب المقالات. وتعتبر كتبه « ما هو الانسان ؟ » عن بول كلودل، وكتابه الأخير: «عن الجهال» مثلا صحيحاً لما سمى بالهجرة الداخلية .

ومن بين أقرانه نجد المؤلفة الروائية جرترود فون لفورت والشاعر شنيدر والكاتب إرنست جوينجر مؤلف قصة « على تلال الرخام » .

ولقد حافظ الشاعر ديتريش بونهيفر على نزعة أدت به إلى الاتهام بالخيانة فى سنة ١٩٤٣ ، ثم قتل فى المعسكر الذى اعتقل فيه قبل أن تصله جيوش الحلفاء .

أما المهاجرون فمنهم ، فضلا عن توماس مان الذى عاد إليه شبابه ، ماكس هرمان نيس الذى مات بلندن فى غارة جوية سنة ١٩٤٠ ، وقد ترك مجلدين من الشعر فيهما وصف للريف الانجليزى ومخاوف الغارات والوحدة التى يجدها المهاجر .

ومن الكتاب المهاجرين برتولد فرتل الذى كتب بالألمانية عن الحياة فى انجلترا وأمريكا ، وبيرت درخت الشاعر ، والكاتب المسرحى انريجو بك الذى يعيش فى سويسرا ، وقد جمع بين وصف المناظر الألمانية والأسبانية .

فهل تجتمع هذه القوات المختلفة فتدب الحياة فى الأدب الألمانى من جديد ؟ كل ذلك سيتوقف على ظروف خارجية وعلى أحوال ألمانيا الاجتماعية ، وعلى تعقل لجنة المراقبة للحلفاء .

ظهر حديثا

مائة سنة من الحياة السويسرية فى القاهرة (١)

أخرج الأستاذ فيشتر ، مدرس اللغة الفرنسية بجامعة فاروق الأول ، كتاباً ذهبيا بمناسبة مرور عشرين سنة على ظهور جريدته السويسرية التى يصدرها فى الاسكندرية لمواطنيه فى مصر والشرق الأدنى *Journal Suisse d'Egypte et du Proche-Orient.* وهذا الكتاب الضخم ، الذى يحوى أكثر من ثلاثمائة صفحة مصورة من الحجم الكبير ، يعبر قبل كل شىء عن مظاهر السعادة والوداعة التى أسبغها السويسريون على حياتهم فى مصر ، وعلى مظاهر الوئام والتعاون التى طبعوا بها علاقاتهم ، سواء فيما بينهم أو بينهم وبين المصريين .

والكتاب سجل للنشاط الفائق الذى قام به رجال هذه الجالية الأجنبية فى القاهرة منذ مائة سنة فى مختلف نواحى الحياة المصرية ، صناعية وزراعية وتجارية ، واجتماعية وثقافية ، سجل لا يملك المتصفح لأبوابه إلا أن يرمقها بالدهشة والاعجاب ، ويمتلك المصرى الذى يطلع عليه شعور بالتقدير مختلط بنوع من الأسف . وهذا الأسف لا يرجع إلى أن هذه الجالية النشيطة الوثابة قد أفلحت وأثرت وأثمرت ، ولكنه أسف على أننا ، نحن أبناء مصر ، لم نهتد بعد إلى إخراج سجل مثل هذا الذى أخرجه السويسريون عما قام به أجدادنا وآباؤنا ، وعما قمنا به نحن أنفسنا من أعمال مجيدة فى سبيل تحقيق نهضتنا الشاملة لمختلف نواحى الحياة ، مادية وفكرية . جميل أن نعرف ما يقوم به الأجانب فى مصر ، وأجمل منه أن نعرفهم مانقوم نحن به سواء بمفردنا أو بالتعاون معهم ، وأن نرسم لهم صورة واضحة براقة لمجهوداتنا المثمرة .

وقد لا يتسع المجال هنا لايضاح ما يحويه الكتاب الذهبى السويسرى من أبواب وفصول ، فهو بحق دائرة معارف « إقليمية » ، إن صح لى أن أختلس هذا التعبير لحصر ما تشعب فى هذا الكتاب من مقالات وأبواب .

(١) *Cent ans de vie suisse au Caire.*

نقرأ فى مقدمتها قصة الحياة الرسمية السويسرية وتاريخ العلاقات السياسية التى ربطت سويسرا بمصر ، وفى أبواب أخرى أبان لنا المسيو فيشتر أطوار معاهد التعليم والرياضة والفنون والدين والصحة والسياحة التى أنشأها أفراد هذه الجالية وجمعياتهم فى القاهرة . ونمر فى أبواب أخرى بمؤسسات شركاتهم الصناعية والمالية والزراعية ، وبغير ذلك مما يزداد وضوحاً بالأرقام والصور والرسوم البيانية .

وفى الكتاب فصل كبير عن حياة عظماء الرجال الذين صرفوا شطراً كبيراً من حياتهم فى مصر لخدمة العلم والأدب والفن ، من بينهم رحالون جاءوا مصر واستوطنوها . ولعل يوحنا بوكارت هو أكثرهم شهرة وأشدهم مغامرة . وقصته لا شك جديرة بالنشر ، مثيرة للعواطف ، وهو ذلك الفرنجى المعمم ، والمسيحى المسلم ، والأديب المستشرق الذى اختطفه الموت فى ريعان شبابه ، والذى ما زال قبره قائماً بين مقابر المسلمين ، تطل عليه مآذن القاهرة ، ويقرأ على شاهده «هذا قبر الشيخ الحاج إبراهيم المهدى ابن عبد الله بوركارت اللوزانى » .

ومن عظماء الرجال هؤلاء ، علماء فى الطبيعة وفى علم طبقات الأرض ، وأطباء وقضاة وأساتذة ، ومستعربون ومستشرقون ، يكفينا أن نذكر منهم إدوارد نافيل E. Naville وماكس فان برشم Max Van Berchem .
أما الأول فقد عكف على دراسة التاريخ المصرى القديم ، وتفرغ للبحث عن حلقاته والكشف عن آثاره . وأما الثانى فتصدى للدراسات العربية ، وشهرة بحوثه فى اللغة وفى التاريخ وفى الآثار الاسلامية أوسع من أن يشار إليها فى مثل هذا العرض الوجيز .

يخيل إلى بعد أن قرأت كتاب « المائة سنة من الحياة السويسرية فى القاهرة » أننى أقرأ فى الوقت نفسه صفحات مجيدة من الحياة المصرية ، هذه الحياة التى اتسعت آفاقها فاجتذبت فى كل ناحية من نواحيها رجالا غرباء ، فطوتهم تحت كنفها وغرستهم بين زرعها ، فباتوا وأصبحوا من خيرة أبنائها .

أحمد فكرى

تراجم اسلامية : شرقية وأندلسية للاستاذ محمد عبد الله عنان (دار المعارف — القاهرة)

اختص الأستاذ محمد عبدالله عنان منذ بعيد بالغوص فى موضوعات التاريخ الاسلامى لاصطياد لآلئه وجلائها على أعين القراء فى إطار بديع من أسلوبه ومن فنه ، ليقرب إلى هؤلاء القراء سبيل البحث والدرس ويكشف لهم من صور ذلك التاريخ لوحات رائعة لعلها لو لم يجهد الأستاذ عنان لكشفها ونفض غبار التاريخ عنها كانت حتى اليوم خبيئة تحت الركام لا تنفذ إليها العين ولا تخلص لها النفس . وقد نشر الأستاذ عنان وأذاع طائفة من هذه الصور لطائفة من حوادث التاريخ الاسلامى ورجاله أو نسائه كأنه بما جلاها وكشف عنها قد أنشرها من موت وردها إلى الحياة .

وهذه المجموعة التى تنشرها له اليوم دار المعارف بالقاهرة تصور حلقة من هذا الجهد المتصل الذى يبذله الأستاذ عنان لازاحة الأنقاض المتراكمة عن أمجد صور البطولة فى التاريخ العربى والاسلامى ؛ وقد ترجم فيها لثمانية عشر من أعلام هذا التاريخ فى الشرق وفى الأندلس ، بين رجال ونساء لا تزال أسماؤهم على مر القرون تتردد على شفاه القوم وإن لم يعرف على التحقيق أولئك الذين تتردد هذه الأسماء على شفاههم ماذا كان شأن أصحاب هذه الأسماء ومتى ابتدأت حياتهم وأين كانوا وما أحدثوا فى التاريخ أو أحدث بهم التاريخ ! فليس كل فضل الأستاذ عنان أنه يكتشف هذه الصور وينشر هذه التراجم ، ولكنه إلى ذلك يضع لهذه الأسماء الدائرة على الأفواه مسمياتها ، وهو جهد مشكور لمكافحة « الأمية التاريخية » فى هذه الأمة التى تطلب المجد بغير أسبابه !

بلى ، فان على الشفاه أسماء هرون الرشيد ، وست الملك ، وشجرة الدر ، وصقر قريش ، وعبد الرحمن الناصر وما شئت من أسماء بلا مسميات ولا معان ؛ يباهى بها من يباهى ولعله أن يذكرها فى مقام الاحتجاج مفاخراً بأمجاد الماضى فاذا سألته البيان عىّ وانقطعت حجته ، وفى مثل هذا الكتاب الحجة الموصولة والبيان الذى ينشده .

على أننا نغمط الأستاذ المؤلف حقه إن تركنا القارئ يظن أن كل جهده فى مثل هذا الكتاب هو « اكتشاف »

الصورة وجلاؤها فى إطارها ، فانه مطلب يسير على كل من يرصد له جهده ولكن ثمة التحقيق والبحث والتنقيب والدرس والرجوع إلى المصادر المختلفة فى كتب الشرق والغرب ، المطبوع منها والمخطوط ، للنقد والموازنة والاستنباط واستخلاص الحق من الباطل واستيلاد الصواب من الخطأ ؛ وهو جهد لا يقدر عليه ولا تتهيأ أسبابه إلا للقليل من أهل التحقيق والرأى والاطلاع المنبسط العميق . وهو الجهد الذى يبذله الأستاذ عنان لوجه العلم ليقدم لقرائه مثل هذا الكتاب .

الأُساس فى تعليم القراءة للأستاذين ابراهيم أنيس وابراهيم الشربينى (مكتبة الجيزة)

روضة الطفل ، دار المعارف ، بمعاونة الأساتذة أمينة السعيد ويوسف مراد وسيد قطب .

قصص المدرسة للأستاذين أمين دويدار ومحمود زهران (مكتبة نهضة مصر)

أيقتضينى المقام أن أقدم المعذرة لقرائى قبل أن آخذ فى الحديث إليهم عن هذه الكتب التى أخرجتها المطبعة المصرية فى هذه الأيام للصغار من أبنائهم وبناتهم لا للكبار من قراء هذه الصحيفة الخاصة بالكبار؟

قد يكون من حق القراء أن أعتذر إليهم قبل أن آخذ فى هذا الحديث ؛ لا من أننى أعرض عليهم هذه الكتب الطفلية وكانوا ينتظرون ألا أعرض عليهم فى هذا المكان غير ما يعنيهم من كتب الكبار ، بل من أننى لم أعرض عليهم قبل اليوم مثل هذه الكتب الطفلية وكان من حقهم على — أو على المؤلفين وأصحاب الأقلام — ومن حق أبنائهم وبناتهم كذلك أن أعرض عليهم كل ما تخرجه المطبعة العربية من كتب الصغار ؛ أليس الطفل — كما يقولون هو أبا الرجل وأمه ؟ فمن أين ننتظر أن يكون فى العربية غدا جيل من القراء والقارئات يلتمسون فيما يقرءون منفعة ولذة إذا لم نعود أطفالنا منذ اليوم أن يقرءوا وأن يلتمسوا فى القراءة منفعة ولذة ؟

إن الصيحات لتتوالى من كل جانب بالشكوى من قلة إقبال متعلمينا على القراءة ، وإن المعنيين بشئون الأدب والتربية ومستقبل الثقافة العربية

ليشفقون من سوء المصير لقلة هـذا الاقبال على القراءة ولا يكادون يلمسون أسبابه ؛ أما أنا فأزعم أننى قد عرفت السبب والنتيجة ؛ فما قل إقبال متعلمينا على القراءة إلا لأنهم لم يعودوها منذ الطفولة ، ولو قد عودهم معلموهم ومعلماتهم ، أو آباؤهم وأمهاتهم ، أن يقرءوا منذ الطفولة ، لوجدوا لـذة القراءة فتعودوها فالتمسوا لذتهم منها كباراً كما كانوا يلتمسونها صغاراً ؛ وإذن فمن هنا كان أول النقص فى التربية ؛ ولكن ماذا يقرأ أطفالنا ؟ ماذا نقدم إليهم نحن المعلمين والمعلمات أو الآباء والأمهات من فنون المقروء لنغريهم بما فيه من المتاع واللذة على تعود القراءة ؟ هذا هو السؤال الذى لا أكاد أجد جوابه ؛ فما أظننى أكون غالياً فى القول إن زعمت أن المطبعة العربية ، أو أن المؤلفين العرب ، لم يقدموا للطفل حتى اليوم شيئاً ذا بال يستطيع أن يضمه إلى مكتبته الصغيرة ليقول مباهياً إن لى كتاباً أخلو إليه ساعة من النهار كما يخلو أبى إلى كتابه!

بلى ، هناك محاولات فى أدب الطفل العربى قد أصابت خطاً من التوفيق ، ولكن ذلك ليس شيئاً بالقياس إلى ما نريد . إن الطفل فى أول مراحل التعليم أشره إلى القراءة من أبيه وأمه ، لأنه فى هذه السن أفرغ وقتاً وأقوى رغبة فى المعرفة ، ولأن أحب شىء إليه أن يقلد ، وأن يطلع ، وأن يحاول الوصول إلى أسباب المعرفة وحده . تلك حقيقة يعرفها كل معلم وكل أب ؛ فلو أننا أخذنا بالقياس لكان علينا أن نقدم إلى الطفل من الكتب أكثر مما نقدم إلى الآباء والأمهات قبل أن نزعم أن بين أيدى أطفالنا ما يقرءون ! وإذن فنحن لم نقدم حتى اليوم للطفل ما يقرؤه ، لأن هذا القليل النادر مما أخرجته المطبعة العربية من أدب الأطفال ليس شيئاً — من حيث الكم على الأقل — إلى ما ينبغى أن نقدم إليه ؛ وإذن فان من حقى أن أغتبط ، أنا الأب القارئ ، حين تقدم إلى المطبعة كتاباً أستطيع أن أدفعه إلى ابنتى ، أو إلى ابنى ، ليقرأه فى ساعة من ساعات فراغه الطويلة ؛ وإذن فليس من واجبى أن أعتذر إلى الكبار من قراء هذه المجلة من أننى أعرض عليهم اليوم هذه الكتب الطفلية ؛ فقد كان الأمثل أن أعتذر ، أو أن يعتذر المؤلفون وأرباب الأقلام ، لأنهم لا يتيحون لمثلى أن يعرض على قرائه فى كل عدد من أعداد هذه المجلة كتاباً أو طائفة من كتب الأطفال ؛ لأن مؤلفينا وأرباب الأقلام فينا لا يعترفون بما

عليهم من حق لهؤلاء الأطفال ولا يزالون مع ذلك يجأرون بالشكوى من قلة إقبال الكبار على القراءة !

والآن ما هذه الكتب التى أسلفت أسماءها فى صدر هذه الكلمة ؟

أما أولها « الأساس فى تعليم القراءة » فكتاب جديد فى التهجى — وكتب التهجى كثيرة فى أيدى التلاميذ والمعلمين — ولكن هذا كتاب له منهاج ؛ فقد استن فيه المؤلفان سنة جديدة يريانها أسرع بالطفل إلى التعلم ، بعد تجربة طويلة — كما يقولان — على التلاميذ الأجانب فى كلية فيكتوريا ؛ وقد أتاحت لهما هذه التجربة أن يضعا أساساً أو منهاجاً بسطاه بإيجاز فى المقدمة وجعلا هذا الكتاب تطبيقاً عليه .

وأما الثانى « روضة الطفل » فسلسلة من القصص الطفلية الظريفة مفتنة مصورة ملونة أخرجت منها دار المعارف حلقتين ، إحداهما قصة « أرنبو والكنز » ، والثانية قصة « كتكت المدهش » ووعدت بإخراج غيرهما ؛ وقد دفعت الكتابين إلى ابنتى — وهى طفلة دون السادسة ولم تزل فى الفرقة الثانية بالروضة — فقرأتهما فيما دون الساعة وجاءت تقصهما على وتطلب المزيد . . .

وأما الكتاب الثالث « قصص المدرسة » فمجموعة من الأقاصيص الصغيرة للأطفال فى المدرسة الابتدائية أنشأها مؤلفاها وفاء بحاجة تلاميذ المدرسة الابتدائية إلى هذا النوع من الحكايات ، فجاءت بأسلوبها وفنها وصورها وافية بالغرض إلى الحد الذى حمل وزارة المعارف على تقريرها لتلاميذ وتلميذات السنة الأولى بالمدارس الابتدائية .

ليت أدباءنا ومؤلفينا يعرفون ما عليهم من حق لأطفالنا الصغار فيفرضها كل منهم ضريبة على نفسه أن يقدم فى كل عام كتاباً للصغار إلى جانب الكتب الكثيرة التى تؤلف للكبار فلا يقرؤها الكبار ولا الصغار !

محمد سعيد العريان

فى مجلات الشرق

فن الكذب

فى العدد الثالث من مجلة «المعرفة» التى تصدر فى دمشق ، مقال بهذا العنوان للأستاذ عزت النص ، يريد فيه أن يبرهن لقرائه على أن « أعذب التاريخ أكذبه ! » فاذا كان الشعر - أو الأدب - هو فن الكذب السافر فان التاريخ - فيما يراه - هو فن الكذب المستتر !

وفى سبيل دعم هذا الرأى ، ثم فى سبيل الارتفاع بمرتبة الكذب بين الفنون - ينقل الكاتب كلاماً للأديب الأمريكى مارك توين فى الدفاع عن « فن الكذب » يسوقه مساق الفكاهة وإن لم يخل من مغزى جدى صارم . فاذا فرغ من سياق هذا الحديث أخذ فى حديث آخر عن كذب التاريخ ، وراح يناقش بعض أكاذيبه المروية ، ويعرض للأسس التى يعتمد عليها المؤرخون لما يروون من أخبار التاريخ ، فينقضها أساساً بعد أساس ؛ فهل هناك إلا شهادات الشهود وقصص الرواة وحكايات الاخباريين ؛ « فهل هؤلاء كلهم موضع ثقة ؟ . . . » ثم هنالك المخلفات المادية ، الصامتة والناطقة ، من أوابد وأنصاب وتماثيل ورسائل . « أكل حجر منقوش وإن صح نسبه واتصل سببه ، ثبت صدقه ووجب تصديقه ؟ . . . »

« وما العمل إذا انعدمت الوثائق أو صمتت ؟ . . . هنالك فى سلسلة الحوادث التاريخية حلقات مفقودة يعمد المؤرخون إلى إيجادها بالاجتهاد العقلى ؛ فما هو نصيب هذا الاجتهاد الفرضى ؟ »

ويمضى الكاتب فى نقض تلك الأسس على طريقته حتى ينتهى إلى ما يريد ليلفت الأنظار إلى « نسبية الحقائق التاريخية » ، ثم إلى ما تجمع كتب الأخبار والتواريخ من تناقض ومعارضة يؤكدان أن كتب التاريخ ، إن لم تكن كذباً خالصاً ، فانها على أى أحوالها ليست صدقاً خالصاً !

بريطانيا في الشرق

ويحرص الأستاذ خالد بكداش في عدد يناير من مجلة « الطريق » — بيروت — على أن يعرض لقرائه «السياسة البريطانية في الشرق العربي» وحالة بريطانيا من القوة أو الضعف بعد الحرب العالمية الثانية ، وهو يرى أن هذه الحرب قد انتهت ببريطانيا إلى الضعف وأبرزت تجاعيد الهرم والشيخوخة في هيكلها المتداعي . . .

« وفي الحق كم جهد عمال الامبراطورية ودعاتها وكم اخترعوا ولفقوا لاقناع الناس بأن أمهم على شيخوختها ما تزال في تمام العافية ، ولكن الناس لم يصدقوا شيئاً من صحة العجوز ! . . . »

ثم يحاول الكاتب فيما يلي أن يصف أثر ذلك الضعف وتلك الشيخوخة في سياسة بريطانيا في الشرق ، وكيف أخفقت في كل ماتحاول ، وعجزت عجز الضعيف عن تنفيذ ما كانت تعتزم من فنون سياستها الاستعمارية ، فيصف ما كان من أمرها في سوريا ولبنان ، وكيف بيتت النية لسلخهما عن فرنسا لتستأثر فيهما بالنفوذ والقوة من دون حليفتها ، فباءت بالخيبة وأخفق تدبيرها واستقلت سوريا ولبنان عن فرنسا وانجلترا جميعاً ، وعاد البلدان لأهلهما حرين مستقلين .

ثم كيف أفلت العراق — فيما يرى — من القبضة البريطانية الهاشمية ، فأصبح الجلاء هو الشعار الأول للحركة الوطنية العراقية ، وقوى معناه في كل نفس حتى لقد أحجمت بريطانيا عن طلب تعديل المعاهدة العراقية القديمة — كما كانت تأمل — لئلا يكون ذلك سبباً إلى تنبيه العراقيين إلى المطالبة بالجلاء !

ثم يصف الموقف البريطاني من قضية وادي النيل ، وكيف أخفقت السياسة الانجليزية إخفاقاً ذريعاً في الوصول إلى شيء مما حاولته بشتى الأساليب لخداع المصريين عن حقهم في الجلاء ووحدة الوادي على كثرة المحاولة والمطاولة والحيلة واصطناع الأنصار .

ويعرض بعد ذلك لقضية فلسطين والصهيونية ، ولم يكن إخفاق بريطانيا فيها أقل منه في غيرها من البلاد التي تحاول إخضاعها لسلطانها بالقهر أو بالخداع والحيلة ، بل لعل إخفاقها في هذه القضية كان أذل وأخزى .

ولا يفوت الكاتب أن يعرض لسياسة بريطانيا فى شرق الأردن وما تأمله من بعث أسطورة « سوريا الكبرى » لتضم تحت جناحها الدار والجار ، وتجد سبباً آخر إلى ما عجزت عنه فى سوريا ولبنان وفلسطين . . . ويستمر الكاتب فى إيراد الشواهد على ضعف سياسة بريطانيا وعجزها وضعف أسباب حيلتها بعد الحرب حتى ينتهى إلى ما يريد لينبه حكومات الشرق العربى وشعوبه إلى الفرصة المواتية لهم ليستخلصوا حرياتهم ويحققوا لبلادهم معانى الاستقلال .

مؤتمر الأدباء العرب

ويتساءل الأستاذ سامى الكيالى محرر مجلة « الحديث » — حلب — فى عدد يناير الماضى : لماذا لا يتداعى أدباء العربية فى مختلف أقطارها إلى مؤتمر عربى عام يداولون فيه الرأى حول ما يعنيهم من شئون الأدب ، وحقوق التأليف ، ووسائل نشر الثقافة وترقية الفكر العربى ؟

ويرى أن الأدباء كانوا أحق الطوائف بأن يكون لهم السبق فى الدعوة إلى مثل هذا المؤتمر العام ؛ لأنهم — قبل غيرهم — كانوا دعاة هذه الجامعة المؤتلفة ، ومن صدى هتافهم كان هذا الوعى المستيقظ فى نفس كل عربى .

« أفلا يجدر بهم أن يتنادوا لعقد مؤتمر دورى كل عام يدرسون فيه مشاكل الأدب وحقوق الأدباء والمؤلفين وموقفهم من بعض الحكومات التى تطغى أحياناً بتصرفات تتنافى وكرامة الأدب ، وغير ذلك من الأمور التى تتصل بحياتنا العقلية . . . فهم أقل الناس استفادة من مجهوداتهم الضخمة ، فلا تزال حقوقهم مهضومة ، وجهودهم غير معترف بها ؛ ولا تزال بعض الهيئات الرسمية تنظر إليهم نظرات غير جديرة بالمكانة اللائقة بهم . . . »

ثم يردف بعد تفصيل فكرته :

« إن « الحديث » تدعو إلى عقد مؤتمر أدبى تدرس فيه كل مشاكل الأدب ، فلدينا عدة قضايا هامة تستوجب اجتماع كبار أدباء العرب لبحثها : حالة الأدباء ، موقف الحكومات من اتجاهات الأدب ، حقوق المؤلفين ، حرية التفكير ، الأدب القومى والأدب الانسانى ، الجوائز الأدبية ، تشجيع

المؤلفين ، التأليف والترجمة والنشر ، الصحافة الأجنبية التي تصدر بلغة الضاد . . . على أن يكون هذا المؤتمر التمهيدي الركيزة الأولى لمؤتمرات عديدة تشترك فيها المجامع العلمية والجامعات والصحافة ودور النشر ، لوضع خطط واضحة لازدهار الأدب العربي وتعزيز مكانة الأدباء ، ووضع خطط ومناهج واضحة لسير الأدب العربي في مجرى التطور العالمي » .

الأدباء كسالى

ويتناول الأستاذ رئيف خوري في العددين ٤٤٧ ، ٤٤٨ من مجلة « المكشوف » — بيروت — موضوعاً طريفاً جعل عنوانه « الأدباء والكسل والعزلة » ، فيتحدث عن طائفة من الأدباء أو المعروفين بالأدب يؤثرون الكسل والبطالة واعتزال الناس مكتفين بما بلغوا من حظ كبير أو ضئيل من الشهرة . فاذا سألتهم لماذا آثروا البطالة والاعتكاف احتجوا بضيق نطاق الحرية أو بسوء تقدير الجمهور وقلة التشجيع أو الضيق بالناس، إلى غير ذلك من المعاذير التي لاتعفيهم مما عليهم من تبعات وما يقتضيهم الأدب من حقوق .

ويرد الكاتب هذه الظاهرة بألوانها المختلفة إلى أن في مزاج أكثر أهل الفنون نوعاً من النفور يبتعد بهم عن الناس ، وهي ميزة ، أو عاهة ، واسعة الانتشار في أدباء العرب شأنهم في ذلك شأن معظم أدباء الأمم . ثم يقول :

« وأكبر الظن أن هذا النفور من الناس في مزاج الأدباء يرجع بعضه إلى دلال وكبرياء قل من الأدباء من تخلو نفسه منهما أو من أثر لهما . يعتقد الأديب — بمجرد ما يكون أديباً — أن فيه سرا يضع مرتبته فوق الناس ، وأن له على الناس حق الخدمة والاعزاز ، فيلبث مكتوف اليدين يتوقع منهم تلك الخدمة وذلك الاعزاز . . . ولكن الناس منهمكون في مشاكل حياتهم لا يلتفتون إليه ، فيأخذه الحنق عليهم ، ويدفعه الحنق إلى التيه والتجني على الناس ثم إلى الاستخفاف بهم ، وهو لاعتقاده بأن له حقا عليهم لا يغفر لهم أن يسيئوا إليه مهما أساء إليهم . . . »

فى مجلات الغرب

لانيف *La Nef* (عدد يناير ١٩٤٧)

فى السياسة — اقرأ مقالا كتبه روبير آرون « الاشتراكية عند كارل ماركس » وهو النص الكامل للبحث الذى عرضه صاحب المقال فى المؤتمر الدولى للفلسفة الذى عقد فى روما فى ١٨ نوفمبر سنة ١٩٤٦ . وعنوان البحث : « تعقيل [١] الاشتراكية عند كارل ماركس » . ويتعرض روبير آرون فى أول مقاله لمشكلة الفكر الملتزم la pensée engagée ، وهى مشكلة ذات شأن فى أيامنا هذه . فهو يقول : « إن كل فكرة نظرية مهما تكن ظاهرة التحكم ، فهى ملزمة دائماً بشرط أن تكون مبتكرة وجديدة . » وهذا الرأى يمكن أن يقارن برأى آخر لاحظناه عند كاتب روسى [٢] ، فالرأيان متحدان تقريباً . وهذه المقارنة مجدية لولا أن هذا الرأى بديهى . ثم يقسم روبير آرون الملتزمين ، أى المفكرين ، إلى قسمين : أحدهما قسم الذين يلتزمون عن إرادة ، والآخر قسم الذين يلتزمون عن غير إرادة . وهؤلاء هم الأكثرون . وهم يذيعون رسالتهم (وهى كلمة أنشأها البدع الحديث) دون أن يعرفوا من هم الذين سيتلقون هذه الرسالة ولا فى أى ظروف سيتلقونها . كذلك نلاحظ «تأثير المفكرين المعنين فى الدقة والفلاسفة المؤثرين للتشدد فى تطور بعض المذاهب السياسية وفى الاشتراكية خاصة . وهذا التأثير يكون مباشراً يصدر عنهم أو غير مباشر يتم بوساطة تلاميذهم . » وهذه هى المقدمة التى يصل فيها الكاتب إلى موضوعه . فيقول : إن الفكرة الاشتراكية كانت تتجه اتجاهاً حسياً قبل كارل ماركس طامحة إلى العدل فى الاجتماع وإلى الحرية فى السياسة . ولكن المنهج يتغير بظهور كارل ماركس فيقوم الاتجاه العقلى مقام الاتجاه الحسى . وصاحب المقال يحاول فى بحثه أن يدرس هذا الانتقال من الاتجاه

(١) استعمل هذه الكلمة الأستاذ أحمد أمين بك ، كما استعملت من قبل كلمة التأميم .
(٢) الكاتب المصرى عدد ١٦ (يناير ١٩٤٧) .

الأول إلى الاتجاه الثانى . فيلاحظ ويؤيد بأمثلة قاطعة أن «أخص ما كانت تمتاز به الحرية فى الاشتراكية قبل كارل ماركس ، إنما هو التنوع والاجتناس » بحيث كان ذلك يقتضى فى بعض الأحيان شيئاً من الاختلاط فى بادئ الأمر . وهذا الاختلاف نفسه كان يحرص عليه بعض الاشتراكيين من أمثال برودون ، وهو الذى يفرق بينهم وبين ماركس . « ويجب أن نلاحظ أن الافتراق بين ماركس وبرودون يدور قبل كل شئ حول الاختيار الذى يجب أن نعتمد عليه أو أن نتجنبه بين اتحاد الفكر والشعور أو اختلافهما . » والكاتب بهذه المناسبة يستعير جملة من الرسالة (١) التى أصدرها ماركس والتى كانت مصدر الفرقة بينه وبين برودون . وماركس فى هذه الجملة يسخر من عجز برودون عن تكوين فكرة عامة حاسمة . يقول ماركس : « إن مسيو برودون برغم خوفه الشديد من التصعيد إلى أعلى درجات المذاهب ونقائضها ، لم يستطع أن يصعد إلا إلى أرقى هاتين الدرجتين ، وهما درجتا التعميم والتناقض البسيطين . وهو لم يصعد فيهما إلا مرتين ، خر فى إحداهما صريعاً . » ثم يتبع تطور التفكير المركسى من المثالية إلى المادية التاريخية . وفى هذا التطور نلحظ التناقض فى تفكير ماركس . فقد حاول أن يصطنع وسائل مذهبية جماعية ليصل إلى غاية لا يمكن أن تكون مذهبية ولا جماعية . ويرى الكاتب أن ماركس حين عقل الاشتراكية ، لم يستطع أن يفلت من المذهبية ؛ « فهو قد أقام مقام المذهب المستقر قبل هيجل مذهباً متحركا ؛ ومكان المذهب الجامد الموقوف على لحظة ما من الدهر مذهباً آخر يمتد مع الزمن ويستعمر التاريخ . لم يعدل عن المذاهب المنظمة ، وإنما فضله أنه أتاح لهذه المذاهب أن تعمل . » ثم يختم الكاتب مقاله بعد أن بين تطور المذهب الاشتراكى بهذه الأسطر : « بعد هاتين الفترتين اللتين حاولت تشخيصهما من تاريخ الاشتراكية : فترة الحس وفترة العقل ، أرجو أن نصل إلى طور جديد نسمى فيه الأشياء بأسمائها ويكون طور التحقيق . »

كل عدد من أعداد « لانيف » يعرض على غلافه وفى فهرسه عنواناً أو موضوعاً داخل إطار يكاد يشعر بأنه عدد خاص . فمرة يختار عنوان

(١) عنوان الرسالة : « فلسفة البؤس » *La philosophie de la misère*

« الصلات بين فرنسا وبلجيكا » ، وتارة يختار « لوتريامون » . أما هذا العدد فقد اختير سياسى عظيم من رجال الجمهورية الثالثة ، وهو ريمون بوانكاريه الذى يدور حوله البحث والحديث . وقد خصص له ثلاثة فصول : الأول كتبه إيمانويل بيرل واختار له اسم ريمون بوانكاريه عنواناً وإن لم يعرض فيه إلا للجمهورية الثالثة ، ولكن درسه كان من الدقة والوضوح والصدق بحيث لم يكن يصلح له إلا هذا العنوان ؛ لأن ريمون بوانكاريه ، كما يقول الكاتب ، هو أصدق ممثل للجمهورية الثالثة . ومزايا هذا النظام ، بل هذا الرجل ، هى مزايا الطبقة الوسطى فى فرنسا إذا لاحظنا أحسن مقوماتها . وقد كان الجيل المعاصر للجمهورية الثالثة من الطبقة الوسطى الفرنسية بحيث يعيش متأثراً بذكريات الهزيمة طامحاً إلى الثأر مشغوفاً بالثقافة حريصاً على الأمانة . « ومن هنا كانت أخص الصفات التى اشتهر بها بوانكاريه ؛ فهو من غير شك ، منذ روبسبيير ، السياسى الذى آمن معاصروه إيماناً قوياً بنزاهته . » وإذا كان بوانكاريه قد امتاز ، كما امتازت الجمهورية الثالثة بهذه الخصال ، فانه قد اتصف واتصفت معه الجمهورية ببعض العيوب : خاف من أن يتجاوز النزاهة ويتورط فيما لايليق ، فخاف من كل التزام . ولنذكر أن بوانكاريه تردد كثيراً قبل أن يكوّن لنفسه رأياً فى قضية دريفوس . وخصلة أخرى من خصال ساسة هذا العصر تأتى من تكوينهم القانونى الذى كان يدفعهم « إلى الأيمان الساذج بقوة ما يسمعون من حجج » . ثم يعرض إيمانويل بيرل الأزمة المالية التى أصابت فرنسا سنة ١٩٢٦ والتى حلها بوانكاريه بطريقة ساحرة . ثم يضيف : « أكان يظن أنه فقد شهرته . ولكن هذه الظروف أظهرت أن فى فرنسا نوعين من الشهرة ، تأتى إحداهما من الحب ، وتأتى الأخرى من الاعتبار . »

المقال الثانى عن بوانكاريه يأتلف من مختارات أخذت من كتاب تحت الطبع عنوانه « تبعة دول الطبقة الوسطى » ومؤلفه ا . بو دى لومينى[1] وعنوان المقال : « كيف صار بوانكاريه اللورينى العظيم » . والمقال تاريخ دقيق للمناورات السياسية التى انتهت ببوانكاريه إلى رئاسة الوزارة سنة ١٩١٢ ، ثم إلى رئاسة الجمهورية سنة ١٩١٣ ويظهر من هذه المناورات التى جرت من وراء الستار أن المؤثر الأول فى فوز

(١) E. Beau de Loménie, *Responsabilité des dynasties bourgeoises.*

بوانكاريه قد كان اريستيد بريان الذى «خاب أمله لأنه لم ينل الفائدة الذى كان ينتظرها من إسقاط كايو Caillaux ، فخطر له أن يدفع بوانكاريه إلى الرئاسة ليظفر بثقته ويكفل اعترافه للجميل» . والذين يعنيهم أن يتتبعوا دقائق الكيدالسياسى لتحقيق الأطماع الخاصة يجدون مايرضيهم فى قراءة هذا المقال .

ولكن القراءة التى تلذ حقا أكثر من أى شئ آخر هى قراءة المقال الثالث ، وهو أثر من آثار بوانكاريه نفسه . وهى طائفة من خواطر الشباب أسرها إلى دفتر أحمر فى السابعة عشرة من عمره ، واختار موريس بورشيه Maurice Pourchet بعضها فى هذا الفصل . وفى هذا النص مزاج ممتع من عبث الأطفال والنضج المبكر ، وهما الخصلتان اللتان تمتاز بهما مذكرات الشباب . وانظر كيف يختم بوانكاريه مقدمة دفتره بهذه الجملة : « والآن أيها القارئ عم صباحاً إن شئت أن تقرأ ما وراء هذه الصفحة ، وعم مساء إن أردت أن ترد هذا السفر إلى حيث كان . »

وقبل أن نختم حديث السياسة فى « لانيف » يحسن أن ننبه الذين يعنون بالسياسة الحية إلى مقال بقلم جورج إيزارد Georges Izard « الخاسرون هم الرابحون » ، وهو يعرض السياسة الفرنسية الداخلية وبنوع خاص قضية الأحزاب وتعاون الأحزاب الثلاثة فى الحكم ، وإلى مقال آخر فى السياسة الدولية بقلم بيير دنواييه Pierre Denoyer يدرس فيه العلاقات بين الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا السوفيتية دون أن يصل إلى نتيجة معينة . وعنوان المقال : « أيمكن الاتفاق بين الولايات المتحدة وروسيا » . وهذان الفصلان قد كتبا فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٤٦ ، فجائز أن يفقدا قيمتهما لمرور الوقت وإن كان التفكير فيهما أصدق من أن يغيره مرور الزمان .

فى الأدب — اقرأ فى « ملاحظات على الكتب » صفحة ونصف صفحة بقلم إدوارد دوليان Edouard Dolléans عن كتاب «صبى الحرفة» *L'apprenti* لريمون جيران . وأخص ما يمتاز به هذا الكتاب فى رأى الناقد حرص الكاتب على أن يكون وصفه صادقاً لا تهاون فيه ولا لين . ويجب أن يكون الكاتب على حظ موفور من الشجاعة ليؤثر بفنه الحق على كل شئ .

في المسرح — يحدثنا ج . ج . رنييرى J.J. Rinieri عن المسرحيتين الأخيرتين لجان بول سارتر اللتين أسرع إليهما أهل باريس جميعاً وظفرتا على ذلك بنجاح خاص : الأولى « أموات لا قبور لهم » مشتقة من المقاومة الفرنسية ، يقول عنها الناقد إنها مسرفة فى التفكير العقلى . فالأشخاص لا يكفون عن التساؤل ولا عن عرض ما يصلون إليه من تحليل ، فلا يبقى للنظارة شئ ، وليست الحركة فى القصة إلا إسرافاً فى إقامة البراهين . أما التمثيل فيود الناقد لو أن الممثلين آثروا الكلام على الصياح . ثم يختم نقده بأن لهذه القصة قيمتها ، وكانت خليقة أن تكون قصة عظيمة .

أما القصة الثانية «المومس المطيعة» فقد ظن بعض الماكرين أن جان بول سارتر إنما اختار عنوانها هذا البشع ليثير استطلاع النظارة . ويظهر أن ج . ج . رنييرى مفتون بهذه القصة . وموضوع القصة اضطهاد البيض للسود فى أمريكا ، وما يرى الكاتب فى النظام الأمريكى والخلق الامريكى من نفاق عميق . والقصة رسالة فى هجاء عنيف .

ويظهر أن القصة الجديدة لمسيو ج . نوفو Georges Neveux وعنوانها « شكوى ضد مجهول » قصة ناجحة . وهى تعرض مسألة خطيرة تختلف فيها آراء المعاصرين فيما يقول الناقد وآراء الناس فى مختلف العصور فيما نظن ، وهى مشكلة السعادة . فنفر من الناس قد استكشفوا أن ليس هناك ما يدعوهم إلى أن يحيوا حياة ثابتة مستقرة ، وأن صفاء العقل يهدم السعادة . فهم يذهبون إلى النائب العام ليقدموا إليه شكوى ضد الاله قبل أن ينتحروا ، والنائب العام يحاول صرفهم عما أرادوا . فاذا يئس من ذلك تركهم وذهب إلى حفل موسيقى . وفى أثناء ذلك تتغلب طبيعة الحياة ، فاذا عاد النائب العام أقنع هؤلاء الناس باسترداد شكواهم . ثم يخلو إلى نفسه ، فلا يلبث أن يتبين أنه قد حصر حياته فى حدود ضيقة ، وإذا هو يستكشف أن سعادته غرور ، وإذا هو ينتحر . فأنت ترى أن هذا موضوع من موضوعات اليأس ، ولكن يظهر أن الكاتب قد أحسن تصويره . وتنتهى هذه الشهرية بمظهرين من مظاهر الاعجاب يندفع إليهما الكاتب ، تدفعه إلى أولها مسرحية جديدة هى « البورلادور » *Le Burlador* وهى تستعير عنوانها من الكاتب التمثيلى الاسبانى العظيم تيرسو دى مولينا Tirso de Molina . وصاحبة هذه

المسرحية هى سوزان ليلار ، وقد عرضت فيها حديث دون جوان . أما المظهر الثانى من مظاهر إعجاب الناقد فموضوعه تمثيل « الملك لير » لشكسبير ، وقد قامت بهذا التمثيل فرقة أولد فيك . ويظهر أنها وفقت فيه توفيقاً عظيما وظفرت باعجاب باريس .

فونتين *Fontaine* (نوفبر ١٩٤٦)

فى الأدب — يبتدىء هذا العدد بمقطوعات لم تنشر للشاعر الفرنسى العظيم ملرميه رئيس الرمزيين . وهذه المقطوعة مهداة إلى وليم بونابرت وايز ، حفيد لوسيان بونابرت ، وهو إرلندى فرنسى فى وقت واحد . و إليك ما تقوله إيلين سوفران فى تقديم هذه المقطوعة فى « فونتين » . « وهذه المقطوعة تعرض لموضوع من أشد الموضوعات التى عرض لها ملرميه إلحاحاً ، وهو شعر الرأس . وأول ما يفجأ القارىء أن ملرميه يتناول هذا الموضوع على طريقة بودلير و إدجار ألان بو . فشعر الرأس يذكر مع الأستار والأكفان والعدم والموت . » ويختم تقديم المقطوعة بجملة من كتاب كتبه ملرميه إلى وليم بونابرت — وايز وهى تصور حياة الابتكار التى كان يحياها ملرميه إذذاك فى السادسة والعشرين من عمره سنة ١٨٦٩ إذ يقول : « إنى أحيا دائماً فى الفكرة المطلقة وأعرف بعض الأشياء . »

واقرأ فى الشهريات مقالا بقلم جايتون بيكون Gaëtan Picon وعنوانه « عصريات أندريه جيد » . وهذا المقال خليق أن يسمى دراسة . وقد قال الكاتب فى الحاشية ، على هامش «ثيسيوس» والمجلد الأخير من « اليوميات ١٩٣٩ — ١٩٤٢ » . وبعد أن لاحظ فى أول مقاله أن ما يشع فى شخص ثيسيوس من محضر قوى لم يفقد شيئاً من سلطانه القديم يضيف الكاتب : « إن من أخص مميزات الآثار الكبرى أنها تستطيع ، مع أنها لا تعنى إلا بنفسها ، أن تحقق ما كنا ننتظر منها . ومن أسرارها التى لا تحاكى أنها على عكوفها على نفسها دائماً تكفل لنا ألا نسألها عبثاً . » ثم يعارض الكاتب بين وجهة النظر التى يتوخاها جيد والوجهة التى يتوخاها الأدب المعاصر . فالأدب المعاصر يرى أن الانسان لم يبق كما كان يراه جيد كائنا له حياته الداخلية القوية . ذلك أن الأدب

العاصر لا يعنى الآن « بتحليل الضمير الانسانى وإنما يعنى بتحديد مركز الانسان . فالانسان هو موضوع الدرس دائماً ، ولكن تفكيره فى نفسه يحل صورته بدلا من أن يجليها » . ثم يستعرض الكاتب خصائص أدب أندريه جيد والمشكلات التى يثيرها . وإذا لم ير فى « ثيسيوس » آية أندريه جيد ، فانه يرى فى هذا الكتاب أصدق صورة لمنشئه . وربما كان أهم ما يدعو الكاتب إلى تفكير عميق هو عصرية ، أو بعبارة أدق، لاعصرية آثار أندريه جيد . فهو يقول : « إن الذى يؤثر فى نفوسنا ويملؤها إعجاباً أمام جيد هو الشعور بأننا أمام آثار لن ينتج الأدب مثلها ، أمام ثمرات متأخرة لذيذة لثقافة قد جعلت تتلون بلون العصر الذهبى . » ويقول : « وليس من شك فى أن أكثر هذه الآثار يعيش مصاحباً للاعصرية ، وهذه اللاعصرية تصور قيمة عظيمة فى مستقبل ممكن دائماً» . ثم يقول الكاتب :«إذا كنا نحيا بتجاوز أنفسنا ، فان وقتاً يأتى من غير شك تشعر فيه بأن هذا التجاوز أشبه شئ بالرجوع إلى الماضى . »

ويخيل إلينا الكاتب أن من الممكن أن نعود فى وقت قريب إلى العناية بالمشكلات التى شغلت أندريه جيد . ذلك لأن أندريه جيد لم ينقطع عن أن يعرض علينا مثلا مستمدة من الحقائق الثابتة الأساسية ، ولأنه أثبت فى قوة لم يبلغها أحد غيره فضيلة الحرية .

فى الفلسفة — واقرأ فى هذا العدد دراسة بقلم برنارد جروتويزين Bernard Groethuysen الذى توفى أخيراً موضوعها « مونتسكيو وفن تحرير الانسان » . وقد قدمت المجلة بين يدى هذه الدراسة صفحة مؤثرة فى رثاء الكاتب بقلم جان فال Jean Wahl أحد أساتذة الفلسفة فى السوربون . ولست أدرى أترك الكاتب مقاله تاماً مستوفى أم ألفته يد صديق من مذكراتٍ متفرقة. ولكن الشئ المؤكد أن فى المقال شيئاً من التردد بل نجد فى آخره نصوصاً قد كررت بحروفها . ومع ذلك نحن نقرأ فى هذا المقال جملا كثيرة لمونتسكيو نسيت إلى الآن وجمعها صاحب المقال على نحو مبتكر . وكل هذه الجمل تتحدث عن الحرية .

من موسكو

مجلة الآداب السوفيتية Soviet Literature

في الأدب — لا شك في أن الآداب الانجليزية تعنى المثقفين من الروسيين في هذه الأيام . فهذا العدد السابع (يوليو ١٩٤٦) من الآداب السوفييتية يحمل إلينا مقالا عن جورج برنارد شو كتبه أفجيني المازوف ويريد أن يخيل أنه يهدى هذا المقال إلى برنارد شو لمناسبة العيد المئوى الثالث لمولده . والمقال يمضى على هذا النحو من الدعابة الحلوة ، ولكن هذا لا يمنع من أنه دراسة دقيقة كاملة للكاتب التمثيلي العظيم . ولننقل هذه الجملة الساخرة التي يعبث فيها الكاتب بالنقاد الأدبيين « وكما كانت الحال في العصور الماضية ، فبعض هؤلاء النقاد لا يفهمونه ولكنهم يقرونه ، وآخرون يفهمونه ولكنهم من أجل ذلك نفسه يرفضونه . فهو بالقياس إلى بعضهم مهرج وبالقياس إلى بعضهم نبي . »

وتعلن المجلة إلينا ترجمة جديدة للشاعر اللاتيني لوكريس . فقد نشر فيودور بتروفسكي Fedor Petrovsky ترجمة « لطبيعة الأشياء » عليها تعليقات بقلم فافيلوف عضو المجمع العلمي . وتشتمل هذه الطبعة على النص اللاتيني والترجمة الروسية وسبع عشرة لوحة محفورة على الخشب من صنع الفنان بيلوف Belov وبهذه المناسبة يبين المترجم الأسباب التي من أجلها يعنى الروسيون بهذا الشاعر الفيلسوف : « فشهرة لوكريس في روسيا تأتى أولا وقبل كل شيء من أن آثاره قد حملت إلينا أثناء ألفى سنة أرقى نمو للفلسفة المادية في العصر القديم . فقصيدته التعليمية مثل نادر للملاءمة التامة المنسجمة للصورة الشعرية الراقية والموضوع الفلسفي العميق . »

أمينة طه حسين